أسرار عائلية

رواية

علي بداي

ميزر

أسرار عائلية

إسم الكتاب: أسرار عائلية.

إسم الكاتب: علي بداي.

لوحة الغلاف(C)الفنانة عفيفة لعيبي.

تصميم الغلاف: ForDel

إصدار: دار ميزر للنشر والتوزيع

www.maizar.se

الطبعة الأولى: مايس (مايو) 2019.

حقوق النشر (C)محفوظة للمؤلف.

رقم الإيداع الدولي: 978-91-984711-6-8

Bokensnamn: Familjehemligheter.

Författare©: Ali Badai.

Omslags bild:Afifa Aleiby.

Omslags layout: ForDel.

Maizar förlag: www.maizar.se

Första upplagan: Maj 2019.

ISBN: 978-91-984711-6-8

أسرار عائلية

رواية

علي بداي

السويد 2019

مقدّمة المخرج "طارق زيدان"

كان "وائل الشاعر" عندما عرفته قبل ثلاثين سنة، أيام دراستي السينما في "باريس" شاباً جريئاً جذاباً ذا سمات فريدة. ملامحه الشاعرية قادرة على إيصال رسالة كاملة مفصلة عبر نظرة متمعنة واحدة من عينيه، ولطالما مازحته قائلاً: "ما الذي تبغيه من دراسة الطب؟ أنت مخلوق للسينما، لابد ان تكون يوماً ما بطلاً لأشهر أفلامي!" لم يكن مزاحي معه سوى تعبير عن إعجابي العميق به، وبطريقته في التعامل المرهف مع الحياة. كنا في آخر شهر من سنتنا الدراسية الأولى، عندما تعرفت عليه عن طريق زميلتي في أكاديمية الفنون، الشابة المدهشة "دنيا" بعد تعرفي عليها بأقل من شهرين. أقبلا نحوي وانا جالس في حديقة الأكاديمية، ثم قدمته لي بإعتزاز: خطيبي "وائل الشاعر"، فمددت له كفي مصافحاً، وقد بوغت بوجود رجل يسعى لقطف هذه التفاحة التي لايمكن لعيني رجل ولا قلبه تجاهلها. إنتهى، حُرّمت عليّ التفاحة، مات الحلم الصغير الذي نبت في أعماقي، عندما التقت عيناي بعيني "دنيا" الساحرتين أول مرة. بقيت لحظة مرتبكاً ومخذولاً فقلت كمن يقدم تعزية:

– زميل خطيبتك، "طارق زيدان"!

لم أكن أتخيل إستمرار علاقتي بالفتاة التي جذبتني ثم صدمتني بوجود من أسمته "خطيبها"، لكن الأيام التالية التي جمعتني، ربما بدون رغبتي، بهذا الثنائي الجميل، كانت كافية لتخفيف خسارتي حلم الفوز بدنيا، ثم نسياني هذا الحلم نهائياً. ببساطة، إكتشفت أن "وائل" و "دنيا" لايمكن الا أن يكونا معاً، لايمكن أن يعوض غياب أحدهما آخر. هما أقرب لمخلوق واحد بنسختي

إمرأة و رجل. كانا متناغمين بكل شيء، من يراهما يتصور أنهما ولدا معاً، فأصبحت ثالثهما وبقي هو بالذات أقرب الجميع لي. عقبة ليست سهلة، كانت تعرقل بين حين وآخر سلاسة العلاقة مع "وائل". فعندما تشاطره جلسة، وتستمع لقصائده الرقيقة، وحديثه العذب الودود، لا تصدق ان هذا الجالس أمامك، يحتل المرتبة الأولى في قائمة أكثر المطلوبين المتمردين على حكومة بلاده خطورة، وأن حياته في "باريس" ماهي الا نتيجة لهذا التمرد! عرفت هذا السر من صديق عربي مقرب منه، بعد قرابة سنة على تعرفي بوائل، وكنت أسائل نفسي، ترى ما الذي تضيفه السياسة لشاب متكامل لا ينقصه شيء؟ شاب يرافقه أنىّ حل ملاك إسمه "دنيا"؟ ومع ذلك، لم تشكل علاقتي به خطراً عليّ، أنا المحايد المحصّن بسياج من المعارف المهمين، والمحترس من كل ما له علاقة بالإعتراض على الحكومات. كنا لا نجتمع الا ثلاثتنا، أو برفقة زملاء فرنسيين وأجانب، مما قلل من خطورة وجوده معنا.

وبعدها، الى أن إفترقنا، لم أر "وائل" الا مرة او مرتين بمفرده، غير ذلك كانا "وائل" و"دنيا" دائماً معاً، حتى أنني أسميتهما ظاهرة "وانيا" المركبة من إسميهما. بعد فترة عرفت أنها كانت قريبته من ناحية الأم، وأن أباها لبناني أما مفردة "خطيبي" التي قدمت بها "دنيا" "وائل"، فلم تكن الا ستاراً شرقياً تقليدياً يخفي علاقة قلبية بينهما، لم يكن بمقدورهما إظهارها كعلاقة رسمية علنية بين خطيبين، ربما بسبب خصوصية حياة "وائل".

قبل أن نختم حياتنا الدراسية، حدث حادث مزلزل، باغتنا جميعاً وحرف مسار الأحداث التي كنا نترقبها، الى إتجاه مخالف تماماً. على غير إنتظار، تكسر شيء في أعماق "وائل"، فلم يعد، وهو القوي المعروف بإجادة التمويه و السرية، قادراً على إخفاء صوت تطاير الحطام، ولا الظهور كما كان من

قبل، فغيّر نسق حياته السابقة، وإنتحى جانباً غير راغب بأن يسمع أحدٌ ذلك الأنين الممض الذي كان يتصاعد من أعماق روحه، أو يرى أحدٌ أثر الحرائق التي إندلعت فيها. كان مصراً على تقليص محيط علاقاته بهدوء، فإحترمنا رغبته رغم الالم الذي سببه ذلك لي شخصياً. بعد تخرجي، إنتقلتُ من "باريس" الى "مرسيليا"، وبقي هو طبيباً مغترباً في "ليون"، ثم حصلتُ على عمل كمخرج سينمائي للأفلام التسجيلية في الخليج، فإنقطعت أخباره عني كلياً.
لم أره لثلاثين سنة، وكنت أعده واحداً من المسَجلين بسجل الاحداث الآفلة التي لن تعود، حتى أعادت واحدة من مصادفات الحياة الغريبة وغير المتوقعة قبل أيام قليلة، وصل حياتينا المنقطعتين عن بعضهما. فما أغرب الحياة؟
كنت في "مرسيليا" لتقديم عرض تعريفي بفيلمي الأخير "بطون الحوت" عن غرق مراكب اللاجئين، وفاجأني إتصال على شكل رسالة صوتية ملقاة بطريقة ممسرحة مقصودة:
"عزيزي "طارق"، أخيراً عثرت عليك! كانت صدفة سعيدة مفاجئة أن أرى إعلان عرض فيلمك في "مرسيليا". ما زلت أتذكر بعد أكثر من ربع قرن ذاكرتك الصوتية المدهشة، ترى هل ستحدث المعجزة وتميز صوتي؟ أمنيتي أن تتصل بي على هذا الرقم. ورغم أن رقمك لا يحمل مفتاح فرنسا، لكني أود من كل قلبي أن تكون بمرسيليا! إذا حدث ذلك فستكون تلك اسرّ ساعة حين تفاجئني في غرفة رقم 14 فندق "ثغر البلاد"، أدعوك لعشاء فاخر وأمسية لن تنسى".

وكيف يمكن لي أن لا أتعرف على صوته؟ لصوت "وائل" رنة خاصة مميزة لا تتغير، لكني رغم ذلك لم أصدق أذني، فأعدت سماع الرسالة مرات الى أن جزمت: هذا هو "وائل"! كيف حدث هذا بعد ثلاثين سنة، وفي هذا التوقيت

المناسب؟ حملت كامرتي وقصدت الفندق على الفور، أحسست كما لو أنني في طريقي لتصوير لقطات النهاية لفيلم بدأ قبل ثلاثة عقود من الزمن! كان الموقف صعباً عليّ، فأخفيت عينيّ خلف نظارات معتمة وإعتمرت قبعة قش، خفت أن أبكي بصوت عال مثلما يفعل الريفيون فقررت التحايل على خوفي بالكوميديا. ولجت باحة الفندق، كان في الصالة بضعة سواح، و قبل أن أسأل إستعلامات الفندق عنه، تعرفت عليه على الفور. كان واقفاً منشغلاً بالبحث في جيبه عن شيء فأمعنت النظر به مبهوراً، لم يتغير هذا الفتى! عادت لي ايام الدراسة، وتذكرت قصة "وائل" وشعرت بما يشعر به راكب البحر أول مرة، خوف من مجهول غامض. لم يتعرف عليّ، فجلست قريباً منه ورفعت صوتي موجهاً كلامي له بالفرنسية، وبنبرة تمثيلية متعجرفة محاولاً إخفاء إضطرابي قلت:

– أنت السيد النادل أليس كذلك؟ هل لك أن تأتيني بفنجان قهوة؟

حدق "وائل" بي مندهشاً ولم أفلح بمنع ضحكة مخنوقة إنفلتت من أعماقي كانت أشبه بالنحيب، فصاح فاتحاً ذراعيه:

–"طارق زيدان"..يالغدر الزمان..أمسيت عجوزاً وقحاً!

–يافتى الشاشة الوسيم مازلتَ شاباً كما كنت، كل ما تغير هو شعلة الرأس!

غرقنا بسيول عواطف لاضفاف لها، ثم خرجنا من الفندق الى الساحل وكأن فضاء المبنى لا يسع حكاياتنا التي تراكمت على بعضها خلال ثلاثة عقود. كان صباح "مرسيليا" خانقاً. معظم ما كان معروضاً من صحف، إشترك بصورة مرعبة لطفل منتفخ غريق يطوف على الماء قرب زورق محطم،

وبضعة طيور تقف على جثته. السماء رمادية مكفهرة، جوقة من نوارس صاخبة تلعب على صواري المراكب، وتتعارك على بقايا طعام. كانت رائحة البحر الحار تملأ خياشيم السمك المتكوم في قوارب الصيادين، والأبخرة تتصاعد عبر أنفاس المدينة. نظرت الى السمك المتقافز في قارب خشبي أزرق، التقطت لقطة طويلة أثارت إستغراب الصياد فقلت له:

– سمكٌ يختنق على اليابسة يريد الماء، وناس تختنق في الماء تريد اليابسة.

هز رأسه، لابد أنه فهم قصدي، فغرقى العاصفة كانوا حديث المدينة. كانت السماء قد ولدت العاصفة الصيفية قبل يومين وسكنت متعبة، فيما بقيت الآثار على جانبيّ الطريق، أغصان أشجار متناثرة مختلطة بأحشاء حاويات القمامة المقلوبة. لم أكن أتمنى لقاء "وائل" بعد ثلاثين سنة ورأسي مشبع ببخار البحر ورائحة ضحاياه التي تغلغلت في مسامات المدينة. حاولت إقتناص بداية حديث بعيد عن هذا الجو الكئيب، لكنه بادر وحكى لي سبب وجوده بمرسيليا، فهو قد إستلم تبليغاً مربكاً وغامضاً على عنوان نقابة الأطباء، لم يزد مرسله عن القول أن رزمة ضخمة من يومياته القديمة، قد أرسلت له بيد شخص لا يعرفه، يفترض وصوله "مرسيليا" بعد منتصف تموز. المشكلة أن الضيف سيصل في وقت سفر"وائل" الى بغداد.

عندما سمعت ذلك صحت:

– أنا باق هنا حتى نهاية آب، لا تقلق، سأستضيف ضيفك في شقتي الى أن تعود، على الأقل سأضمن عودتك لي فلا تكرر حماقة غياب ثلاثين سنة أخرى، ولكن هل تتحدث عن "أسرار عائلية"؟

فتح "وائل" فمه دهشة وضربني على كتفي بإنفعال:

–يا إبليس السينما! يا لذاكرتك المدهشة، أما زلت بعد هذا العمر الطويل تتذكر "أسرار عائلية"؟ كنت أعتقد أن ذاكرتك صوتية فقط!

قلت منفعلاً:

– كيف لا أتذكره؟ أنا أتذكر كل شيء يخصك، أتذكره صوتياً، وصورياً، بل أن شقتك، "شقة البنفسج"، بأثاثها، وزهورها، وعطرها، وقصائدها، وكل ما كان بها، مازالت طرية برأسي كما كانت!

على الفور، رأيت كيف تغير لون وجه" وائل"، ثم أطرق للأرض، فأدركت زلتي متأخراً و ندمت على ما قلت. تلمست آثار جروح الماضي في ملامحه، وعرفت أن حرائق هذا الفتى الخمسيني لم تخمد بعد! ما كان عليّ دفع هذا الباب المقفل على ركام ثلاثين سنة خلت، لقد طار الغبار القديم المحمل برائحة السنين والعتق والهمود. أنت دُعيت يا "طارق" فإكتف بطرق الباب كضيف، لا أن تدلف للبيت مثل أي غاز همجي!
ربتُ على كتفه بلطف، وقلت متعمداً شحن عباراتي بكل ما أمكنني من ود محاولاً إظهار براءة جملتي:
– نعم أتذكر كل شيء، ولكن لاشيء يعادل فرصة العمر هذه، أن نلتقي عبر هذه الصدفة الغريبة، فالماضي مهما كان، ليس أجمل من الحاضر وأنا أراك أمامي. لو تعرف مدى سعادتي بلقائك، طوال عمري كنت أقلب مع نفسي معاودة الصلة بك. إسمع يافتى الشاشة الوسيم، لدي فكرة قديمة لفيلم عنك..أتتذكرها؟ أريد أن أتناول تأريخ البلاد في نصف القرن الأخير من خلال شخصك. أنا أحتاج الآن فقط لمعلومات عن بعض محطات حياتك، ثم نتفق على موعد للتصوير، أريد ماكنت تكتبه من يوميات أتتذكر؟ السجون، التمرد.

إبتسم "وائل" وقال:

– لك ما تريد، وإذا وصل "أسرار عائلية"، بأية طريقة كانت، سأضعه بين يديك ففيه حياة الطفولة والصبا بكاملها، لكن هذا الدفتر ياصديق، كائن سحري عجيب، ضاع زمناً ثم وُجد قبل أيام من يدعوني بشكل مفاجئ لأخذه من بغداد، فحجزت بطاقتي الى هناك. وبعد يومين، وصلني خبر عن شخص آخر سيجلبه معه الى "مرسيليا"، والغريب أن مصدري الخبرين لا يعرفان بعضهما. في كل الأحوال، إنتظر عودتي من بغداد، لابد أنك تتذكر وعداً قديماً عاهدتك على الإيفاء به، سوف لن يكتمل الفيلم بدونه..

قال الجملة الأخيرة ناظراً بعينيّ فحزرت ما عناه، لكني صمَتُ وأطرقت برأسي وكأني لم أسمع حديثه فعاد:

– إسمع "طارق"، غير " أسرار عائلية"، لديّ ركام من الأوراق القديمة المبعثرة التي كتبتها عبر أكثر من ثلاثين سنة حتى الاسبوع الماضي. بصراحة لا أعرف ما أفعل بها، سأبعثها كلها لك، عليك التحلي بصبر الملائكة لكي تفرزها عن بعضها، ثم ستجد فيها حتماً ما يفيدك. ربما ستوحي لك بسيناريو فيلم آخر، فما الذي تريده أكثر؟

صحت مرحباً بالفكرة:

– يا للهول! أنت مدهش، ذلك بالضبط ما أحتاجه!

كان "وائل"، يروم زيارة البلاد للمرة الأولى منذ أن غادرها وهو في العشرين، بعد أن حاول ذلك قبل عشر سنين ثم غير رأيه. بدا سعيداً، ليس بسبب الزيارة

على الأغلب، ولكن بقرب عثوره على "أسرار عائلية". هنا أريد التوقف قليلاً أمام هذه المخطوطة الشبيهة بالرمز الذي يستثير إهتمام أي سينمائي، والتي بقيت في ذاكرتي طوال ثلاثين سنة. المخطوطة كما وصفها "وائل" لي من قبل، مدونة في سجل ضخم مربع الشكل من سجلات الحياة العسكرية، يقارب عرض وطول صفحته نصف المتر، ويقارب عدد صفحاته الألف صفحة. لايعرف "وائل" كيف دخل بيتهم، ولا من أتى به، ولا الحكمة من وجوده. وضع السجل على طاولة، قرب جهاز التليفون، ليحتوي فيما بعد كل ما كتبه "وائل" وشقيقته "زهور". وهي التي أطلقت عليه إسم روايتها " أسرار عائلية"، التي تنام في أكثر من مئتي صفحة من صفحاته، ثم إستقر السجل في بيتها ليتحول الى تراثها الأدبي غير المنشور. كانت "زهور" أقرب الناس لوائل، كاتبة قصة متفردة، ومتمردة على الواقع كشقيقها. وكانت تعيش في مكان آمن في لبنان، مع خطيبها صديق "وائل" الأكثر قرباً، الذي كان هو الآخر شاعراً موهوباً. وكنت آنذاك أسمع أخبارهما منه، لكن "وائل" صدمنا قبل أن نفترق، أي قبل أكثر من ثلاثين سنة، بخبر مريع عن رحيلها مع خطيبها. عرفنا أنهما أخطتفا على مراحل قبل زفافهما بأيام قليلة، ومما تسرب آنذاك، أن قصة إختطاف "زهور"، قد دونها خطيبها في مكان ما في "الدفتر" بالتفصيل وبالأسماء، قبل أن يتعرض هو الآخر للخطف. وقتها، إستمات "وائل" من أجل العثور على "أسرار عائلية"، لكنه لم يفلح. خلال حديثنا الأخير في "مرسيليا" الذي تخللته الكثير من الإنفعالات، لم يتحدث لي بشيء عن الماضي سوى عبر إيماءات، لكني أيقنت، وأنا أسمع كيف لفظ بتشف كلمة "الماضي"، وبعد أن بعث لي ما كتب وقرأته، وبعد أن لمست رغبته الجامحة في التواصل معي وتدوين كل شيء، أيقنت أنه لم يكن ليطلعني على أكثر

أسراره خصوصية، الا لقناعته التامة في قدرته على تغيير " الماضي". فالماضي لديه لم ينته بعد، الماضي هو شرخ قديم عميق في روحه، يريد الآن، كما إتضح لي، معالجته، بل أنني أخشى أن يكون هدفه الوحيد من هذا السفر هو تصحيح ماضيه!

كنت تواقاً للإطلاع على خفايا حياته المثيرة، وبالأخص ما له علاقة بحبيبته "دنيا"، فكانت فرحتي عارمة عندما كلفني بربط حوادث هذه الرواية، و الإطلاع على دفتره القديم، وعلى مئات الاوراق المصفرّة التي أرسلها لي بعد عودته من "مرسيليا" الى "ليون"، قبل أن يسافر الى " بغداد". ذلك كان كل ما أحتاجه لعمل الفيلم الذي طالما حلمت باخراجه عن فترة نصف قرن، منظوراً لها من خلال شخصية "وائل" المتمردة، الرقيقة، التائقة لرؤية كونٍ عادلٍ لا يعرف الإجحاف والقهر. شدتني أحداث رواية "وائل" التي كتبها بصيغة الغائب، وإثار إستغرابي كتابتها بإسماء أبطالها الحقيقية. كتبَ عشرات الأوراق، كان يريد من خلالها توثيق حياته العاصفة بصيغة كتاب أكثر سعة وتماسكاً، لكن الأيام مرت، وبقيت الأوراق على حالها كما كُتبت، متداخلة، حارة، يكاد بعضها يشتعل من فرط وهج الإنفعالات التي خزنتها.

بعد يوم من سفره، أنبأتني مكالمة من الفندق بورود بريد للدكتور "وائل الشاعر"، أها!..لقد وصل الضيف الموعود، حامل " أسرار عائلية"، وبينما كنت أستعد لإستقباله، فوجئت بما لم أكن أتوقعه. كان البريد رزمة صغيرة مع ملاحظة من الشرطة تقول: سنوافيكم بالتطورات على هذا العنوان! منذ تلك اللحظة المخيفة بدأت متاعبي، فما علاقة الشرطة برزمة بريدية؟ ثم عن أية تطورات تتحدث الشرطة؟ أكثر من ذلك، أنني عندما إستلمت ما كان يفترض أن يكون "أسرار عائلية"، وجدت الرزمة لا تتفق مع ما وصفه "وائل"

لي من قبل! كنت أنتظر سجل التشريفات الضخم الذي حدثني عنه وبقي شكله محفوظاً في ذاكرتي، وليس هذا الدفتر التقليدي الصغير الملفوف بطريقة بدائية بالأشرطة اللاصقة الشفافة:

– لم يكن ذلك ما أنتظره!

قلت ذلك لموظف الفندق مستفهماً، برطم الموظف هو الآخر مستغرباً وهو يشير الى عنوان العيادة وإسم "وائل الشاعر"، اي أن الرزمة لوائل. قلت كأنني أحدث نفسي: هل يمكن أن تكون وصلت ناقصة؟ أم أن لَبساً حصل في التبليغ؟ هز الموظف رأسه مشيراً مرة أخرى للعنوان! "لكن أين هو الضيف حامل الدفتر الذي كلفني وائل بإستقباله ومساعدته حتى يعود؟" هذا السؤال الأخير وجهته صامتاً لنفسي!

ما أن دلفت لشقتي، حتى شرعت بفك أشرطة الدفتر بعناية. كان الدفتر قد غُلّف بالنايلون بإحكام وبدون مبرر كما بدا لي غير حمايته من قرض الفئران، فوجدت صعوبة بالغة في الحفاظ على سلامة أوراقه التي ترك عليها الزمان صفرته المخيفة. واضح من عنوانه " قصة زهور" أنه في كل الأحوال من الأوراق العتيقة لأخت "وائل" الراحلة، وربما كان ملحقاً لاسرار عائلية.

تدريجياً، وبتتابع فصول " قصة زهور"، وجدت نفسي منزلقاً لعوالم لم تخطر ببالي من قبل. أول الأسئلة المحيرة هي متى كتبت " زهور" هذه القصة وهي التي رحلت قبل أكثر من ربع قرن؟ بداية القصة كتبت منذ زمن بعيد لاشك، ولكن الكاتبة تسرد في نهايتها أحداثاً معروفة وقعت قبل عام، وقبل شهر، وقبل إسبوع، فهل يعقل أن معلومات "وائل" عن مصير شقيقته غير صحيحة؟

كلما توغلت أكثر كلما إزددت حيرة، وبدا كما لو أن قوة غامضة بدأت تجر الأحداث، وتتلاعب بها لتريني ما لم أتوقع رؤيته! ذلك هو ماحصل وما أدخلني حالة ذهول ودهشة وجعلني أردد كالمخبول: ما أغرب حياتنا!

تخيل أن يفاجئك أحد، بعد ثلاثين سنة، ليعيد إدارة رأسك الى إتجاه آخر فترى مالم تكن تتخيل وجوده آنذاك!

قبل أن أختم مقدمتي، أنبه القارئ الى أن المحتوى سيأخذ النسق البسيط التالي: أولاً سأعرض ما كتبه "وائل" نفسه عن حياته الماضية "خراب مابعد العاصفة"، وهو يخص حياته حتى لحظة لقائي به في "مرسيليا". أما "قصة زهور" فهو محتوى الرزمة التي إستلمتها، تحت عنوان" أسرار عائلية"، أي ما يفترض أن أخته "زهور" كتبته كسيرة حياتية أو كعمل أدبي، وقد قرأتهما كليهما خلال فترة سفر "وائل" الى بغداد. أخيراً، لا أريد أن أترك بذهن القارئ إنطباعاً بسعيي لأن أبدو متواضعاً، لكن يتوجب علي الإعتراف أن ماكتبه "وائل"، و " قصة زهور" بمجموعهما، يشكلان عملاً روائياً متكاملاً لم يكن بحاجة الى تدخلي. كل ما فعلته أنا، هو قبل كل شيء، عزل قرابة ثلاثين ورقة من " خراب مابعد العاصفة" لم تكن تحمل سوى القصائد، بعد أن تأكدت أنها لاتمت للقصة بصلة، ثم كتابة المقدمة والخاتمة، وتخصيص كثير من الوقت والجهد لفرز أوراق "وائل" وترتيبها زمنياً، والإبقاء على كل الكم الكبير من الحوارات والتفاصيل كما هي دون تحوير أو إضافة، وفعلت ذلك بقدر كبير من الرضا..إذن هي القصة التي ستتحول الى فيلم، طالما حلمت بإخراجه!

طارق زيدان – مرسيليا 2016

1

خراب ما بعد العاصفة

ما أقسى وقع الذكريات عندما تشيخ وتتصلب، ثم تتساقط من شجرة الحياة في خريفها الأصفر؟

في "عمّان"، بعد أن غادر الطائرة، أحس الدكتور"وائل" كما لو أن جاذبية الأرض قد إختلفت! شعر بنفسه ثقيلاً مثل كابوس في ليلة رطبة، وهو يجر حقيبته الترولي على أرض مازالت منداة، مستعرضاً ما حوله من وجوه بدت له هي الأخرى ثقيلة متجهمة. ربما لم تكن الوجوه ثقيلة كما تصورها، لكنه طول التعود على وجوه الأوربيين المبتسمة، وتوَهّم الغريب العائد بعد غياب طويل، أن كل من يراه يعرف أنه عائد بعد غياب طويل! قبل أن يغادر صالة المطار، سأل عسكرياً بديناً عن كيفية الوصول لبغداد، فاشار العسكري دون أن ينظر اليه الى جهة اليمين حيث ينتصب مايشبه المقهى. هناك تبين "وائل" رجلين محصورين بين تلال من حقائب السفر، وحولهما تتناثر كتل سود، عرف فيها فيما بعد أنهن نساء مبرقعات. حيا الرجلين وجلس الى يمين أحدهما، ولم يكن ممكناً له أن يتغاضى عن الرجل الآخر، الذي بدا وكأنه يتعمد رفع صوته ليسمعه الحديث:

– لم يعد العمل مجدياً في بغداد، قبل أن تهتم بصحة غيرك وسلامته، يجب أن تنتبه لنفسك، لسلامتك أنت، اليس كذلك؟ من حسن حظنا أن مهنة الطب لا تعرف الحدود..

هو إذن طبيب عراقي يروم الهجرة من بغداد. لم يعرف الدكتور "وائل" من أين أتته رغبة التدخل في حديث شخصين لا يعرفهما، ربما فعل ذلك بقصد تبديد بعض من كآبة المتحدث، أو أنها عدوى المكان التي أعادته لطباع أهله، فعلق على حديث الطبيب مبتسماً:

– طبيب يذهب، طبيب يجئ!

– أها، أنت زميل عائد إذن، أنا عجزت يادكتور عن معالجة آلام البلاد لنرى ماذا ستفعل أنت!" رد الرجل ضاحكاً

– لربما أتعبتك، هي عصبية بعض الشيء بلادنا هذه، سأجرب معها علاج الحب قبل كل علاج، فأنا عائد لها بعد غياب. قال "وائل"

–علاج الحب؟ أخشى أنها سوف لن تفهمك، وستدافع عن نفسها غسلاً للعار!

– وهل الحب عار لكي تغسله؟

قال "وائل" مستهجناً رأي الرجل الذي رسمت ملامح وجهه صورة مثالية لشخص يائس، فرد الرجل وهو ينظر للأرض:

– لم يكن عاراً من قبل، لكنه أمسى الآن عاراً، دكتور ممكن أسألك منذ متى غادرت البلاد؟

رغم أنها صيغة ملغّمة لاتشعره بإرتياح، رد "وائل":

– أنا؟ منذ ثلاثين سنة، لكن بُعدي عنها كان فيزيائياً فقط!

– فيزيائي أم كيميائي، دكتور أنت لم تعش معها منذ عشرات السنين، تصور فتاة تركتها وهي في عمر الصبا، ومر ثلاثون عاماً على آخر لقاء بينكما، هل تتوقع أن تراها الآن كما كانت؟ أنت مازلت تنظر لها بعيون فتى رومانسي، لكنها تغيرت، شاخت، تجعدت، وتبلدت حواسها ونستك، سوف لن تفهم عواطفك!

شعر "وائل" بغصة في حلقه، نعم لقد إبتعد عن البلاد، لكن ذلك لم يكن برغبته فهو خرج منها مركولاً، لا مهاجراً ولا سائحاً، وها هو يعود رغم المخاطر دون أن يخبر أحداً. إدعى أنه سيغادر الى "تايوان" لحضور مؤتمر علمي، ورغم ذلك هو الآن يتعرض للإستجواب: لماذا تبتعد عن فتاتك وتتركها تشيخ وحيدة!

لو توخينا الدقة، لم يأت "وائل" الآن للإستقرار في البلاد. هو يروم تتبع آثار الماضي وتصفية آثاره. هذا هو الأهم من كل شيء في هذه الرحلة. لابد أن يعرف كيف قُتلت شقيقته "زهور" ومن إختطفها مع خطيبها من مكانهما البعيد، ثم التفكير بنشر "أسرار عائلية" رواية أخته التي لم تنشر، ولكن هل يفهم هذا الطبيب الهارب هذه الأمور؟ قدم باص صغير تصدرته قطعة كارتون خط عليها برثاثة: "بغداد"، فعاد بعض الهواء لرئتيه. ودع الرجلين على عجل، وركض قاصداً الباص، حيا السائق البدين المنشغل بعد رزمة ضخمة من الأوراق النقدية، وجلس قريباً منه. مرت دقيقة صمت ثقيلة، ذكرته بمئات دقائق الصمت التي وقفها "حداداً على أرواح الشهداء"، لكنه تذكر فجأة نجوم ليالي صيف العراق، فعاد بعض الإنتعاش لروحه. لا أكثر متعة من النوم

على السطح تحت السماء الصافية متمتعاً بالسفر الى الفضاء المحشو بالنجوم، والذي تتمارق فيه المذنبات والشهب. في طفولته، عندما كان جميع من على سطح البيت يغط بنوم عميق، كان هو يطير الى قبة السماء الساحرة التي لا مثيل لها، يسافر بين المصابيح اللامعة، يتسائل عن العدالة في أن يسطع نجم ويخفت آخر. كان يسمي الخافتة الضوء بالفقيرة، أما الساطعة فهي الغنية..حتى في السماء فقير وغني! وفي هذه الأثناء، كان السائق ذو الدشداشة البيضاء المتضايقة من كرش تاخم داشبورد السيارة، قد إنتهى من عد أوراقه، ومالبث أن إنتهك عزلة راكبه الوحيد بدفق من الأسئلة المتطايرة، عن مكان إقامته، وعمله، وسبب هجرته، ثم سأله ناظراً له بفم مفتوح:

– ما الذي تبحث عنه هنا دكتور بعد كل هذه السنين الطوال؟ لا شيء يستحق صدقني، ستفطس من الحر ويلتهمك البعوض!

فزع "وائل" مثل مراهق عرف للتو أنه يعيش حالة حب من طرف واحد. جفل كما لو كان السائق ضبطه متلبساً بالبحث في جيوب سترته، فرد بتلعثم و بدون إستعداد كأنما مواصلاً خواطره بالنوم على السطح:

– منذ ثلاثين سنة وأنا أحلم بالنوم على السطح ومعاينة النجوم!

ضحك السائق من مشروع النوم على السطح مقهقهاً ساخراً على طريقة السواق:

– النوم على السطح؟ لايفعله الا المجانين، ليس هناك ما هو أخطر منه، لا تعرف في أية لحظة ستعوي فوق رأسك قذيفة هاون، هذا من المنسيات!

بقي "وائل" ينتظر بملل إكتمال عدد ركاب الباص الصغير، محاولاً بصبر إمتصاص زخم هجوم السائق الإستفساري، وأسئلته التي لا إنتظام لها، مرة بالأجوبة اللطيفة القصيرة ذات النهايات المغلقة، كعادة الأوربيين حين يتجنبون الرد بالجملة الرادعة: "وما شأنك أنت؟" ومرات بالصمت الممرر من خلال إبتسامة باهتة، لكن الباص كان مايزال فارغاً، يغري بمزيد من أسئلة السائق الذي رفع صوته ضاحكاً هذه المرة، وسيجارته ترقص بين شفتيه المتيبستين ونفثة دخان هائلة تهرب من جوفه لتتراقص في فضاء الباص:

– لا شيء يستحق دكتور، الا إذا كنت مثل إبن عمتي المجنون حشاك، عاد من كندا ليبحث عن الحبيب الأول! بقي سنيناً يبعث الدولارات من كندا لحبيبته النائمة بحضن آخر. بعض الرجال لاحد لغبائهم!

فرقعت هذه الجمل برأس "وائل"، نفخت الهواء تحت جمر الحرائق الخامدة في مكان قصيّ بروحه فإشتعل اللهب من جديد، وطار رماد الذكريات المحترقة ونصف المحترقة الى الأعالي مثل دخان بركان هائج. عادت الذكرى المخبولة ثانية. رجع يتعثر بالحطام الذي خلفته العاصفة الأولى على دروب حياته المتشعبة. لقد إنتهك هذا السائق الأحمق من حيث لا يدري، صمت مقبرة الماضي النائمة، فأيقظ جثثها الغافية معفّرة بتراب ورائحة الموت ومِزَق أكفانه المتهرئة. أشاح "وائل" بوجهه ثم إستأذن السائق متمتماً:

– سأتمشى قليلاً، أشعر بألم في المفاصل، يبدو أننا نحتاج لساعات حتى يكتمل عدد الركاب.

تنهمر الذكريات، وتجول في كيانه مثلما يجول دمه، دون أن يكون بمقدوره السيطره عليها، لا فكاك، لا نسيان، لا فرار..قد تؤقف نزيف الدم من الجرح مهما كان متدفقاً، ولكن كيف يمكنك إيقاف نزيف الذكريات؟ تسحب الذاكرة أمام عينيه صور الماضي المحنّط، لا تكترث بالبراكين المتفجرة في أعماقه، ولا تعبأ بالحرائق التي تندلع في خلاياه. هو عاجز عن تغيير الصورة التي يراها الآن بعد أن سجلها الزمان كحدثٍ حدثَ ومضى الى الماضي، نعم الماضي، موظف التسجيل البيروقراطي، الصارم، المتجهم، الأصم، الذي لايسمع أحداً، ولايرد على أحد، ولايبالي بأحد..لا حوار مع الماضي الأطرش. فجأة تراءت له سفرته فاقدة المعنى تماماً، لا يبدو ان البلاد مستعدة للقياه، فما الذي سيفعله هناك وهو لايعرف أحداً؟ و"زهور" قد غادرت؟ والنوم على السطح عمل لايفعله الا المجانين مثلما قال السائق؟ عليه أن يكف عن اللحاق بالماضي، لاقدرة لأحد على اللحاق بالماضي الهارب..فها هما السائق والطبيب، أوصلا له رسالة تقول أن شقة الخلاف مع "الفتاة التي تركها صبية، قد إتسعت! كيف وصلت الأمور بحق السماء الى هذا الحد؟ عاد الى الباص، وإنتشل حقيبته، وغادر عبر كذبة شرقية لا مفر منها، مدعياً نسيانه أوراقاً مهمة في الفندق. أمضى يوماً في معاينة آثار الرومان في الأردن، ليعود الى "ليون" بعد يومين، مصمماً على إكمال جمع أوراق قصته، وردم الثغرات التي تخللتها. ترى هل يمكنه بعد كل هذا الكم من السنين إستجماع قوته والكز على أسنانه وإعادة نبش الماضي؟ هل سيحاكم تأريخه موضوعياً ويترك أحداث الماضي تسير بتلقائية؟ أم سيحاول القفز على مستنقعات الحقيقة النتنة، لكي تحتفظ صفحاته بنصاعتها ورائحتها التي لاتزكم الأنوف؟

التفاحة

سيجرب البدء، فقصته، على الأقل في بدايتها، تشبه غيرها من القصص، مثلما تشبه ولادة طفل ما، كل ولادة أخرى، الفرق في صرخة أعلى هنا، أو الم أطول هناك. في النهاية يبرز رأس المولود، ثم يسقط مطلقاً أولى صرخاته أو..ييي..او..ييي..او..ييي، كل الصرخات متشابهة، كل الأطفال يولدون عراة. هنا أيضاً ذات الشيء، فعندما خُلق العالم، خُلق ثنائياً لكي يكبر، الفيل وأنثاه، العصفورة وعصفورها، كل يلتقي الآخر تلقائياً، دون ضجة وبلا تخطيط و من غير مراسيم. يلتقيان، يتفاهمان، مرة عبر الخراطيم، وثانية عبر الزقزقة، وتتزايد قطعان الفيلة وأسراب العصافير وتفترق عن بعضها دون ضجة ومراسيم، كما التقت. "تنين كومودو" وبعض الزواحف لاتحتاج نصفاً آخر، هي تنتج جنسها بنفسها، أما الإنسان فمختلف عن الأثنين، لا يشبه الفيل والعصفور، ولا يشبه "تنين كومودو". لابد لنصف الإنسان من البحث عن النصف الآخر، النصف الأقرب والأكثر إنسجاماً معه، وفقاً لقاعدة شبيه الشئ منجذب اليه. وقصة "وائل" مع الأنثى، أو النصف الآخر، رغم أنها تكرار لحدث بدأ منذ زمان تفاحة حواء، الا أنها متفردة بعض الشيء. هو كان مبهوراً بها منذ طفولته، وبعد أن كبر قليلاً، هاله أن يكتشف أنها ليست مثله أبداً. كلا هناك شيء يختلف، هي يجب أن "تستحي" أكثر منه فهو ولد، ولم يكن يعرف ما هو الشيء الذي يتوجب أن تستحي منه هي البنت. إنسحبت أخته "زهور" تدريجياً من مرافقته في ملاعبه، وعرف لاحقاً أن الأنثى حاملة أسرار، ومخزن مخاطر، وإحتياطي للعار، وقد تقترف في أية لحظة ما يؤدي الى تنكيس الرؤوس. لماذا؟ قبل كل شيء لأنها حاملة الإثم البيولوجي، المختومة مثل زجاجة شراب سرّي سحري بهذا الغشاء العجيب الذي تحمله

الحوته وأنثى الفيل والفرس، لكنه لا يمارس وظيفته الأخلاقية المميتة الا لدى المرأة، والا في هذا الشرق المنكمش مثل قنفذ مهدّد.

منذ الطفولة يوصون البنت متوعدين: حافظي على ما بين فخذيك، فهذا هو أهم شئ بحياتك! لا تدعي أحداً يرى ما فوق الركبة، لا ترتدي الضيّق الذي يبرز الصدر، ولا ما يكشف النحر، ثم على حين غرة، يأخذونها لتزيين مابين فخذيها وما فوق ركبتيها، ويدفعونها مساءً لكي تعرض مساحاتها التي أخفتها طيلة عمرها على رجل غريب. رجل لم تره ولم تعرفه من قبل الا في هذه الغرفة! وخارج الغرفة، ينتظر المئات نتائج الإقتحام الأول لقلاع العذرية. اليست هذه فظاعة تعانيها النساء بصمت لايثير أحداً؟

شب "وائل" متعاطفاً مع الانثى، لكن هنا، نشأ نوع من التناقض غير المريح في أعماقه، فهو منجذب لها ومبتعد عنها في آن، يدافع عنها بضراوة ويتجنب الإقتراب منها، يخاف عليها ومنها في ذات الوقت. بوسعنا إذن التأكيد أنه حين التقى "دنيا" آنذاك وهو في بداية عشرينات عمره، لم يكن قد فعل ما فعل ضمن عملية "البحث عن النصف الآخر"، كلا أبداً، فهو لم يكن يفكر بنصف آخر، ولم يكن ضمن مهامه البحث عن هذا النصف المفقود. كان يرى نفسه مكتملاً بحد ذاته، لانصف آخر له. ثم أن المرأة شأن خاص، وهو ثوري منغمر بالعام تماماً، لا خاص له. هو منشغل بما شاع تسميته في تلك الأيام "دفع عجلة التأريخ". تصور أن هذا التأريخ العتيق مثل عجلة تنقل البشر، من عهد ورقة التوت الى زمان "كريستيان ديور"، من عصر الكهوف الى وقت ناطحات السحاب، كم يتوجب أن تكون ضخمة حتى تواجه السيول، والبراكين، والجبال، والأعاصير، والغارات، وقوافل البرابرة الغازية، ثم لتحمل الملايين من توحشها القديم الى تحضرها الحالي؟ الآن، في النصف الثاني

للقرن العشرين، وصلت العجلة الى مرحلة حرجة. هي قد بدأت بتسلق تل هائل الإرتفاع إنتصب أمامها، قاربت منتصفه، أما أن تتحرك بفعل من قوة "وائل" وقوى غيره من المضحين، فتنقل الملايين من وضعها السفلي البائس، الى أعلى التل، ثم تنحدر بسلاسة الى الجهة الأخرى، حيث منبسط النعيم والخير الذي لا عودة منه، أو تتباطأ راجعة، فتتدحرج من أعلى التل لتسحق آمال وعظام الملايين، ليتوجب بعدها البدء من جديد، ربما بعد فوات الآوان على الأغلبية.

حتى الآن يبدو الأمر مفهوماً، الولد الثوري مشغول بثورته!

وفجأة، تكشف الحياة مرة أخرى، عن أنها ليست سوى مجموعة مصادفات ترتطم ببعضها، صدفة تنطح أخرى، وتصطدم بثالثة، فترتد هذه الأخيرة لتضرب رأس إنسان ما، ويتحدد بذلك إتجاه حركته! هكذا تتحدد مسارات ومصائر البشر!

لو أن واحداً منهما لم يكن ببيروت آنذاك، أو أن أحدهما لم يختر هذا المطعم البحري المنزوي في زاوية من حارة "الرملة البيضا"، أو لو ان النادل كان أسرع قليلاً، وأحضر له السمكة التي طلبها، لينشغل بعدها بتفكيك هيكلها العظمي، حذراً من عظمة تتشبث بأسفل حلقه، أو لو أن العمود الذي كان يقرأه في الصحيفة، وهو ينتظر النادل، لم يكن سخيفاً الى حد تعليل الكاتب إرتفاع معدلات الطلاق بجنوح النساء للتحرر من التقاليد الإجتماعية، فيرفع "وائل" بصره مستهجناً، لو لم يحدث شيء من هذا، لما رأى قبالته فجأة إمرأة ساحرة تتفرس به، وهي تبحث عن مكان خال في المطعم البحري المزدحم. تجاوزته، لكنها لم تتمكن من مقاومة رغبة أخيرة بالإلتفات الى باب المطعم، كأنما كانت تنتظر أحداً ما، فالتقت عيناهما، وأحس بشيء يسحب قلبه الى

الأسفل! والآن قل لي، هل كان بوسع فتى شاعر، تجنْب عينين زرقاوين ساحرتين تحيطانه بالإهتمام فجأة، وتوجهان له حزمة من الأسئلة؟ محال، حتى لو كان هذا الفتى منشغلاً بدفع "عجلة التأريخ"، كيف يمكن أن يتغاضى عن غمازة تشكلت للتو في وجه ساحر؟ وكيف لايتابع موجات الضوء التي إنداحت على أديم شعرها الأسود الممتد حتى الخصر؟ كيف يتجاهل إمرأة تحتفي به؟ هل كانت تعرفه؟ أم أنها رأته في مناسبة ما من قبل بباريس؟ أو ربما كانت إبتسامتها رداً على ملامح وجهه المتجهمة؟ لكنه لم يشغل نفسه بإيجاد إجابات عن هذه الأسئلة، بل وجد نفسه مدفوعاً لأن يبعث من عينيه رسائل نجدة علها تعلق بطيات فستانها الباذخ الذي يلتف على قوامها الغزالي الممشوق. قوة داخلية لامرد لها تدعوه لإختلاق عذر للتعرف بها. نسي"عجلة التأريخ"، ووجوده السري، وتدابير الصيانة، والفلسفة، والتنظير، نسي كل شيء وتعلق بعينيها. القى بكل أسلحته مبهوتاً، بعد أن باغته إحساس غريب كما لو أنه هو أيضاً كان يبحث عنها منذ زمن، فوجدها كما كان يقرأ عنها. بالضبط، بذات القوام والشعر، بذات الإبتسامة الحذرة، المخدرَّة، التي خلقت للتو غمازتين ساحرتين، وعينين زرقاويين مفاجأتين به غاصتا قليلاً الى الخلف من الدهشة. كانت قد عثرت على مقعد، فمال نحوها بلطف ليحييها، ظنها فرنسية فسألها عن شيء لا وجود له، فقط لكي يمط الحديث قليلاً الى المدى الذي يمكّنه من الإنتقال الى الخطوة التالية، سألها ما إذا كانت تعرف موقع "المركز الثقافي الفرنسي" فهناك سيبدأ بعد قليل كونسرت "ماري ماتييه"، كيف إختلق هذا السؤال؟ لا يدري. ربما أراد التعويض عن تصرفه المراهق النزق ليظهر بمظهر "المثقف"، إبتسمتْ مستغربة فإخترقت عيناها صدره من جديد، وأحس بها كلها تندفع الى داخله. هي لا تعرف أن لماتيه كونسرتاً

ببيروت، محقة، فلا أحد غيره يعرف بهذا الخبر الملفق على عجل، المهم أنه إنتقل للمرحلة الثانية فعرف مندهشاً أنها ليست أوربية بل عراقية تتكلم الفرنسية وأنها ستسكن باريس مع عائلتها بعد شهر فرد مصعوقاً:

– ياللصدفة! أنا عراقي وأسكن أيضاً في باريس! ها نحن الغرباء قد التقينا.

أعجبتها عبارته عن الغرباء على مايبدو، فإنفرجت شفتاها عن إبتسامة أوسع كشفت عن عمر أصغر مما توقعه. يستطيع الرجل تقدير عمر المرأة من مدى سعة إبتسامتها!

قال بدون تمعن، وكأن الكلمات أفلتت من بين شفتيه:

– سنلتقي إذن في أول ايلول في كاتدرائية "نوتردام"، أتعديني؟

إندهش حين وافقته بتلقائية فقال لنفسه: "تلك هي الأنثى التي لاتستحي لأنها أنثى.."

حددت الساعة العاشرة للقاء وبذات الوقت قدمت نفسها:

"دنيا القريشي" فرد: "وائل الشاعر".

كرر إسمها والموعد مع نفسه عدة مرات، كأنما لكي يثبّتهما في رأسه الذي بقي ساعات غير واثق بما أقدم عليه..بعد دقائق قليلة غادرت المكان، تم كل شيء خلال لحظات، كما في حلم ملوّن مكثف قصير!

ترى لماذا لم يلحّ عليها تكرار اللقاء ببيروت؟ هو حتى لم يحاول ذلك، لم يبلغ به طموحه هذا الحد، فإكتفى بوعد بلقاء بعد قرابة شهر ونصف بباريس! يا لبلاهته! ومن يضمن له أنها لن تنس موعداً سيأتي بعد ستة أسابيع، في عاصمة بعيدة، مع شخص رأته مرة واحدة لاغير؟ عاد فطمن نفسه أنها أعطته بنفسها إسمها كاملاً: "دنيا القريشي"، لم تقل "دنيا" فقط ولم تحاول الإختباء خلف عبارة: "إتركها للصدفة"..عاد لباريس والصيف قد أتم الأفول،

لكن ضحى الأول من أيلول، حل بسماء زرقاء لم تتضبب بغشاء الخريف بعد، حتى أنه لم يرتد سوى ماكان يرتديه في ذلك النهار البيروتي. كان قلقٌ يشبه قلق ما قبل الإمتحان يجتاحه. ورغم أن الكلمات وإختيار الأكثر ملائمة ودلالة منها، لم تكن في أي وقت مشكلته، الا أنه بعد أن إقترب موعد لقاءه بها، وحين أدخل نفسه في إختبار لقاء فتاة لم يتبادل معها سوى بضع كلمات، أحس بالفزع والخواء! فالرجل عادة، في هذا الشرق المعبأ بالألغاز، والمختفي تحت لثام المجاملة والنفاق، ينفرد بأمرأة بعد أن يكونا قد التقيا مراراً برفقة آخرين، وليس بعد سؤال ملفق على عجل عن "ماري ماتييه". مع المرأة الأوربية غالباً ما يكون الدرب سهلاً، لكن أن تلتقي بشرقية لأول مرة على إنفراد، ما الذي ستحكيه معها؟ هو قد تمنى، محض أمنية، دعوتها لمطعم (Hôtel Le Notre Dame Saint Michel) ولكن هل ستتقبل دعوته؟

حضر قبل الموعد بساعة كاملة. وقف أمام باب كنيسة "نوتردام" حاملاً بيده اليمنى وردة كاميليا زهرية اللون، ثم دلف الى جوف المبنى ينقل بصره في سقفه بدون تركيز، ويتبادل الابتسامات مع السواح اليابانيين وديعي المظهر، الذين كانوا يكررون تصوير جدران الكنيسة وسقفها. دار مع الدائرين عدة مرات، كان يتدرب خلالها على ما سيقوله لها بصوت عال، كما تبين من نظرات العجوز اليابانية المندهشة التي كانت بقربه، وحين فاجأته ساعة الكاتدرائية فدقت معلنة العاشرة، سارع بالخروج وعيناه تمسحان الفضاء بنظرة قلقة متفحصة علها تلوح له من بين أجساد السياح المتدافعة. شعر بجفاف في حلقه، كيف سيجسّر هذه الهوة السحيقة بين إضطرابه ورغبته في الهدوء؟ ها هو الموعد حان، لكن "دنيا" لم تأت بعد، مازال لديه الوقت لكي يتدرب على الهدوء. الهدوء هو ما يحتاجه الآن. بقي واقفاً يتأمل السماء الزرقاء

ويحدق بوجوه القادمين، مرت نصف ساعة على الموعد، وهو منشغل بإطفاء الحرائق التي إندلعت بأعماقه. ساعة كاملة مرت، ولا غير اليابانيين يملأون فضاء المكان. بعد مرور ساعة ونصف، يأس من مجيئها وأيقن أن خطأ ما قد حدث! ربما نسيت الموعد..لكن الأكثر إيلاماً، فكرة راودته هي أنها نسته هو أصلاً..ترى هل يعقل أن يبقى منتظراً بعد مرور أكثر من ساعة ونصف على الموعد؟ غادر المكان بخطوات متباطئة مخذولة متأبطاً وردة الكاملیا بوضعية خرقاء، وكأنه يخجل منها لأنها كانت شاهداً على الإهمال والتجاهل والفشل الذي تعرض له. فشَلَ لقاءه الذي ترقبه قرابة شهر ونصف. عصرَ وردة الكاملیا تحت ذراعه بقسوة، فأحس بها تنزف نداوتها لتتغلغل الى جلده. ربما لم تكن "دنيا" جادة بكلامها، إذ لايمكن لأمرأة أن تنسى موعداً مع رجل لو أنها كانت راغبة بلقياه. ربما أحرجها فسايرته بالموافقة على موعد بعيد، في بلاد بعيدة بعد أن فاجأها بحديثه المستعجل الملحاح الغريب..وللحظة، تخيلها تسخر منه طوال طريق عودتها بعد اللقاء، فحدث نفسه بمرارة:

"أيها المناضل الصنديد صرعتك فتاة لم تعد حتى تتذكرك"!

لم يشأ العودة مع وردته الخائبة، تأملها، كانت تنبض بالحياة، أجال عينيه في الفضاء المحيط، باحثاً عن متسول سيهديها بدوره الى إمرأة عابرة فتمنحه شيئاً، ولما لم ير غير عربة الترام متوقفة تنتظره، قال لنفسه: لا فائدة، ستجف المسكينة تحت الشمس، ترى من سيلتقطها؟

إنحنى ليحررها من بين أصابعه المرتعشة، فإعترته موجة حزن، وأحس بالرهبة مثل أب يتخلى عن طفلته الوليدة، ويطرحها على قارعة الطريق. لقد كانت الوردة رفيقته منذ صباح اليوم، وكان قد إنتقاها بعناية من بين عشرات الأنواع! وفجأة إجتاح روحه ضوعها، كأنما كانت تتوسله، ورأى خيالاً يبرز

وراء كتفه المنحني باتجاه الأرض، فالتفت مباغتاً. بهت، وسكنت حواسه لحظة ولم يصدق عينيه. كانت "دنيا" تقف أمامه بذات إبتسامتها، وشعرها قد إنهمر ليغطي نصف وجهها، وعطرها فاض بتأن وهدوء ليعم المكان! لم يكن حينها قادراً على الإتيان برد فعل، سوى أن يلقي بالوردة اليها بحركة لا إرادية. ضحكت على إثرها قائلة: كنت أتابعك، أردت إختبار صبرك! بغته شعر وكأن قصائد الغزل كلها قد فرشت بين يديه لينتقي منها ما شاء من الكلمات، تجرأ بما لا يتناسب مع طقوس أول لقاء، فهمس لها بلغة صافية أن موسيقى صوتها أعذب ما سمع. أدهشه أنها لم تتحصن بخجل الأنثى الشرقية التي تنفرد برجل لأول مرة فتصمت، بل بادرته بالرد على نظرته بجرأة، مبينة إعجابها بما قال، وأنه أجمل ما سمعته من إطراء لأنها تعشق الموسيقى! من تلك اللحظة، التقط الحبل الذي مدته اليه، وسار معه بهدوء عائداً الى يوم اللقاء الأول. ومن مكان ما من روحه، حلّقت قصيدة تلقائية ترتلت بتأن لتدلف مسامعها فتخلق إبتسامة منبهرة لا مثيل لها، تسللت من خلالها جملة عذبة: – آه، كم أنا سعيدة اليوم، حسبتك شاعراً باللقب لا غير، لكنك شاعر بالقلب! لربما كان يوم الأول من أيلول ذاك، واحداً من أسعد أيام حياته، ولربما أمكنه مقارنته بيوم نجاحه بالهروب من السجن. مضى معها في ذلك الضحى الشفيف متجولين لساعتين، وبحذر وتحسب، زحف عبر أسئلة هادئة بريئة المظهر بإتجاه حياتها. عرف عنها أنها ستبقى في "باريس" بسبب عمل أبيها في "دائرة قانونية"، وأنها تستعد للدراسة في أكاديمية الفنون. وكشف هو بدوره مايمكنه كشفه من إسم ومشاغل عامة. قال عن نفسه أنه طالب بُعث لدراسة الطب في فرنسا، وكانت الحقيقة تستلزم إضافة بضع جمل لم يقلها مثل: "بعد قفزي من حمام السجن ثم هربي من البلاد فاراً من قرار إعدام غيابي"

و: "أنا في نظر الحكومة أخطر من تمرد عليها" والجملة الثالثة: "أنا في باريس سري للغاية".

ورغم أنها إعتذرت بلطف عن تلبية دعوته لها للغداء في المطعم، الا أنه كان راضياً تماماً عن ثمرة اللقاء. لقد ولدت للتو، بعد لقاء من دقيقتين وآخر من ساعتين، قصة حب!

كان "وائل" آنذاك، قبل أن يلتقيها، ثورياً متمرداً مجازفاً. سُجن أول مرة مبكراً، و في المرة الثانية، بعد سنتين، أعتقل بتهمة فريدة من نوعها شاعت مثل نكتة سرية. لقد كسب شخصاً من عائلة رئيس الجمهورية الى التنظيم الثوري المعارض" فدائيون"! بالضبط إبن أخ الرئيس. تسرب السر للشرطة السرية، فإقتادته من بيته الى التحقيق بطريقة خاصة، بأن علقته مشدوداً من ركبتيه على عصا مرتكنة الى كتفي شرطيين عملاقين، ورأسه يتدلى الى الأسفل. وسيلة تعبيرية خاصة لجأت لها الحكومة للتنبيه الى أن ما فعله المجرم هذه المرة جريمة خاصة، أمر مقلوب ويخالف الطبيعة. على طول الشارع المؤدي الى مقر التحقيق تجمع الناس، خاصة صبيان المدارس الذين كانوا في طريق عودتهم لبيوتهم، تزاحموا ينظرون لهذا المنظر الغريب، فتى يتدلى من خشبة يحملها شرطيان!

إتهموه بكسب إبن أخ الرئيس حتى يقنعه بإغتيال عمه! عاند أياماً ناكراً أية علاقة له بالموضوع. خلال التعذيب، سمع العالم من حوله طنيناً في أذنيه ورآه صوراً متراقصة لوجوه غائمة، ثم وبدون تردد حسمها: حتى لو إنتقلت من هنا، سأعدم حتماً في مكان آخر، إذن لابد أن أفر، ولكن كيف؟ قال لنفسه: "الحل الوحيد هو أن أفلح بفتح نافذة الحمام والقفز منها، أقصى مايمكن أن يحدث لي بعدها، هو أن أسقط على ظهري على حافة المنحدر، لكن،

قبل كل شيء عليّ أن أقلل من سرعة سقوطي وأرخي عضلاتي حتى لاتشكل ضغطاً على الهيكل العظمي". كان قد تعلم ذلك من دراسة الطب. ولم تكن عمليات الفرار من معتقل التحقيق، تشغل بال إدارة سجن التحقيق على ما يبدو، فهو مكان إقامة مؤقت، لا يبقى المعتقَل داخل جدرانه أكثر من بضع ساعات، يلقي خلالها ما بجوفه من معلومات، ثم يتسرح في أغلب الحالات. في حالات نادرة، ينقل، المعتقل في اليوم الأول الى سجن آخر، لذلك لا تسمح الفترة القصيرة لأحد بالتخطيط للهرب بل للتعايش مع شروط البقاء. الحالة الإستثنائية الوحيدة التي إمتدت الى أسابيع هي حالته، والسبب كان إصرار المدير على إنتزاع إعترافاته منه بنفسه، كي يدخل إسمه في سجل المخلصين للرئيس. وأثناء إقتياده للتواليت بعد أن تعرض لمغص معوي خفيف، بقي الحارس خلافاً للعادة ينتظر خلف باب غرفة الحمامات، فوجد أنها فرصة قد لا تتكرر. بلا تردد، مثل قط محبوس جائع، إستجمع كل ما لديه من قوة، فنط قافزاً وزحف على إمتداد أبواب الحمامات بإتجاه النافذه. تمكن من الإمساك بالحافة، ثم فتح النافذة بسرعة والقى نفسه الى إسفل بلا تفكير. حالت أغصان متشابكة من إرتطامه بالأرض ومع ذلك إستلقى على ظهره غير قادر على تحريك أي جزء من جسده، وفجأة إخترقت رأسه أصوات صفارات الحرس الباحث عنه، فنهض من الماء راكضاً مثل حيوان رابض داهمه الصياد. جرى بمحاذاة جدار السجن أولاً، ثم مبتعداً عنه، غائصاً في عتمة ما قبل الفجر. لم يكن يعرف ما الذي يلي، شجر، نهر، أسلاك شائكة، نقطة تفتيش، كل الذي يعرفه أن التواليت هو حافة السجن، وخلفه تبدأ حدود الحرية. فر بما يشبه المعجزة. عممت شرطة البلاد إسمه وصورته، وبدأت تبحث عنه في كل زاوية فصار مشهوراً. نام في البساتين، ثم لم يجد حلاً

غير أن يمزق ملابسه ويوسخها مدعياً الجنون والتسول، ليضيع بين مجانين البلاد ومتسوليها الذين لا عدّ لهم. بعد أيام، عبر الحدود مع الرعاة..ليتلقفه التنظيم السري ويستقبله كبطل. كان التنظيم السري عائلته الكبيرة المقدسة التي لا يعرف أفرادها، لكنه يعرف أن أي عضو فيها، مستعد للتضحية بكل شيء من أجل سلامة أي عضو آخر، رغم أنه لا يعرفه ولم يلتق به. العائلة الكبيرة كلها، تقف خلف العجلة الكبيرة المتحركة ببطئ، قاصدة أعلى نقطة على سفح التاريخ، "عجلة التاريخ" أما أسرار هذه العائلة، فيتوجب أن تصان مهما كان الثمن.

هذا هو بإختصار "وائل" ما قبل "دنيا"، "وائل" المخفيّ عنها حتى الآن.

للحب قدرة تحويل الانسان من حالة لأخرى، نعم، لأن عملية الحب بجوهرها عملية تفاعل لعناصر فعالة لشخصين، لابد أن تنتج مركّباً جديداً. تحول "وائل" بعد توطد علاقته بها تدريجياً من ثوري جامح، الى ثوري رومانسي. وتعريفه لنفسه كثوري رومانسي هو: الثوري المستعد للتضحية بكل شيء في سبيل ثورته..الا بحبيبته! ببساطة لأنه بدونها ليس هو. تحولت حياته فجأة الى مايشبه فيلماً رومانسياً، جرت أنهار غير متوقعة وفي غير مواسمها في أعماق روحة، بدأ يستقبل نهاراته بفرح غامض لم يشعر به من قبل، يتوقف طويلاً أمام محلات الزهور ثم يختار وردة واحدة متميزة يهديها لها! عادا بعد شهرين فزارا "كاتدرائية نوتردام"، وتذكرا الغجرية "أسميرالد" التي سقت "كوازيمودو" العطشان. سيقول لها فيما بعد:

"كان "كوازيمودو" ضحى أول أيلول عطشاناً، ولو أن " أسميرالد" ما أتت له بالماء كان سيموت" لترد عليه بنظرة طويلة لم تفارق ذاكرته للآن.

آنذاك، بدت الدنيا لا قيمة لها بدون "دنيا"، هل تكون هذه علامة التداخل التام بين شخصين؟ وهل هي حالة ملازمة لكل عشق؟ هنا لابد من القول أن المعضلة في قصة "وائل"، أنها يجب أن تُحكى كلها، بتفاصيلها الصغيرة، لأنها بمجملها حصيلة جمع تفاصيل صغيرة، قد لا تكون جديرة بالتسجيل كما يبدو من أول وهلة، إذن سنستمر بنبش التفاصيل الصغيرة:

–لا "دنيا"، لا، الاخلاق لا علاقة لها بالدين ولا بالايمان، ذو الأخلاق العالية يمكن أن يكون مؤمناً أو غير مؤمن، والنذل يمكن كذلك أن يكون مؤمناً أو غير مؤمن.

– لكن الحياة بحاجة الى موازن نفسي لكي تستمر متوازنة، والإيمان هو أحد الموازنات.

يسألها:

– الإيمان بماذا؟ المؤمنون التقليديون يؤمنون لخوفهم من المجهول، هم يؤمنون بشيء حتى لا يتمكنون من تعريفه ولا وصفه..

– إذن برأيك لا حياة روحية ضرورية؟

– كلا، لا يوجد ما هو أكثر ضرورة منها، ولكن أن لا تقفز من حدود العقل الى غياهب الميتافيزيكا!

– ولكن، الروح ذاتها هي ما وراء الفيزيكا، هل رأيت الروح بعينيك؟

– وهل رأيت العقل بعينيك؟

أو عندما أراد "وائل" في أيامهما الأولى سبر غورها ورسم صورته أمامها في ذات الوقت:

– حياتنا حظ ونصيب، كما يقول المصريون ياتصيب يا تخيب. أهم مافي حياة الفتاة، أن تعد نفسها لتقبل حياة الأسرة وإجتياز مرحلة الصبا بالتدرب على فنون إرضاء القادم..أن تقبل بالرجل، النصيب، وتشرع بممارسة دور المفرخة..

تنظر "دنيا" الى الأعلى، وكمن يحكي مع نفسه تقول:

– نعم كانت لنا جارة غاية في الأخلاق، أتاها النصيب الأول فرفضته بدعوى أنه كبير السن، الثاني أيضاً رفضته لأن سمعته لم تكن كما تحب، فرطت بالنصيب ثم لم تمض فترة حتى إنتحرت

– هذه شهيدة!"

– شهيدة؟ استغفر الله"

– "نعم شهيدة، ما هو تعريف الشهيد؟ من مات بعد أن مارس متقصداً سلوكاً أخلاقياً بهدف إجتماعي يعرف أنه قد يؤدي الى موته. جاء الخاطب الأول فرفضته لانه يكبرها كثيراً بالسن، الثاني رفضته لأنه ذو ماض أخلاقي سيء، ولما وجدت المجتمع لا يستوعب مواقفها، قررت أن لاتتزوج..فلم يكتف هذا المجتمع العليل بهذه التضحية فلاحقها الإخطبوط الإجتماعي..لماذا لاتتزوج..لابد أن في الأمر سراً..لابد أن عذريتها قد إنتهكت في وقت ما وهي تخشى الفضيحة..لابد ولابد ولابد، فلم تتحمل المسكينة ضغط المجتمع الذي

أقعى عليها. إنتحرت لكي لا تجعل من وجودها سبباً في معاناتها ومعاناة الآخرين..إنها شهيدة..نعم هي شهيدة

كان ذلك زمان تفاعل روحين..
بالضبط في ذلك الوقت، عندما تغير مناخ أيامه الخريفي، الحزين المكفهر، الى مشرق فرِح، أحس كأنها تتوجس خيفة من التوغل أعمق في غابة الأسئلة الخاصة. في بداية الأمر، أثار فيه تحفظها هذا إحساساً بالراحة، فأن لا تود هي سماع أسئلة عن وسطها، وماضيها، سيعني أن سكوته عن الحديث عن وسطه وماضيه، سيكون منطقياً. لكن أياماً قليلة أتت، كشفت له أن ميلها للصمت، لم يكن الا لتجنب كشف طبيعة عمل أبيها، فبعد أن إكتفت من قبل بوصفه "محام في دائرة قانونية في طريقه للتقاعد"، أفشت بعد تردد، ودوران وتمهيد، حقيقة كونها إبنة..موظف بالسلك الدبلوماسي!
إبنة دبلوماسي؟ لا، هنا يتوجب عليه التوقف! إهتز، لكنه تمكن من إمتصاص آثار الهزة قبل أن ترفع "دنيا" عينيها اليه. مرت مفردة "دبلوماسي" لرأسه محدثة دوياً هائلاً، لكنه حرص أن لا تحس "دنيا" بما سمع فتجفل وتتحصن خلف صمتها. هي إذن، إبنة رجل يمثل الدولة التي ثار عليها! هذا مريع! هذا بحد ذاته كاف كسبب لإفتراقهما! هل يعني ترددها في كشف مهنة أبيها أنها كانت تتوجس ذات الخطر؟ توغل أكثر في رحلة تبرير المحضورات: هل يعني العمل بسفارة دولة، تبنّي أفكار قادتها؟ في بلادنا البدوية نعم! لكن هل تنتقل الأفكار بالجينات؟ وما ذنبها هي كي تتحمل ما فعل أبوها؟ مراراً، تسلل خلسة الى رأسها، فتش هناك بحذر وصبر، في ركام هائل من الأسئلة والأجوبة والخواطر والتأملات، لم يجد حتى خيطاً واحداً يرتبط بصلة ما بالنسيج الوسخ للحكومة التي يعمل لديها أبوها، لكن هل يكفيه هذا؟ حتى ذلك الوقت لم

يكشف، هو الفتى الشاعر الغارق في ضباب الخريف الباريسي أية ورقة من ماضيه..

تمر أيام، يسافران للريف. وهما يجلسان في عربة القطار قبالة بعضهما كالعادة، رأى عبر النافذة قطيع خراف ينهمك بتعرية تلة خضراء من عشبها، فعاد راحلاً الى طفولته البعيدة. كل ضحى كان يتبع الراعية السمراء الصغيرة "حنينة" إبنة البدو الرحل الذين حطوا قربهم بعد إنتهاء الشتاء، ترمقه بنظرتها الحنونة، وتمضي مع أغنامها مع الشمس، وفي نهاية النهار تعود "حنينة" وخرافها وكلبها، بدون الشمس التي ذهبت لتنام، فيقرفص هو قبالة الخيمة يتمنى أن يندس بين الخراف، مستمتعاً بالثغاء المختلط مع أنغام الربابة. آه كم أحزنه عندما خرج كعادته لمطاردة فراشات الربيع، فلم يعثر على أثر للخيمة..سأل أمه بحرقة:

– أين هي الخيمة البدوية؟ أين هي "حنينة"؟ والخراف؟

– رحلوا..الى أرض الله الواسعة، يسعون وراء الرزق..

لم يكن يفهم لماذا يسعى البدو وراء الرزق، ولم يعرف ما معنى الرزق، فتصوره طائراً كبيراً يروم البدو إصطياده. أفجعه إختفاء الخيمة المفاجئ براعيتها وبخرافها، وناسها، وكلبها الملحاح، وغناء صاحبها على الربابة، فبقي يزور كل ضحى مكان الخيمة الراحلة، يتلمس أثار الأوتاد المقلوعة، وبقايا رماد المواقد، وحطام البكاء المتكسر لأنغام الربابة، ثم يعود للبيت دامع العينين مكلوم الفؤاد.

تذكر أولى قصائده عن "حنينة" الراعية التي عشقها وهو في سن الخامسة

جئت أبحث عن خطاك يا منى قلبي "حنين"

لم تكن منك بقايا غير ورد الياسمين

تلكم هي أول أبيات كتبها باكياً على أطلال مواقد البدو الراحلة، بعد رحيلهم بأربع سنين. شعرت "دنيا" بغيابه فنقرت على ركبته بلطف:

– أراك رحلت بعيداً، أكلمك فلا تسمعني!

دون أن يتمكن من السيطرة على نفسه قال:

– ما أشبه بيت الدبلوماسي بخيمة بدوية متنقلة؟

جفلت "دنيا"، لكنها إبتسمت:

– يالها من مقارنة مدهشة وصحيحة تماماً، نعم كلاهما معرّض للرحيل المفاجئ!

واصلَ:

– معنى هذا..أنك قد ترحلين في أية لحظة!

– أرحل، نعم، لكن..لا يمكن لشيء في الوجود أن يبعدني عن..

ثم تلكأت قليلاً لتواصل:..عن ما أريد، لا المدن، ولا الحدود، ولا الجنود، ولا القيود، أنا طائر وهذه كلها من صنع البشر، هل رأيت طائراً يعترف بما صنع البشر؟

صمت هو، وصمتت هي، وتلاقت عيناهما فشعر بضباب يتكاثف داخل عينيه، فحوّلهما عن وجهها بكبرياء. ترى كيف سيصارح إبنة الدبلوماسي بحقيقة كونه متمرداً معارضاً لحكومة بلاده؟ حكومة أبيها؟ وأنه قد أعتقل وعذب، وحكم بالإعدام، من قبل تلك الحكومة؟ وأن وجوده في فرنسا سري لأقصى غايات السرية؟ كلما همّ بذلك تردد. يتذكر كيف كانا جالسين على جذعي شجرتين نائمتين في غابة، هو يراقب الفراشات تحوم حول شعرها المنسدل، والعالم يبدو له كما لو كان قد خلق لهما للتو، ناصعاً، جديداً، بلا ملوثات، ولا ضجيج. لا صوت سوى رقص أغصان أشجار فرحة بعودة الحياة

لها بعد سبات. عالم مسالم حيادي، يسير كما ماء في ساقية. أراد أن يخبرها بكل شيء لكنه لم يجد المدخل المباشر فقال مقترباً بحذر مما يريد:

– ما أجمل الحرية، أنظري لهذه الفراشات! ردّت:

– الحرية هي أجمل شيء على الإطلاق وأثمن ما يحتاجه الإنسان في حياته.

زحزح "وائل" الكلمات قليلاً لكي يدخل من ثغرة بينها:

– نعم، حريتك، وحرية غيرك، فبدون أن تسمحي لغيرك بالعيش حراً، لا تكون حريتك كاملة.

أكملت هي:

– ولا مستحقة!

– ولا مستحقة تقولين؟

ردت بثقة:

– نعم، إذا سمحت لنفسك أن تعيش حراً على حساب الآخرين، معنى ذلك أنك معتد عليهم، وهذا يعني أنك لاتستحق حريتك.

هنا وصل لما يريد فقال:

– عندها تكون مقاومتي من قبلهم مشروعة!

وافقته بدون تردد:

– نعم، بل ضرورية لتحقيق العدالة!

أراد أن لايضيع اللحظة التي إنتظرها طويلاً، فلم يسبق لهما أن تحدثا من قبل بالسياسة التي حرص هو على تجنب الإقتراب منها، خشية أن تُكشف أعماقه فيجازف بفقدانها، فسأل وهو ينظر الى السماء متحاشياً إلتقاء عينيهما:

– ذكرتِني بالعدالة، ما رأيك بوضعنا في داخل البلاد؟ سمعت أن مجموعة "مخربين" قد أعدموا قبل شهر.

فتحت عينيها:

– ماذا قلت؟ "مجموعة مخربين"؟ ما الذي خربوه؟ وهل هناك ما هو صالح في البلاد لكي يُخرّب؟ هؤلاء ضحايا شجعان لما حكيت أنت عنه قبل قليل، ضحايا الثورة ضد سلالة النمور الحاكمة التي لاحد لتوحشها.

وقف فجأة وصاح باندهاش:

– "دنيا" ما الذي تقوليه؟ تقولين هذا وأنت إبنة دبلوماسي؟

إبتسمت:

– الدبلوماسي هو أبي ولست أنا، ثم أننا كما تعرف، نعيش في مضارب القبيلة، الدبلوماسي يعني البعيد عن المضارب، والبعيد يعني الأقل خطراً..أفهمت؟

فوجئ بهذه الحقيقة التي كشفت، كما فسرها هو، عن صلة ما لعائلتها بمعارضة نظام الحكم، أو على الأقل إبتعادها عنه. نعم، كلامها منطقي، أنظمة الإستبداد حساسة من معارضيها، لا تطمئن الا بإبعادهم كدبلوماسيين. وجد أن الباب قد فتح أمامه على سعته، ها هي الفرصة التي إنتظرها قد حلّت، فنظر بعينيها قائلاً بإنفعال لم يتمكن من تجنبه:

– "دنيا" أريد أن أصارحك بشيء مهم عني، لم أقله لك للآن!

قفزت من مكانها دافنة وجهها بين صفحتي كتاب كانت تتصفحه، إبتعدت عنه وقالت بصوت مخنوق:

– تصارحني بماذا؟ أنت تخيفني، هل بقي ما لا أعرفه عنك؟

– نعم، ولربما كان أهم من كل ما عرفتيه للآن!

صاحت:

– آه كم أخاف الأسرار، حدثتني نفسي أنك قدتني للغابة لكي تكشف سراً تخشى إنتشاره، قل، ولكن أرجوك لا تفاجئني بما لا أطيق سماعه..أتوسل اليك، على الأقل ليس في هذا الضحى الجميل..

يسألها:

– وكيف لي أن أعرف أنك تطيقين سماع ما أقول أم لا؟

ترد بصوت مرتجف:

– أنا؟ إسمع، أنا..أتحمل سماع أي خبر مهما كان، الا مايريد إبعادي عنك!

"حان أوان الحسم"، فصاح متفرساً بها:

– متأكدة؟ لا أريد أن أبقى معتماً معك، لك الحق أن تعرفينني كما أنا، "دنيا" أنا منتم لحركة "فدائيون"، وسجين سياسي سابق محكوم بالإعدام، كان لابد لي من مصارحتك!

رمت الكتاب من بين يديها وإستنشقت الهواء بعمق، مثل من تحرر من كابوس ليلي، فتحت عينيها المدهشتين على إتساعهما وهجمت عليه تعانقه:

– ياحبيبي، كم خشيت أن تصدمني بما لا أريد سماعه عنك! كم أحبك أيها الثوري النبيل.

تلك كانت المرة الأولى التي تنطق بها كلمة "حبيبي"، وقد قالتها بلا تردد ولا أسف. منذ تلك اللحظة إقتنع هو أنها له وأن مصيريهما قد إرتبطا ببعض. لم يجد بعدها مايمنعه من أن يحكى لها بعضاً من حياته السالفة. قص عليها اولاً عن أخته "زهور، عن "أسرار عائلية"، سجل التشريفات العسكري الضخم، الذي لا يعرف أحد كيف دخل بيتهم وصار دفتر طفولته ويفاعته الذي ألصق على صفحاته صوره اثناء سفراته المدرسية، ودوّن به آراءه وخواطره منذ أن أجاد الكتابة. السجل الذي حوى كل ما كتبت " زهور":

– تصوري "دنيا" أن ناقداً كبيراً سأل "زهور": لماذا لا تنشرين عطورك الفاتنة في الهواء؟ ليس من حقك حبس هذه الروائع فهي ثروة عامة كالمتنزه والمكتبة العامة والمتحف.

لكنه لم يتمكن من إقناعها بالتخلي عن رأيها والبدء بنشر ما تكتب. كانت تقول: "حتى لو كنت كما تزعمون، كاتبة عظيمة فأن عظمتي ستتحطم ما أن يُنشر أول كتاب لي. بعده سوف لن أكون أنا، سوف لن الق بما في أعماقي على صفحات هذا الدفتر، بل سأتأثر بما يقوله عني النقاد، والقراء، دون وعي مني، فأصحح، وأقوّم، وأحذف، وأضيف، وسوف لن ير أحد صورتي الحقيقة أبداً. لذلك سأنشر كل شيء دفعة واحدة حين أنتهي من كل شيء، وبعد ذلك لن أكتب ابداً". "زهور" وخطيبها هما أشقاء روحي يا "دنيا"، كم كنت أتمنى حضور زفافهما فخطيبها أكثر أصدقائي قرباً مني وهو شاعر يعد بالكثير..

لمعت عينا "دنيا" و تنهدت بعمق:

– كم أود التعرف بهما؟

المرأة، من بين عناصر كثيرة، قبل كل شيء عيون، و"دنيا" إمرأة بعيون مدهشة! كانت تجيد لغة الصمت فتتكلم بعيونها ببلاغة لاتضاهيها بلاغة أية لغة، ومن عينيها الزرقاوين كبحر هادئ، قرأ كل صفحات حياتها دون أن تتكلم. والمرأة من بين أشياء كثيرة، وقبل كل شيء، صوت. عندما كانت "دنيا" تنطق جملها القصيرة، كانت تصل أسماعه بعذوبة لم يجدها في صوت آخر فكان يروق له أن يسمعها مغمض العينين. مرة، رقد في المستشفى وبقيت أعضاءه تئن من الحمّى..حملت الزهور له وجلست على حافة سريره تحكي له كامّ تقص على طفلها لينام .كان يجوب في تضاريس صوتها، يعلو ويهبط،

ينساب، ويتمهل، إنتبهت الى أنه قد أغمض عينيه، فسألته بصوت أقرب الى الهمس: هل غفوت؟

أجابها مرتلاً مغمض العينين:

أنا أطيرُ يا..مُزيلةَ الوجعْ،

على جناح صوتك الرخيم

مثلما "أوديت" في "بحيرة البجعْ"!

همست بأذنه ضاحكة:

– شاعر مريض، أحقاً كنت تسمعني؟ أعد عليّ ما حكيت!

ويعيد عليها ماقالت مقلداً صوتها..فيضحكان..

بعد مشاهدتهما فيلم" قصة حب" سألته:

– "وائل" ما الذي وجدته فيّ؟ أنا أعرف سبب جنوني بك لكني أجهل أسباب حبك لي!

– وجدت بك..كل ما كنت أريد إيجاده في سواك!

– أنت تزوغ عن الأجابة كعادتك..

– إذن، لم أجد فيك ما لم أحب إيجاده في سواك!

– آه لو تعلم كيف تشعلني كلماتك! من أين تأتي بهذه التعابير؟ أنا انثر ذات الحروف، لكني لا أحصد سوى الجمل المكررة!

– إذن أيتها الملحاحة سأفصل لك: أحببتك منذ أول لحظة قابلت عيناك عينيّ في المطعم البحري، ولم أعرف لماذا أحببتك، ولأني لا أعرف، فأنا أعتقد أن

الحب ظاهرة فسيولوجية أيضاً وليست سايكولوجية فقط، بمعنى أن ميلي المباشر لك، وميلك الفوري لي، يحدث لأن هناك في الجسد، في أعماق الخلايا ما يجعل هذا الحب ممكناً. من يدري ما الذي يجري هناك في الأعماق السحيقة؟ في المقاييس النانومترية لأجزاء الخلايا؟ أنت تقتربين من شخص ما، وتحسين أنك منجذبة اليه بفعل قوة خفية، حتى دون أن تتبادلي معه كلمة واحدة، لابد أن هذه القوة الخفية هي من صُنع مكان ما في الخلايا. الحب بين إثنين هو ليس بالنتاج التراكمي الذي يخلقه الزمن والتعايش، ذلك تلفيق إجتماعي. الحب هو فعل مباشر لتلاقي قطبين، لكل منهما طاقته الروحية، مثلاً، شكل من أشكال تلاقي هذه القوى الخفية، هو الشعاع الذاهب من العيون الى العيون المقابلة، فهذا الشعاع يحمل شحنات ما، لم تُعرف ماهيتها بعد، هي التي تقرر ما إذا كان المقابل سيكون محبوباً. لذلك إسمعي نظريتي: "شحنات العيون، وجود نصفي غير مكتمل، يبحث خلال رحلة نموه عن مايكمله، عن نصفه الآخر، وتكون قوة الشحنات في أعلى مستوياتها خلال مرحلة الشباب!

ترد ضاحكة:

– وفي أقصى حالاتها، عصر الثامن عشر من تموز في مطعم بحري في "الرملة البيضا"..

يقول:

– أتعرفين، لا حب، الا الحب من النظرة الأولى!

– هذا هو حب المراهقين!

– دعكِ من هذا، ثم أن حب المراهقين هو الأصدق، لأنه الأقرب للطفولة، كلما إبتعدت عن الطفولة فقدت شيئاً من صدقك!

– مشكلتي الكبرى معك يا "وائل" أن كل مافيك يعجبني، لا أستطيع أن أكره شيئاً بك، كل يوم يمر يزيدني إقتراباً منك..وهذا هو تعريفي للحب: أن تحب كل يوم، كل شيء في من تحب!
نعم "دنيا" تحب ما يُحب هو، كانت في أحيان كثيرة تميل الى تقليده والتشبه به، ولم يكن هو راض بذلك فأجابته مرة بعيون ذابلة:

– الأمر ليس بيدي، أميل حيثما تميل أنت، مثل نبتة عباد الشمس!

لم ينس هذه الجملة، ولا ذبول عينيها الفاتن، فأمسك بكفها ذات يوم وقادها الى حيث حقل واسع من شجيرات عباد الشمس:

– أنظري عبد الشمس هذا، الا يشبه كتيبة جيش كوري في حالة إستعداد عسكري؟ جيش يتجمد خشوعاً لقائده! كل الشجيرات على ذات الشكل و الحركة.

– ولذلك أسموها عباد الشمس، هي في حالة عبادة!

– قولي لي كيف سأحبك وأنت تعبدينني؟ سأشفق عليك لا أكثر..

– الرجال يحبون عادة تعلق النساء بهم مثل عباد الشمس!

– آه، الرجال، الرجال، من عرفت أنت من الرجال؟

– عرفت الكثيرين، ولكن لم يعجبني أحد، سوى من لايريدني أن أكون مثل شجيرة عباد الشمس!

– دعك من العبّاد والعبودية، أتعرفين من تشبهين؟ أنت تشبهين شجرة الكَرْم، هل تابعت شجرة العنب الحنونة؟ هل راقبت كيف تفتح أذرعها كل ربيع وتلقي بنفسها بشوق للتشبث بأي كائن قريب منها؟ ليس هناك أكثر منها دلالة على عشق الحياة وحب الأنس، من عصيرها تشرب النفوس الحالمة، فتصل السماء السابعة وهي في مكانها..

– يا للشعراء..في كل واد يهيمون

– وبالجميلات الفاتنات مثل "دنيا" دوماً يتعلقون..

الحب هو أن لاتشعر بنفسك بحضور الحبيب، بل تشعر به هو ينبهك لوجودك. أن لاتفكر بأصل ومبرر العلاقة بين رجل وإمرأة. أن لا تفعل ما يقيّد مستقبل الحبيب بمستقبلك، التفكير بالتقييد الإجتماعي تجارة، و"وائل" أبعد الناس عن التجارة. حتى ذلك الوقت، كان قد تصرف مع حبيبته كما كان فرسان البادية يفعلون. أراد أن يبرهن أمامها على وجود إنسان يحكمه الضمير، لا التقاليد ولا الدين. " الضمير" الذي إقترحه عليها في أول أيامهما كبديل عن ما إخترعه الفقهاء. رد على حبها له وثقتها به، فلم يقربها وتركها عذراء لم تمس. الختم المقدس لابد أن يبقى كذلك الى أن تحين اللحظة المقدسة. لو أنه حكى ذلك لأي أحد لما صدقه، نعم تلك هي الحقيقة! وكانت هي تأمنه ولا تخاف خلوتها به، ترافقه للمسير ساعات بعمق الغابات، أول مرة وهما يجلسان على شاطئ البحر بمفردهما قال:

– حبيبتي، ما رأيك أن نتفق على الحب الأفلاطوني الى حين؟ الى أن يموت أفلاطون وتمر العصور فيأتي فرويد..

لم تكن تحب فرويد:

– لا، الله يخليك، أفلاطون نعم، ولكن لا أحب أن تجعلني مختبراً لتأكيد صحة نظريات "فرويد"!

– وما الذي فعله "فرويد" لحبيبتي؟

تمسك بحصاة وتلقيها بعيداً كأنها ترجم "فرويد":

– ماذا فعل؟ فعل المصائب! يقول عن الحب أنه رغبة جسدية غير متحققة، أي أن نار حبنا ستخبو ما أن نلتقي جسدياً!

يرد مطمْئناً:

– لا تحقدي عليه، لم تفهميه بما يكفي، ربما فعل هذا لإقناعنا أن نبقى أفلاطونيين الى حين. هو صمم نظريته لكي تنبهنا: إحذرا يا "دنيا" و"وائل"، إتركا فاصلاً، والا سيتحطم هيكل حبكما المقدس!

لم تقتنع:

– هذا صاحبك "فرويد" أفعوان، لاعلاقة له بافلاطون!

– إذن الى أن تأذن لنا قريش!

– آه من قريش، ويلٌ لقريش! لا أمل عندي بموافقتها. "قريش" سوف لن توافق..سترفضك..كل أمر مقبول الا تخريب شجرة القبيلة!

– ما هذا؟ من أين أتيت بهذا البلاغ العسكري الخطير؟

– كان عليّ أن أخبرك منذ البداية أن "قريش" لاتريد لي الهروب من مضاربها! لكني أنا الأخرى لم أكن قد حملتها محمل الجد..

– أنت لاتهربين، بل تنتقلين من خيمة قبيلة لخيمة قبيلة أخرى، كما كانت نساء العرب تنتقل، الم يعشق العرب قبل اليوم؟ القبيلة ستعرف أني لن أسرقك منها، فأنا لست بسارق بل عاشق كقيس، متيّم كجميل!

– وهل أنصفت القبيلة قيسها؟ أو أنها رأفت بجميلها؟

– هل يعقل أن تبقى "قريش" حتى نهاية الدهر تحدد مَن يتزوج مَن؟ وإذا لم ترض "حفصة بنت كليب" "بعكرمة بن العبد"؟ هذا جنون، نحن نعيش بعصر آخر..هل يُعقل أن دبلوماسياً يفكر بالنسب ودم القبيلة؟

– دبلوماسي؟ ذلك في بناية السفارة، ومع الرؤساء الأجانب، وسكرتيراتهم، أما في البيت، ومع العشيرة، فهو يترنم بما قال دريدُ بنُ الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية أرشد

– سأقابل أهلك!

– أرجوك أن لا تفعل! لافائدة، لاينفع مع " قريش" سوى الغزو..إغزهم يرتدعوا!

– اليست زيارتي لهم غزواً؟

– لا، الغزو أن تفاجئهم بما لايتوقعونه، وبما يخشونه!

– مثل ماذا؟

– تخطفني!

– معقول؟ حبيبتي، هل جُننتِ؟

– هو الحل الوحيد، أن تكشر عن أنيابك أمامهم، أن تريهم أنك تفعل ماتريد. نحن سنغادر باريس في النهاية، أما أن أبقى هنا معك، أو أن نتفق على موعد قادم، بحيث نستعد للأمر، فأجيئ الى باريس بلا عودة!

– هذا لايمكن، هذا جنون، بل إنتحار، سيلحقونك مادامت الشجرة مهددة وسنبقى مطاردين كل يوم بمكان! سأسجل في القبيلة إن أرادوا، أنا لم أختر ديني ولا مذهبي ولا قبيلتي وهم كذلك!

– وهل هو حزب حتى تسجل به؟ هؤلاء يريدون تطابق دمك مع دم القبيلة، هم لا يعترفون بنقاوة دمك!

"قريش" رفضته قبل أن تتعرف به، ماذا لو إكتشفت أن هذا الذي من خارجها سجين سابق محكوم بالإعدام، ومنفي ناقم على حكومة بلاده؟ ثم كيف سيرتب "وائل" عملية كتمان إسمه الكامل في المرحلة الأولى؟ ومن يضمن أن لا تشرع عائلة الدبلوماسي بالتحري عن أصول عريسها الجديد؟ ما العمل مع هذا الشرق الشائك المتشرنق بخيوط التأريخ؟ منذ تلك اللحظة إمتد طوفان

الخوف ليغمر أيامه كلها، فرأى نفسه ذات ليلة شتائية باردة، ينهض من نومه مرعوباً على وقع طرقات مجنونة على بابه، فتح الباب بوجل بعد تردد، لتدلف هي لاهثة، خلعت معطفها، بأصابع خائفة ترتجف، عانقته هامسة من خلال أنفاسها الحارة:

– خذني الليلة، والا سنفترق الى الأبد!

عقدت الدهشة لسانه، ولم يفهم الأمر، قادته الى سريره، عادت فأحكمت إغلاق الباب ثم تجردت من كل ملابسها، إنحنت أمامه عارية لتخلع جواربها. ضاع وجهها بين خصلات شعرها المنهمر، إنطرحت بهدوء مستترة بشعرها الطويل، فأحس بنفسه ينتفخ بأعاصير الرغبة الهائجة وهي تجتاج أوردته، رأى النخلة تعرض ثمارها الشهية، لكنه لم يتحرك، وبقي يعاند إغراء إنطراحها لحظات غير مصدق ما يرى، ثم مد يده الراجفة الى شعرها يزيحه عن وجهها، قبلت أصابعه بحنان، لامس بأنامله أذنيها، فندت منها آه صغيرة وإنفلتت من بين شفتيها الراعشتين عبارة:

– لاتخف ولا تتردد فيفوت الآوان!

هوى بشفتيه على شفتيها فداهم رئتيه عطر أنفاسها، إنزلقت كفاه سائحتين على أديم جسدها البض الناعم، ثم زحفتا ببطئ نحو تفاحتيها، تاه رأسه في بيداء صدرها ثم بطنها، توقدت، وشعت، وتأرجحت على إيقاع التأوهات اللذيذة، شبكت ذراعيها على ظهرة وجذبته بوحشية اليها، التصقا ببعضهما، إشتعلا وطارا..ثم أحس بنفسه يهبط على الأرض بمفرده بقوه..

عندما إستيقظ من طيرانه الحالم، لم ينم بعدها، إنتظر حتى إنقشاع العتمة وهرع اليها. رشى بوابة قسم البنات الداخلي بباقة ورد وعلبة شوكولا، مستجمعاً كل ما أمكنه جمعه من قدرات دبلوماسية:

– سيدتي البوابة الرائعة، لا داع للكذب معك، فأنت كسيدة ذكية ستكتشفين كذبي لا محالة، هذه باقة ورد وهدية صغيرة أقدمها لك، إمتناناً لسماحك لي بزيارة خطيبتي لنصف ساعة!

إبتسمت البوابة لهذه الهبة الصباحية غير المتوقعة وهمست بصوت خفيض:

– نصف ساعة ولا دقيقة أكثر!

وضغطت على الزر بقدمها، ففتح الباب أمامه. كان قد إعتاد على أنصاف الساعات التي تمتد وتتطاول لتبلغ النهار كله! طرق بابها مثلما طرقت الباب عليه في الليلة الفائتة. كانت ما تزال نائمة، نهضت من نومها فزعة، فتحت الباب لتراه باسماً يلوّح بوردته الحمراء الأثيرة فصاحت بخفوت مذعورة:

– حبيبي! ما الذي أتى بك في هذه الساعة؟ وكيف سمحوا لك بالدخول؟

عادت على عجل ترتب فراشها الدافئ المهجور، فيما دخل الغرفة ضاحكاً:

– تعرفينني، لايمنعني عنك حتى حصن الباستيل! من تحسبينني؟ أنا أمكر من "بونابرت"!

– إغز المطبخ إذن حبيبي "نابليون"! ضع ركوة القهوة على النار مادمت قريباً من المطبخ ثم سنتحدث عن زيارتك الغريبة هذه..

عادت للجلوس على الأريكة نعسانة، هكذا ينعس الرمان، والياسمين، هكذا يستيقظ الأقحوان من نومه، تأملها بشغف، إبتسمت بإمتنان لهديته الصباحية، وخاطبته بهدوء كأنما لتمنح نفسها وقتاً للتأقلم مع طارئ زيارته غير المتوقعة:

– أعد لنا القهوة، وأنا سأعثر على فيروز طازجة من راديو عربي. لا أحب أن أسمعها مسجلة

جذبها من كم قميص نومها:

– دعيهم..العرب مازالوا نائمين، وبعضهم الذي إستيقظ، مازال منهمكاً بالصلاة لكي يتخلص من تبعية أخطاءه الآتية.

هذه أول مرة يراها بملابس النوم. كشف قميصها الشفاف للحظة عن الرخام الذي تحته قبل أن تلف نفسها بروب الحمام، حوّل بصره عنها شاعراً بضآلة من نوع ما. لم يكن يعي ما يفعل. منذ أن سمع منها حديث القبيلة أحس بخطر أن تُترك دون حبل يشدها اليه، لابد من وجود مايربطهما الى بعضهما ويجعله مطمئناً الى أنها له، له بما لايقبل الشك، له بما يجعلها لن تتيه، القصائد وكلمات الغزل غير كافية. وقع تحت تأثير كلماتها في الحلم: "لاتخف ولا تتردد فيفوت الآوان"! كان دمه يغلي رغبة، ليست الرغبة الغريزية، فهو لم يشعر بها من قبل معها، بل الرغبة التي تدخله الى أحشاء "دنيا" فينام هناك وينمو، لكي يكونا فيما بعد معاً الى الأبد. نعم لابد من إنصهارهما معاً، كي تعرف هي أن معدنها غير قابل لتكرار التجربة الا مع معدنه. نهضت كما غزال، تأملها بشغف وهي تدور بجذعها ذات اليمين وذات اليسار فتطقطق مفاصلها، فيما ترنح شعرها متثائباً على كتفيها..لأول مرة لم يقاوم رغبة إحتضانها، صرخت مرتاعة:

– يافتاح ياعليم..ما به "افلاطون" اليوم؟

إنزلقت من بين يديه محمرّة مثل خوخة ناضجة، ورش شعرها المتطاير وجهه بنفحة من عطر الياسمين، صرخ بها بانفعال:

– أنت من أراد هذا..وكنت محقة!

لم تفهم، ضحكت، ضحكتها التي يسمعها الآن تهرول في حجرة رأسه كوقع حوافر مهرة جذلة، ثم نظرت له للمرة الأولى بوجه متورد من الخجل. الآن إنتبه لحماقة ما يقترفه، هو يتحدث معها كما لو كانت موجودة معه في حلم البارحة. دنا منها وهمس بأذنها:

– حبيبتي، حلمت البارحة أنك إلتجأت اليّ ليلاً هاربة من خطر. قلتِ لي "لاتخف ولا تتردد فيفوت الأوان" فعشنا أجمل اللحظات ثم..ثم طرنا سوية"

في تلك اللحظة أحس بخجل من خفة وزنه. إكتشف ثقل ما خلقته "دنيا" بأعماقه. لقد حفرت مساراتها على أديم حياته حفراً، حتى بات متعذراً عليه التعرف على نفسه بدون آثارها، فوجد نفسه مكشوفاً أمامها بلا أي ساتر. كان مثل من يصرخ: "أنا أخشى فقدانك!". هو غير قادر حتى على التفكير بفقدانها، فراح ينسف مسلماته التي إقترحها هو عليها. كان حتى ليلة أمس، معتداً ومستمتعاً ببرهنته على خطأ نظرية تقول بحتمية إجتماع الشيطان مع رجل وإمرأة منفردين. وكان يرى دائماً في عينيها، زهو إشتراكها معه في هذا الإنجاز المبهر، لكنه الآن يريد أن يثبت خطأ برهانه! فهل يبرر له حبه الجارف هذا التحول المفاجئ في سلوكه تجاه جسدها؟ الجسد الذي لم ير فيه من قبل أي مدخل الى روحها الا من خلال بوابه عينيها؟ عاد من طيرانه، يتلمس تضاريس الأرض التي يسيران عليها سوية، فسأل نفسه عن عاقبة هذا التحول، ما الثمن الذي سيدفعانه بعد هذا الإنصهار الذي إستولى على تفكيره؟ بل قبل هذا ما الكسب؟ الكسب، هو في وضع حبيبته مستقبلاً أمام خيار وحيد، هو أن تكون له فقط، أما الثمن فقد يكون الحياة كلها. نعم، فلو شاءت الأقدار أن لا يكونا معاً، لو أنه مات فجأة، أو أن الشرطة السرية تمكنت من

إختطافه وشحنه الى هناك، ما الذي سيكون عليه مصيرها؟ آنذاك ستبقى وحيدة طيلة حياتها منطوية على سرها المخيف، أما إذا إنكشف المستور فستتناهشها سيوف "قريش"..كلا لن يرض بأن يكون سبباً في عذابها..ليس مستحيلاً الحفاظ على حبيبته و نظريته معاً. عليه الإقرار أن هذه البنت التي وثقت به، ليست ملكاً خالصاً له الآن لكي يحدد مصيرها..هي حبيبته وليست عبدة له ليسجنها داخل أسوار هذا السجن الشرقي الرهيب المسمى" إختراق حرمة الجسد". هذا "الإنصهار" الذي يرومه، يشبه الشرط الجزائي الذي يفرضه المجتمع في صفقة الزواج، ففي تلك الصفقات المضحكة لن يكون الحب هو ما يحدد بقاء الآخر، بل المال المؤخر، البكارة المفتضة، الشرط الجزائي، كلام الآخرين، مستقبل الصغار..

سيقف فيما بعد مراراً أمام معظلة الأنثى، حين تسأله "دنيا" فجأة:

–"وائل" ما الذي تريد أن تراه في بيتنا المستقبلي؟

يرد عليها مترنماً:

– أريدك..أنت..بدون أحد، كما الله في دعاء الفقير، قريبٌ، فريدٌ، وحيدٌ، أحد!

تقول وشبح إبتسامة خجلة يرتسم على شفتيها:

– آخ ياشاعر..نسيت الأكثر جمالاً، صغاراً يشبهونك!
– آه..الصغار، نعم لو أنهم سيأتون عبر وسيلة آخر..أتعرفين كم يذهلني هذا الأمر؟ أن يتفق إثنان على أن يأتون بثالث، ثم يتحمل أحدهما فقط عبء

خلقه وحمله وقذفه الى فضاء الدنيا؟ إنها قسمة غير عادلة، ثم ما الحكمة من كل ذلك؟ ما هي الرسالة التي تريد الطبيعة تبليغها للإنسان؟

تتلو عليه:

– وقال لها الرب سأضاعف آلامك وأحزانك مضاعفة كبيرة، وستلدين الأطفال بالآلام.

– ما نطقت به هو نص توراتي تبريري، هل يدرسونك التوراة في الأكاديمية؟

– والله لا ادري توراتي أم إنجيلي يافيلسوفي العزيز، قرأته في كتاب ما وحفظته، فأردت إستعراض ثقافتي أمامك! ثم أن هذه هي مشيئة الطبيعة و ضريبة الحياة. الشجرة أيضاً تتجرد من أوراقها، وتتحول الى هيكل لكي تلد الأوراق الجديدة، عادلة أم جائرة لا أعرف وسوف لن تغير بإعتراضك شيئاً، لكن الذي أعرفه انني أريد صغاراً يشبهونك..

– بل يشبهونك! صغيران، ولد وبنت!

– ماذا؟ أنا سوف لن أكتف بأثنين..ولا ثلاثه ولا أربعة..سأملأ الفضاء بصراخهم، أنا إبنة البيداء جائعة للبنين والبنات، أريدهم أن يخلدوا إسمي وأن أفاخر بهم الأمم..

– حبيبتي..إذا كان لابد من تعذيب فلمرة أو لإثنتين، فاخري الأمم بنفسك، أو بواحد يصنع شيئاً مميزاً لا بعشرة لا قيمة لهم، أتعرفين أي تعذيب هي الولادة؟

– لا تخوفني! ثم أرجوك لا تمس أولادي بسوء!

– هذه حقيقة، هي التي تكثر النوع فتكافئها الطبيعة عبر عملية تعذيب بشعة مروعة لا تبرير لها، قصور وإجحاف الطبيعة التي لم تكمل عملها حين كورت رحم الأنثى، قصور ظالم..

– لماذا لا تقول أنها حكمة السماء حين أرادت بقصورها التشريحي الحد من تكاثر النوع؟ لو كانت الولادة بلا ألم لإنخسفت الأرض من ثقل مليارات بني البشر!

– مهما يكن، على البشرية المذكَّرة التي إستأثرت بقيادة الأرض إذن أن تعيد للمرأة إعتبارها بشكل ميزات إجتماعية. نعم، لايكفي أن تساويها في الأجر وفي المعاملة، لابد من سن قانون يمنحها مخصصات "رعب الولادة"، ومنحة "الهلع من إحتمال تمزق الغشاء"، وزيادة مالية جراء "جنون التفكير بحدوث الحمل غير المقصود" مع ذلك سأقبل منك ثلاثة، إبنتان وولد..

منذ الأيام الأولى، حرص "وائل" على أن لا تتعرض سمعتها للخدش. أخفى أصلها ببراعة، فأشاع بين معارفه أنها من أم عراقية وأب لبناني، وأنها تمت له بصلة عائلية من جانب أمها، وأغلق بهذا منافذ الأسئلة. كان بارعاً بهندسة نظام سري للقاءاتهما، يلعب بعوامل الزمان والمكان بمهارة، ولكن هذا كله لم يبدد قلق "دنيا"، فكانت لاتخفي مخاوفها من القبيلة. مرة وصل بها الإنفعال منتهاه فبكت على غير عادتها. ما زال يتذكر رأسها المنحني ساقطاً بين ركبتيها كبجع قتيل، وصوتها ينساب كنشيج كمان متعب. هي والبكاء نقيضان لا يجتمعان، لم يطق سماع نشيجها، جلس لصقها وقرأ عليها إحدى قصائده الجديدة التي يعدها فيها بأنه لن يستبدلها بالهواء الذي يتنفسه. كانت شقته، "شقة البنفسج" ذات الغرفة الواحدة المنزوية في أطراف الغابة مكتظة بآثار أناملها، صوتها، وضوع عطرها. المرأة، من بين أشياء عدة، عطر قبل كل شيء. عطر يلتصق بالذاكرة، وهو يعرف النساء من عطورهن، جدته وأمه و اخته "زهور". في زاوية صغيرة هناك، أفردت "دنيا" مكاناً لها، كانت تودع فيه

حاجياتها النسائية الصغيرة. بعد الحادثة التي رأى فيها دموعها لأول مرة، فوجئ بها تجيئ برفقة صديقهما الأثير "طارق زيدان" ساحبة حقيبة ترولي كبيرة. رمقها بنظرة متسائلة، خشي أن تكون قررت اللجوء اليه دون علم وموافقة أهلها. وكما لو أنها قرأت مخاوفه، غمزته بعينها وجرّت الحقيبة الثقيلة الى الزاوية الخاصة بها. لم يشأ أن يسألها عن الحقيبة بوجود " طارق" ولما إنصرف قالت:

– تحايلت عليه كي يرافقني، لم أجرؤ على حمل الحقيبة بمفردي!

تدنو منه سائلة أن يفتح القاصة القصديرية الكبيرة المثبتة بالجدار، والتي كان يخبئ فيها مايملك من مستحقات أقساط الدراسة وأوراقه الهامة، لم يفهم أول الأمر، فشرعَتْ بفتح الحقيبة بهدوء وهي تردد:

– القاصة هي المكان الأنسب، لكنها أصغر من أن تستوعب ما موجود!

بهت "وائل" عندما خفض رأسه ليعاين ما في الحقيبة وصاح مندهشاً:

– ما هذا؟

هو لم ير في حياته كلها كمية من المصوغات الذهبية لدى إنسان واحد بهذا الحجم الذي يراه الآن في حقيبتها، الا في محلات الصاغة. كانت الحقيبة مليئة بأقراط، وسلاسل، وخواتم، وأساور، وتيجان، وساعات، وقلائد، كلها من الذهب وجواهر لم ير مثلها من قبل! سألها:

– لا أفهم ما هذا؟ ولمن هذا؟

– هذا ذهب وجواهر كما ترى وهو لنا. أنت تعلم أنني أنحدر من عائلة غنية. هذه هي حصتي من الهدايا فقط، سنستعين بها عندما نتمرد على "قريش" فأنا عائدة بعد أشهر للبلاد وأريد أن نحتاط لكل شيء!

– حبيبتي هذا غير ممكن، أنا لا أريدك غنية! ولا أريد لك التمرد على أهلك، ولا أريد العيش على ماتملكين، هذه حصتك وحدك!

– لا تجنني! ما فرق ما هو لي عن ما هو لك؟ وما الضير من وجود صيغتي هنا أو في بيتنا؟ إنها لي وأنا حرة في التصرف بها اليس كذلك؟ حبيبي هذا ضمان، ما في الحقيبة يكفينا لعشر سنين قادمة. "قريش" حين تدخل حرباً لن تكتف بتجييش الجيوش، ستقطع الماء، وتحرق الخيام، وتسمم الينابيع، وتعترض القوافل، وتتحالف مع القبائل، سيكون حقدها حقداً بدوياً طويلاً مثل أحقاد حرب داحس والغبراء.

قال قاطعاً:

– لسنا بحالة حرب، ما لكِ..لكِ، نعم، لكن هذا إستغلال، أنا أستغل عاطفتك إن وافقتك، أجبرك على المجازفة بالتضحية بما تملكين، إفترضي أنها سرقت ثم..ثم..ياحبيبتي لا أريد أن أحمّلك تبعات عوزي الحالي..ولا أن أكون بنظر أهلك: ذاك الذي غرر بها وعاش على صيغتها. أعيدي هذه الثروة الى مكانها في بيتكم، وسيمر كل شيء بدون الحاجة لها. أنت بدون الذهب أكثر بريقاً صدقيني!

عاندت، وجادلت، لكنه بقي مصراً على موقفه فتمتمت بإستسلام:

– أخشى أننا سنندم فيما بعد!

– لن نندم، المهم والجوهري موجود لدينا وهو الحب، وكل ما سوى ذلك لا يهمني بشيء!

صمتت لحظة ثم حدقت به متسائلة:

– أتعرف أنك لا تشبه أي رجل شرقي؟

– وما أدراك أنت، هل عرفت كل الرجال الشرقيين؟

–وهل أعيش أنا في بلوتو أو في المريخ؟ الرجل يحيط بي من كل الجهات فكيف لا أعرفه؟

– تعرفين من يحيط بك فقط وهؤلاء لايمثلون الا قلة من كثرة!

– يا حبيبي، الرجل الشرقي نسخة متكررة من واحدة أصلية، علاقته بالمرأة قالب لا يتغير، كعلاقته بالكلب! يتغزل بوفائه وإخلاصه ولا يستغني عنه، لكنه يطرده الى البراري متى شاء، ولا يكف عن توجيه أبشع الإهانات له!

–ليس كل الرجال يفعلون ذلك، معظمهم يمجّد الأم، اليست الأم إمرأة؟

– نعم، ولكن الذي يمجد أمه ويغني لها، هو نفسه من ينظر لزوجته كشيطان!

– وكيف ترين علاقتي أنا بك؟

– أنت مدهش صدقني، كل يوم أباغت بصفة لك ترفعك بنظري الى عنان السماء! أي بشر أنت؟ أنا لا أطمئن حين أنفرد مع أقرب رجال عائلتنا لنا، لكني معك مطمئنة! قل لي لماذا؟

– ليتني أعرف، ربما كنتُ غير مكتمل الرجولة بعد!

ضحكا طويلاً..ثم سألها فجأة:

– "دنيا" هل تتخيلين إفتراقنا؟

نظرت له بذعر، كان هلعها خاصاً، مثل أم إنتبهت فجأة الى من يريد إنتزاع وليدها من بين يديها، صاحت:

– "وائل" أتوسل اليك، لا أريد سماع هذه الكلمة بعد الآن!

– ولكن الحياة كالثور، مهما كان طيعاً يتوجب علينا أن نحتاط من ركلاته الغادرة!

– وهذه مفردة أخرى لا أود سماعها، حياتنا ستسير بدون حاجة لمفردتي الإفتراق والغدر!

بعد حادثة حقيبة الجواهر، همس "وائل" لنفسه:

"هل تجد على الأرض أكثر نصاعة من "دنيا"؟ إمرأة تتخلى عن إرستقراطيتها ومالها، ودلالها، وتضع مصيرها بين يديك؟"

آخر مرة، تجرأ وكلفها بإيصال رسائل شفوية وأوراق مشفرة الى أعضاء سريين في المقاومة داخل البلاد، أما بعد عودتها فسيحملها أولى رسائله السرية الى أهله الذين لا يعرفون عنه شيئاً منذ سنين، نعم بعد عودتها لكن، متى تراها ستعود؟

التقرير السري

في البداية، لم يكن ما حدث غريباً، فكل عام في الصيف، كانت "دنيا" تسافر لفترة شهر، لكنها هذه المرة سافرت وتأخر أوان عودتها. المعضلة أنها سافرت الى البلاد التي حكمته بالإعدام، البلاد التي يريدها أن لا تعرف عنه شيئاً، فكيف السبيل للسؤال عنها، وهو الذي أوهم الجميع أن عائلتها تعيش ببيروت؟ جرب كل فنون الإتصال العلنية والسرية المموهة التي كان يجيدها، لكن "دنيا" ضاعت كما في رواية بوليسية كتبها كاتبها بمهارة ليضيّع معالم بطلتها.

هل تدفع "دنيا" الآن ثمن علاقتها به؟ هل تسربت معلومات عن علاقتهما الى الشرطة السرية رغم كل إحتياطاته، فحجزوها رهينة؟ كيف سيتصرفون مع إبنة دبلوماسي تعاشر متمرداً خطيراً؟ بقي شعور بذنب ثقيل يسحقه سحقاً. فكّر كثيراً حتى أوجعه رأسه. سقط صريع الإتهامات التي تناهشته كذئاب جائعة. كل الأسئلة التي طرحها على نفسه، إستدارت لتشير اليه: "أنت السبب! أكان ضرورياً زجها المبكّر في دهاليز التمرد والأفعال الخطرة؟ ما الأهم، هي كإنسان مستقل إئتمنك على نفسه أم فكرتك الثورية عن قلب العالم على رأسه؟ " أمسى "وائل" بغيابها نصف مجنون، لا نصفه العاقل يتغلب فيكون قادراً على التفكير بحل، ولا نصفه المجنون يخرجه من عالم الأسوياء، وينقله الى عالم المجانين الذين لا يتوجب عليهم الرد على تساؤلات الأسوياء. لاهو قادر على التسليم بأن غموض ضياعها لاعلاقة له به بل بها، وأنها هي من سيحله، ولا هو بموضع من يستطيع متابعة وتقصي ملابسات إختفاءها بنفسه. كان شاقاً عليه الهروب أمام جحافل الأسئلة التي تلاحقه في كل زاوية، لقد سُدّت الآفاق أمامه، كل الشوارع تتذكر خطواتها، ستائر شقته

الصغيرة بنفسجية اللون إشترتها هي، الأرائك، و كرسي الخيزران الخاص بها وضعتها هي تحت النافذة مكانها الأثير حين كانت تزوره، كل شيء يهمس بلمسات أصابعها. حتى نادلة المطعم تسأله: "ما أخبار صاحبتك ذات الشعر الأسود؟ يا لها من فتاة كم كانت متعلقة بك..ياربي كم سيكون أطفالكما جميلين؟" لا يرد على السؤال ويطيل تحديقه باثر قطعة المربى الأحمر الذي لم تفلح الغسالة في إزالته من قميص النادلة الابيض..الصمت لغة تفهمها النساء على ما يبدو..مضت النادلة ومضى هو الى صندوق البريد ثم الى مقهى" القلوب الكسيرة" حيث مكانهما المعتاد عند زاوية المقهى المطلة على النهر: "منذ فترة أترقبكما فأحجز لكما كل أربعاء هذه الطاولة لكنكما لاتأتيان"!

قال صاحب المقهى وصمت هو!

كان يهرب في الليالي الى البرية ناظراً للسماء، متعثراً بركام النجوم يفتش عن أثر لها في درب التبانة مثل نجمة ضائعة: أيها التبانة، لاشك أنك رأيتموها بعد شهور على إختفائها، لابد أنها غادرت الأرض!

كان ضحى مدلهماً حين رن الهاتف في تمام العاشرة ووصل أذنه صوت بارد الملمس لم يسمعه من قبل. كان الصوت حاداً مثل نصل سكين في ليل شباطي بارد:

– "معك الفاروق، سألتقيك في غرفتك في الساعة الواحدة هذا اليوم"!
أها، "الفاروق" هو جهاز التحري السري للتنظيم. تذكر أنه في لحظة يأس، إستعان بالتنظيم السري للتحري عن إختفاء "دنيا".

مازال يتذكر الفزع الذي أحس به عندما إقترب عقرب الساعة من الواحدة، كم تبدو الساعة مخيفة؟ الساعة الواحدة بالضبط، وضع العقارب لا يشعر الناظر بالراحة. العقربان يشكلان هيئة مستفزة، كملاكم يستعد لكيل لكمات لخصمه، وفي الواحدة بالضبط أحس بظل ثقيل خلف الباب، ففتحه قبل أن يُطرق. بعدها لايتذكر كيف وجد نفسة منتصباً قبالة رجل كان قد رآه من قبل مرة واحدة أثناء إحتفال عام. كل الذي يتذكره من ملامحه الغريبة، أن وجهه المتصلب لم يكن قد شجعه على إطالة النظر اليه، وأن عينيه الرامشتين بسرعة، قد أفصحتا عن ثقل ما ينوء به من حمل. هذا هو الضيف الأملس مثل صوته تماماً. لم يبتسم. يده الرمادية التي مدها، كانت كظلف متقرن لا حياة به، لايبدو أن مثل هذا صالح لإبلاغ الأخبار السعيدة، أو حتى أنصاف السعيدة. هذا حجر خُلق لكي يُرمى فيحطِم. ملأ "وائل" ركوة القهوة ماءً، لكن الرجل المتلفع بمعطف رمادي مبكر على مثل هذا الوقت من شهر تشرين الأول، رفع يده معترضاً مشيراً الى ساعته وضيق وقته، ثم بادر بغلق باب الغرفة بنفسه وثبت عينيه بعيني "وائل" ككبش يستعد للمناطحة:

–"أنا أتحدث مع المناضل المجرب العنيد!"

شعر "وائل" بوخزة حادة إخرسته عندما سماعه هذه الجملة. هو يعرف المؤخرات التي تعقب مثل هذه المقدمات. ليس هناك لبس، فتذكيره بموقعه النضالي وعناده، هو مدخل سبق أن دُفع اليه لحملة على الأتيان بعمل صعب، مثل حماقات الطفولة: "أنت شجاع فلابد أن تحمل جذع هذه الشجرة الضخمة"! توقع الجملة التالية التي ستحطم حياته: "دنيا" وقعت بيد الشرطة! حاول تأجيل لحظة الصدام مع خبر ثقيل، عبر السؤال والإستفهام، لكن

الصوت الصارم، إستمر ملقياً كلماته بلا فواصل ولا شعور، كمن يفرغ عربة مليئة بالحجر:

– وصلنا. "تقرير سري" يتضمن رداً على طلبك البحث عن الفتاة المسماة "دنيا". المعلومات السرية المؤكدة التي وصلتنا تقول أن سيرتها الأخلاقية، غير مشرفة. هي على علاقة سرّية مع آخر وتزوره على الدوام في شقته، هذا ليس كل شيء، سنتحدث لاحقاً بتفاصيل أكثر"

– ماذا؟ علاقة مع آخر؟ من هو هذا الآخر؟

صاح "وائل" بعد تلقيه دفق الرصاصات المسمومة التي أطلقها "التقرير السري" من مسافة متر على صدره، توقع أسوء الإحتمالات، وأكثرها فجائعية، حتى موتها المفاجئ توقعه، الا هذا! تداعت دفاعاته وخلال لحظات، تهشم هيكل "دنيا" أمامه تحت ضربات معول "الفاروق" الماحقة. إمتلأت الغرفة حطاماً، وغباراً، ولم يتمكن خياله حتى من إستعادة ملامح وجهها. هذا جنون، قبل لحظات كانت "دنيا" أمل حياته الضائع، خبر صغير عن سلامتها كان سيعيد له نسغ الحياة الذي كاد يجف بعروقه، قبل دقائق كانت احد المقدسات، والآن هي صاحبة السيرة غير المشرفة! بقي مشلول الحواس، يتحرك في المنطقة المعتمة بين الوعي واللاوعي، اليقظة والنوم، غير مصدق لما سمع، أحس بحرارته ترتفع، ودار رأسه دوراناً مخيفاً. هذا إنهيار عام لا فقدان إمرأة، فدنيا لم تدخل حياته كإمرأة عشقها، بل هي حزمة كاملة من رهانات حياتية كبرى، فشل علاقته بها سيعني إنهيار مشروعه الأخلاقي الذي طالما بشّر به.

بعد تيه، وتخبط، وحركات مضطربة لا اتجاه محدد لها، كطيران فراشة محترقة، غرق في نوم كان لابد منه لكي يتجنب الجنون، وهناك في عالم النوم بدأ بتفكيك خطاب الإتهام:

"هي على علاقة سرّية مع آخر وتزوره على الدوام في شقته"، التقرير رفض بإصرار الكشف عن هذا الآخر، إذن! ضرب رأسه بقبضة يده بقوة: ما أغباك! فجأة كأنما هبط عليه ملاك من السماء، ومض برقٌ هائلٌ وأضاء فراغ رأسه كله! فجأة إنتبه، وراح عقله يحل مالم يتوصل لحله من قبل! لِمَ أصيب بالخرس أمام الرجل الجرانيتي؟ لمَ لمْ يتسائل مع نفسه عن آلية إعداد "التقرير السري"؟ الا يعرف هو كيف يتشكل؟ بأية ظلمة يولد هذا المولود السري؟ لماذا لايكون هذا الرجل المقصود الذي كانت "دنيا" في التقرير ترافقه هو نفسه؟ لمَ لايكون كاتب التقرير السري قصدك يا "وائل" ؟ رآك أنت، سواء إن كان يعرفك أم لا يعرفك، فعندما يستفسر "التنظيم السري" عن شخص ما، لايكشف بالطبع أسباب وأهداف الإستفسار التي قد تكون أمنية، أو لأغراض الترقيه بالتنظيم، أو لأغراض البحث عن أحد..على كاتب التقرير السري كتابة مايعرف عن المستفسَر عنه بقدر حجم السؤال. وهكذا نقل التنظيم هذه المعلومة الهائلة، لكي ينبه "وائل" الى أن "دنيا "على علاقة مع "وائل"! لقد مسخه التقرير السري الى شبح غير معروف المعالم..يا للسخرية!

نهض من نومه بحل! ومضى منجل الشك يحصد الثمار ليلقي بها في حضنه، هو الذي كان مستعداً بفعل الجرح الذي سببه له "الفاروق"، أن يتفاعل مع أي تعاطف مهما كان. كان مثل ملاكم قد أشبعه خصمه لكماً، فتضخم رأسه ليصل حجم الكون كله، و بدأت أرض الحلبة تحته لا تكف عن الدوران، المهم أن يمسك بأي شيء لكي لا يهوي الى الأرض.

لام نفسه على ما فعل! تلك كانت واحدة من أكثر حماقاته إثارة للوجع. كان إستعانته بالفاروق خطأ لا يقترفه الا الأغبياء، فهو قد وضع تأريخه الشخصي كله بين يديّ من لا يعرفهم. فمن هو "الفاروق"؟ هو لايعرف من التنظيم كله سوى بضعة وجوه، أما نسيجه المتبقي وخيوطه السرية المتشابكة فلا يعرف عنها شيئاً. السرية مفهوم ساحر يعيش في خيالنا بعالم مفترض كل مافيه متقن، وقوي، وكامل، وغير قابل للإختراق! كل ذلك لأن السري غير خاضع للإختبار المباشر، هو عالم غامض، مختف داخل نفسه، غير قابل للرؤية، تتبرر أخطاءه بإستمرار، وتضيع فيه المعالم والحدود بين الفاعل والمفعول به. ناس السر غير ناس العلانية. ناس السر عمالقة في خيالنا، ولكنهم قد يكونون في حقيقتهم أقزاماً. لم يكن إستنجاده بالتنظيم السري مبرراً أبداً، كان يتوجب عليه حسم أمره بنفسه! ولكن كيف يمكن مسك هذا الفعل الأملس الزلق " كان"؟

نعم، طبيعة الحياة السرية تسمح بالكذب و بتشوية الحقائق، والإعتداء على إنسانية الإنسان، ليس لأن هذا هو هدفها، لكن ذلك قد يُفرض عليها. عندما يكون عليك أن تنجد من هو في الظلمة، قد يتحتم عليك التعثر بشيء هنا وشيء هناك، وربما الدوس على يد هنا ورأس هناك. إقتراف "بعض الآثام غير المقصودة" وأنت في طريقك لإسعاد الشعب، لا يدخل في عداد الجرائم الكبرى، الم نتعلم ذلك؟

أقنع "وائل" نصف عقله بهذا الإكتشاف الثوري، وبقي نصف عقله الثاني نائماً. هو أبقاه نائماً، كان لا يريده أن يستفيق: " يكفيني نصف عقل!"

لكن نصف عقله النائم صرخ فجأة:

– وماسر صمتها إذن؟

– إصمت أنت! ستعرف فيما بعد أنها تعرضت لفقدان ذاكرة وسوف تستعيدها يوماً ما، الأمر لا أكثر من شكوك لا أساس لها، رسالتها ستصل!

سيرد على إتهامات "التقرير السري" بهذا التحليل المفحم! نعم، لم يكن ماسمع سوى سوء فهم عابر. قبل أن يترك غرفته، رن الهاتف، هرع الى الجهاز كأنه كان على موعد مع أحد، فوصله صوت نسائي من بعيد:

– هل وصلتك رسالة "دنيا"؟

صرخ بصوت منفعل:

– من يتكلم، هل أنت "دنيا"، لا لم تصل..من؟

هل كان صوتها؟ نعم وربما لا، ولكن هذا الصوت لم يكن غريباً رغم وصوله من البعيد مشوشاً. رسالتها قادمة لاشك، لكن الآن، وقبل كل شيء، عليه أن يتدارك الأمر معها. لقد تسرع على غير عادته ووقع ضحية كرامته التي هدرتها كلمات الرجل الجرانيتي، فثارت ثورة الشكوك في أعماقه، ها هي في محكمته بريئة من هذه التهمة الشنيعة! مهما كان، هي حية ولم تقع بايدي الشرطة، ولعلها تمر بظرف صعب، عليه أولاً أن يمد جسراً سايكولوجياً معها، تناول ورقة وكتب:

"آمل أن تصلك رسالتي هذه. وصلتني أخبار غريبة عنك، لابد أن خطأ ما قد وقع، أطلب منك تقدير إضطرابي وقلقي بعد أن تشابكت الأمور عليّ. أعتقد أن الإلتباس في طريقه للحل..أهم ما عليك فعله هو إبقاء الإتصال معي..سأفهمك كل شيء"

أعاد قراءة ما كتب، فشعر بغربة عن نفسه، عن مفرداته، شعر ببرودة لغته. لغته الطافحة بالحياة عادة، العابقة كحقل زهور ربيعي، لغته الراقصة يراها

الآن أمامه كجثة ميتة. شعر أن "دنيا" قد إبتعدت عنه. يا ملائكة السماء! ليس بمقدوره الآن مخاطبة حبيبته التي كانت قبل الخبر. لقد تخشبت عواطفه، وكلماته، وتشوهت صورة "دنيا" في ذاكرته. لم يستطع حتى كتابة كلمة "حبيبتي" لأن "التقرير السري" حوّلها من حبيبة الى خائنة، الغى تأريخها معه، قحْبنها ونضى عنها ثيابها فتركها عارية أمامه يتفرج عليها الجميع. الغى الأجمل، والأغنى، والأبهج، من سنوات حياته حتى بات من الصعب عليه إستعادة شكلها قبله، كلما أراد تخيلها قفزت الى ذهنه صورتها التي رسمها التقرير. ترى كم يحتاج من وقت لسترها؟ كم يحتاج من جهد لترميم الصدوع التي سيخلفها هذا الزلزال في روحيهما؟ أخيراً عمد الى تمزيق ما كتب. سيهدأ. لا بد أن يهدأ أولاً، ثم سينطلق ليلقي نظرة على صندوق البريد. دلف الى الزقاق الضيق البارد دوماً، فتح الصندوق بتمهل هذه المرة لايعرف لماذا..دق قلبه بعنف، هل يصدق عينيه؟ هذه رسالة منها!..تردد. للمرة الأولى يتردد في فتح رسالتها، هو الذي كان لايصبر حتى بلوغ باب الدهليز. كأنما كانت "دنيا" تنتظر داخل الظرف، فخشي مواجهة عينيها اللتين ستوجهان له نظرات الإستفسار: كيف وقعت هكذا بسهولة في الشرَك؟ كيف لك أن تشك بي؟ أمسك بالرسالة بإحكام مثل من يمسك طائراً يخشى هروبه من بين يديه. تحسسها بأصابعه، كانت ثقيلة، نعم لم تكتف بالرسالة، أرسلت له صورها للزيادة في تطمينه. كأنها سمعت تبريره وتبرئته لها، كأنها أخضعته لإختبار، و قد نجح أخيراً وبرهن لها أن ثقته بها فوق كل شيء، فهو الآن يستعد لاستئناف قضيتها أمام "التقرير السري"، رغم الجراح التي سببها هذا له ولها! إنه الحب الذي لا يُقارع! قبّل الورقة دون أن يبالي بإبتسامة العجوز التي قابلته..فجأة أحس بنفسه ثقيلاً، هو بدون هذه الكتلة الخفيفة من الورق لا

وزن له، لقد تخلخل كيانه كله بدونها. وضع الرسالة في جيبه بإحتراس. سارع لأقرب كابينة هاتف، وإتصل بالرقم السري طالباً مقابلة سريعة مع ممثل "الفاروق". سيقابله ويصفعه برسالتها، سيفرك أنفه اليابس ويعلمّه كيفية إحترام الحب والعواطف والمشاعر. إتفقا على اللقاء بعد ساعة في مقهى "القلوب الكسيرة". سار"وائل" هذه المرة متمهلاً على الشاطئ بخطوات من يتقدم لاستلام جائزة كبرى، ها هي الأمور قد إستقامت من جديد.

دلف الى المقهى مبتسماً. هذا المقهى الذي لا يزوره في النهار الا القلة، هو شقته الثانية، هو أكثر الأماكن التي تعرف جدرانها وأرائكها قصتهما، إختار الزاوية القصية المشرفة على النهر في يمين المقهى الفارغ الا منه و النادل، الزاوية التي كانت مأواهما المطل على النهر، منها كانا يتابعان في الأيام الغائمة عبر الزجاج المضبب، التحليق الأليف لطيور النورس، ويلوحان في الصيف لليخوت المتهادية على سطح السين:

– أتتذكرين شاطئ دجلة يا "دنيا"، كم بودي الجلوس معاً في مقهى البيروتي؟

– البيروتي؟ كنت أذهب الى هناك مع أبي في الصيف، وربما سنجلس معاً هناك ذات صيف.

– أتظنين ذلك ممكناً؟

– ممكن إذا رضي "وائل" عن الحكومة، ولكني لا أرى ذلك العهد قريباً، فأنا أيضاً لا أريدك أن ترضى عنها الآن!

أغلب رسائلها التي كانت تبعثها له أيام غيابها، كان يقرأها هنا متكئاً على مسند الأريكة العتيقة في الزاوية القصية اليسرى، ورؤوس أبطال سباق "الفورملا ون"، وكرة القدم، والسلة، التي تغطي الجدار، تشرئب بفضول لتقرأها معه. طلب قهوة، وتحدث قليلاً بتعمد مع النادل الذي كان يعرفهما ويكثر

السؤال عنها بغيابها، كان يود هذه المرة أن يسأله النادل عنها كما في المرات السابقة، ليجيبه: "أنظر هذه هي رسالة وصورة منها" ! لكن، على عكس ما تمنى، لم يتحدث النادل هذه المرة بشيء سوى عن حالة الطقس المعتدل هذه الأيام خلاف العادة. لقد أحس على ما يبدو، أن ليس من اللائق تكرار توجيه سؤال لفتى عن صاحبته التي طال غيابها. كان قد تبقى أقل من ربع ساعة على موعده، أكثر ما تمناه أن يجد في رسالتها من الأدلة والتفسيرات ما يلجم صاحب "التقرير السري" المتخشب الذي أرسلوه بمهمة كمهمة الدفان! مد يده للرسالة، و فتح المظروف بأصابع مرتعشة كما لو كان يتوقع أن تقفز كاتبتها منه، وفي اللحظة التي أكمل فيها فتح المظروف وفرش الرسالة على الطاولة بادئاً بقراءة أولى كلماتها، كانت عربة الترام ذات اللون الأحمر الآيل للشحوب قد أطلقت من وراء زجاج المقهى، قرب منعطف الشارع، صراخاً صاماً للآذان. بعد ذلك لم يتذكر الا قسمات وجه النادل المندهشة الذي أقبل بإتجاهه مستفهماً، كما لو أن "وائل" نفسه هو الذي صرخ بهذا الصوت المرعب. أشار للنادل إشارة بلهاء بما يعني أن لاشيء قد حدث. تراقصت شعوب من البعوض أمام عينيه، لم يتحمل بعد أن جف حلقه حتى خال نفسه سيختنق، فنهض مترنحاً والظرف الفارغ بيده، ومضى راكضاً الى حيث غاب النادل وراء طاولته. رأى النادل حالته المرتبكة فسأله وعيونه تحدق بوجهه باستفهام:

– هل كل شيء على مايرام؟ هل تحتاج مساعدة؟

– كلا، بعض..الماء لو سمحت!

– لدي أسبرين، أو باراسوتومول أو أستطيع الإتصال بالإسعاف الفوري إن أردت!

– كلا، شكراً، لاشيء، نوبة بسيطة..

كانت تلك نهاية قصته معها. حُلّ اللغز!

كانت رسالتها قصاصة ورق وصورتين، صورة تظهرها راقصة ببدلة زفافها مبتهجة، وقد كُتب على ظهرها عبارة:" أرقص في أجمل أيام عمري يوم زفافي"، والثانية في حفلة العرس ذاتها، وهي تمد يدها لفتاة مهنئة، وإبتسامة سعيدة شاسعة ترتسم على وجهها..على الورقة، كتبت سيلاً من المسبات، لم يجد في نفسه القوة اللازمة لقرائتها، فراحت عيناه تبحثان بين السطور، كأنما أراد العثور على بقايا من مفرادتها الرقيقة، عبثاً، لاشيء غير الشتائم: "ماذا تريد بحق السماء؟ الا يكفي صمتي لكي تفهم أن اللعبة قد إنتهت؟

(the game is over!) عليك الآن الكف عن التطفل على حياة إمرأة لم تر بك الا مغفلاً..

لقد تزوجت صاحبها إذن! الآن فقط صدق كل شيء. كل ما سمع.

ولكن ما معنى: "إنتهت اللعبة؟"

أعاد قراءة هذه الجملة مرتين وثلاث مرات، بدون سبب غير الإرتباك، ثم توقف عن القراءة، ومزق الصور مزقاً صغيرة ورمى بها في حاوية القمامة!

ترى كيف سيقابل صاحب التقرير السري؟ سيغادر المكان ويتهرب من موعده الثقيل، ثم يبعث للتنظيم ما يفيد بإنتفاء حاجته للمعلومات، لأنه أصلاً قرر إنهاء العلاقة مع هذه المرأة. على الأقل ستأتي المبادرة منه، سيحفظ بعضاً من كرامته! همَّ بالوقوف والإنصراف لكن الأوان كان قد فات، فالرجل الجرانيتي قد جلس قبالته دون أن ينتبه، وكأنما كان قد قرأ رسالتها معه، بدأ برمي الأحجار من العربة مثل المرة الأولى:

– لابد من إبلاغك أن معلوماتنا الدقيقة والمؤكدة. تفيد بأن سيرة "دنيا" غير مشرفة كلياً. هي تشتغل عميلة سرية للحكومة. كما أنها ليست إبنة تاجر

لبناني كما أوهمتك. بل إبنة دبلوماسي عراقي. ما كان عليك الثقة بإبنة دبلوماسي في حكومة عدو. لقد كُشفت فكان عليها الإختفاء! وأرجو أن لاتحملنا أكثر من طاقتنا..حركتنا لا تتساهل في مثل هكذا أمور كما تعرف. ولا نسمح التفصيل بها!

وقف "وائل" فجأة و إرتد الى الوراء بحركة لا إرادية كمن تعرض لدفعة قوية خلخلت توازنه. لم يكن قد أفاق من صدمة خبر علاقتها بآخر بعد، وها هو يسمع ما كاد أن يجمّد دمه في شرايينه! أتراه خُدع كل هذه الفترة دون أن ينتبه؟ جاسوسة! هذا أمر لايحتمل..هذا خبر شنيع. لعبت عليك لعبة العمر يا "وائل"! إذن لا صحة لإستنتاجاته عن العمل السري وما قد يسببه من تشويه للحقائق، فهو كان سبباً في كشف الحقائق وليس تشويهها. "التقرير السري" دقيق، حتى أنه كشف زيف ما أراد هو أن يعرفه الآخرون عنها على أنها من أب لبناني تاجر، فقالها التقرير صراحة: هي إبنة دبلوماسي! هكذا كان، ووقع الذي لم يكن يتصور وقوعه..ياله من نائم! لقد ساقه العشق بسياطه دون أن يحس بألم، ودون أن يعرف الى أين يُساق. سار كمخدر مقاداً بسحر الكلمات والضحكات، فتمكنت من الإفلات من مجساته الحسّاسة! ام أن أحداً ما ساعدها على التخفي؟ أحد يعرف طريقة حياته، بحيث تصرفت بما يضيّع عليه آثارها؟ هو الآن قد وقع في الشرك. هي الطليقة، المتوارية، التي لا يعرف أحد عنها شيئاً، وهو الأسير المكشوف الذي لايمكنه حتى تنبيه أهله الى مصدر الخطر. لقد وثق بها الى حد الحديث أمامها عن الكثير من أسراره. ياله من غبي! إذا أردت كشف غباء الرجل الق به أمام إمرأة جميلة وراقبه! الآن..يتذكر كيف أنها كانت تبعده بمهارة فائقة عن مقابلة أهلها، كانت تتصرف بخبرة المحترفين، وتبالغ ببراعة بتصوير تخلف عائلتها.

لقد لعبت لعبتها بمهارة تفوق التصور. عرضت عليه حلاً واحداً كانت واثقة من إستحالة تحقيقه: إخطفني! هي تعرف أنه لن يُقدم على خطفها، وبذلك عرفت كيف تقدم التفاحة له، كيف تستدرجه للبقاء معها والثقة بها، عرفت كيف تبعد كل الشكوك عن باله. الآن قد حُلّ اللغز وإنتهى الأمر. إستل ورقة، ولم يمهل نفسه وقتاً للتفكير في ما سيكتب:

" كشفتك منذ زمن بعيد، لكني أردت منحك فرصة إستيقاظ الضمير ثم تأكد لي أن لاضمير لك لكي يستيقظ. الآن سأكشف لك عن وجهي الآخر الذي لم تعرفيه. أنا قادم في يوم ما..قادم لكي أستعيد تراثي وماضيّ في قتال من يلعب بمصائر البشر..وسوف لن يعود سيفي الا أحمر..حتى لو بقي يوم من عمري سأخصصه للانتقام منك..سأتبعك حتى آخر الكون!"

كان جنونه عارماً..لقد كذب! لم تكن خيانتها في حسبانه ابداً، لكن هي محاولة رد إعتبار لكرامته، محاولة لتبيان قدرته على فعل عمل تخريبي مماثل طالما كانت هي قد خربت كل شيء. مرة قال لها: كم من المُثل النبيلة التي يعتبرها المرء قمة المدنية لا يحافظ عليها الا بوسائل هي قمة في الحقارة والبدائية؟ لابد انها ستتذكر ذلك!

أودع الرسالة المدماة في صندوق البريد. للآن، لا يتذكر كيف عاد الى غرفته، يتذكر أنه دخلها مترنحاً وبقي يرفس برجليه كثور ذبيح وهو في النزع الأخير. قطع صلاته مع الجميع، وتقدم بطلب تأجيل العام الدراسي، ولم يبارح غرفته الا لإنجاز الضروريات. لجأ لأول مرة في حياته للفاليوم لكي ينام.

مدينة بكاملها قد إنهارت بأعماق "وائل" دفعة واحدة، فإختلط الضجيج بالحطام بالغبار بالصياح بالدماء. هو قد خسر الآن كل شيء. لم يخسر إمرأة كان

يحسبها جزءً منه، بل خسر معها قناعاته بسلامة إختياره، وثقته بيقظته ونباهته اللتين كانتا تميزانه عن غيره، ثم خسر سمعته في عائلته السرية الكبرى "التنظيم الثوري"، فهو قد وقع ضحية علاقته بإمرأة منْدسة وهذا أسوأ مايمكن أن يتعرض له مناضل. سيتسرب الخبر الى الخارج، وستبدأ التقارير السرية والعلنية بنهش ما تبقى منه، فمن يدري أية أسرار قد سربها؟ وأية معلومات وصور حصلت عليها المندسة بعلمه وبغير علمه؟..ومن يدري..ومن يدري..ليست صدفة ان يضرب إله الجنون إله الحب على عينيه فيفقده بصره فنرى مجنوناً يقود أعمى!

قبل فجر اليوم التالي لاستلامه رسالتها، حين كانت السماء تنز برداً هادئاً معتماً، والأرض تلتف بغلالة من الرماد، كان هو مايزال ساهراً لم ينم. لابد له من التخلص من بقاياها. الآن، لا تأخير..كانت قد تركت لمساتها على كل شيء في شقته التي اسمتها هي "شقة البنفسج"، الستائر البنفسجية وأصص الورود في الشرفة، ورق الجدران الذي بدلته بنفسها أيام مرضه حين كان هو في المستشفى، شقته كلها تفوح بملمس أناملها، فضائها ملون بعطرها الذي لا يختفي ولا ينام، صوتها قد تشربته الجدران والأثاث، وغير هذا كله رسائلها! ترى ماذا سيفعل برسائلها؟ بثياب نومها المعطرة التي طالما نامت معه بغيابها، ما الذي سيفعل ببقاياها التي تركتها: "حبيبي سأترك هذه الملابس هنا..دعها تحكي لك بغيابي"

ما الذي سيفعل بكل هذا؟ بهذه الضحكات، بهذه الحياة المجمدة على الورق..بهذه الذكريات؟ لم ينم، إنتبه للعتمة تتسل بهدوء وتتاقل من صفحة السماء وسمع عندليباً يبكي على شجرة مقابل شباكه، من تحته كان النهير ينساب نائحاً. قبل أن ينبلج النور، فتح النافذة، فبقي العندليب ساكناً لم يطر

بل مضى يترنم بأغنيته المكلومة..أتى بسلة الرسائل ووجد نفسه بدون إرادته يقرأ واحدة قبل أن يودع كل شيء، كانت من رسائلها الأولى:

"حياتي وعمري، أنا لك ولايمكن لقوة في الأرض أن تفرقنا..سأتبعك حتى لآخر الكون". قرأ مرة أن المرأة ،المرأة الشرقية خصوصاً، لاتعني ماتكتب، المرأة تنساق خلف الكلمات والحروف مثل راكضة وراء غزال سحري فتقاد لقول مالا تعنيه. لكن ماكتبته "دنيا"، لم يكن مشاعر سطحية لأمرأة تقليدية لا تعني ما تكتب. ما كتبته، وما فعلته، كان تمويهاً إعجازياً. هي موهوبة في صناعة شيء يشبه الحب الى حد كبير لكنه ليس هو، موهوبة بالإتيان بدلائل على تصرفات ستقوم بها حتماً، لكنها متأكدة من نفسها الى درجة عالية أنها علامات للإستعراض لاغير. أين تعلمت هذه المهارات وهي بمثل هذه العمر؟ بصق على الورقة وأعادها بيد مرتعشة، وقشعريرة تجتاح جسمه، ثم قلب المحتويات من رسائل وصور على الطاولة وبدأ بتمزيق الأوراق الى قطع صغيرة، جمعها بكفيه، مد يده من الشباك وقلب محتويات السلة لتتناثر في الهواء..تابع أيامهما المقطّعة الطائرة بإتجاه النهر قبل أن تطفو على سطح الماء وتغادر الى غير عودة! بقيت الآن ملابسها..أمسك بكومة قمصانها الداخلية، وكتم أنفاسه لكي لايستنشق عطرها النائم في طياتها، قرر أن يكرهها بقوة، أن يلعنها، أن يتخيل وضعها خائنة، عرّاها في مخيلته. أزاح الستائر وفتح باب الغرفة لكي يراها كل من يمر، تخيلها تنهض مرتدية واحداً من هذه القمصان متملصة بدلال من أحضان صاحبها، هي بجسدها الحار وشعرها المتمرد وعطر جيدها..نعم هي ترقد بأحضان الآخر..تخيلَ ذلك ويده مازالت تقبض على قمصانها، أمسك الملابس كما يمسك طفلٌ وجل بذيل فأرة..أغمض عينيه وطوح بكيس بقاياها من النافذة..لتأخذه المياه. أحس كما

لو أنه رمى جثتها لا ملابسها. دفنها مثلما تُدفن الفضيحة بلا مراسيم ولا بكاء.

أمسى "وائل" بعد إنهيار علاقته بها، كالطفل الذي قتلت أمه غسلاً للعار فكانت خسارته مضاعفة، فقدانها، وفقدان الحق بالبكاء عليها في ذات الوقت. عليه الآن قبل كل شيء أن يغير مكان سكنه، ثم أن يتقدم خطوة أبعد، أن يتبرأ من كونه طفلاً لأمه. أن يقطع كل الحبال التي كانت تشده اليها وأن يقتلع ما تبقى من جذورها من قاع روحه. لا يُنسي حباً عميقاً سوى كره عميق يماثله. بعد أن أحبها بعمق، عليه أن يكرهها بعمق مماثل، هي صنعة صعبة الإتقان، وتحوّلٌ يفوق قدرة المشاعر البشرية، لكن في كل الأحوال، لابد له أن يخترع نظاماً للنسيان. كان يتوجب عليه البدء بتنفيذ مهمة أخرى هي إعادة ترميم نفسه، والبحث عن ما يوفر له التوازن في هذا العالم العجيب، فقصته معها لم تكن قصة رجل وامرأة التقيا ثم فرقتهما الظروف. قصته معها أنهما، كما إثنين إندمجا في كائن واحد، ثم فصلا كما يُفصل جسد بحد السيف..هو حتى لم يعرف أي شيء يعود لها وأي شيء يعود له، أي شيء يرجعه اليها، وأي شيء يتوجب أن يبقى لديه. إكتسب الكثير منها وهي كذلك، حتى لم يعد بالأمكان معرفة الحدود بينهما..مع كل ذلك سيبدأ النسيان، ثم عليه الآن إنجاز المهمة الأهم، مهمة التفكير بطريقة متقنة قاسية للإنتقام منها! لن يتركها تنعم بحياتها أبداً. سيكون الإقتصاص منها واحداً من أهداف حياته. سيتبعها حتى لآخر الكون! عليه الآن أن يبقى واقفاً على قدميه، ويحتفظ بقامته منتصبة، ثم أن لايترك الخبر يتسرب الى من هم خارج تنظيم" فدائيون" بصيغة تدل على إختراق، وإستغفال، وتسللٍ في العتمة، كلا، ذلك مالا يتوجب أن يسمح به. لابد أولاً أن يبدأ بطارق زيدان، فهو الأهم من بين الكل لأنه

صديقهما المشترك، ولأنه كذب عليه فإدعى إنشغال "دنيا" بحالة والدتها الصحية، وأنها ستعود بعد شهور. ولأنه يثق بموهبة "طارق" السينمائية وكيفيه أخراجه الخبر وتوزيعه، خلص الى صيغة تلقائية، يسرّب من خلالها، خبر إنتهاء علاقته بدنيا. سوف لن يدعوه لجلسة خاصة، ولن يحدد له موعداً لإعلامه بأمر مهم، بل هكذا أثناء لقاء غير مخطط له، لكي يبرهن له أنها لم تعد ذات قيمة ولن تعني له شيئاً بعد الآن. وهكذا كان، فبعد أن كز على أسنانه مراراً متدرباً على هيئة غير المهتم كثيراً بالأمر قال:

– "طارق"، نسيت أن أرجع كتبك لك، هي من الزمن الموبوء..من زمان تلك (تلعثم ولم يتمكن من لفظ إسمها) إستعارتها ونسيت إعادتها..

فتح "طارق" عينيه على إتساعهما وصاح:

– ماذا تقول؟ ما الذي يعنيه هذا؟ "من الزمن الموبوء"، "من زمان تلك"، ما الذي حصل؟

ربت على كتف "طارق" مثل معلم يوصي تلميذاً:

– الم أخبرك من قبل؟ موضوع تافه لايستحق النقاش، لننس إسمها، لا أريد أن أتذكر أي شيء عنها، ليس ذنبك ياصديقي، أن تحاول بناء إنسان فينفجر بين يديك محاولاً تدميرك..

بدا حانقاً على نفسه أكثر من حنقه على "دنيا" ولم يبد أن "طارق" قد إقتنع بما سمع. لابد أن للقصة أبعاداً أكثر سعة:

– أنتما المتلاصقان حد الإندماج، إفترقتما بعد كل هذه السنين؟ لا أصدق، "وائل" ما الذي جرى؟

بإقتضاب همس بأذن "طارق" هذه المرة عن "التقرير السري" " الذي أيد ما توصل هو اليه":

– في الحقيقة، ليس كل ما يُعرف يقال، وليس كل مايقال هو حقيقة (هذا المقطع الأخير لم يخطط لقوله، قفز من فمه بفعل الإضطراب) كنت منذ فترة طويلة شككت ببعض تصرفاتها، لكني لم أشأ إتخاذ قرار قد يكون متسرعاً، ولما مضيت أبعد في التحقيق الهادئ معها، شعرت هي بقرب وقوعها في الشرَك، غادرت فجأة وإنقطعت أخبارها، ولم تعد خشية الفضيحة، ثم أيد التحقيق شكوكي! لست وحدك المفاجأ، أنا أبقيت الأمر سرياً لسنوات! لكن..أنا نادم فقط لأن خطتي في معاقبتها لم تتم، لقد تنبهت لي قبل أن أبدأ بها، لكن، لو بقي يوم واحد من عمري سأخصصه للإقتصاص منها، تذكر ذلك. هو وعد مني!

سوّق نفسه بطلاً لنزال مفترض، وإستغل وجل "طارق" وخوفَه من السياسة ليعرض أمامه مايثير الفزع في نفسه. أرهبه بالتلويح بركام من المواد المتفجرة التي كانت "دنيا" تخفيها في أعماقها، فنفخ في دواخله القلقة عفريت الخوف الذي كبر بسرعة حتى سقطت "دنيا" من عيني "طارق" تماماً. كان لابد من فعل ذلك، فإحتمال التقائهما في وقت ما يبقى قائماً. لابد أن يشحنه بشحنة مضادة لها، تطردها من مجال حركته. دحرج الموضوع كله الى حدود "الشأن العام"، ذلك أخف، ففعل "دنيا" "الشخص" الذي حاول الإندساس لتخريب التنظيم السري وكُشِف، سيكون أقل وقعاً من دنيا "حواء" التي أرادت تكرار

فعل جدتها فخدعته. ورغم أنه لم يكن متأكداً من إقتناع "طارق" بما قصه عليه، الا أنه شعر بنوع خفيف من الرضا عن الذات. لقد بدا هجومه المعاكس..وسيستمر..

لم تمض شهور قليلة على الحادثة، حتى سمع من خلال إشارات متقطعة الخبر المريع عن رحيل أخته "زهور" بعد إختطافها ثم إختطاف خطيبها. هذا هو أول آثار تخريب الخائنة. هي تضرب إذن "هناك" بكل قوتها ولؤمها وليس بإمكانه أن يرد على عبثها، ما أوجع هذا؟ بينت ميكانيكية وصول الخبر متقطعاً على دفعات، أن طريقة إيصاله هي أيضاً من إبداع "دنيا"، كانت كمن لايكتفي بطعنة واحدة قاتلة، بل بطعنات متوالية. كانت تروم أن تسمم حياته بالتدريج، فكان الخبر يقطع في كل جزء منه، شيئاً من مساحة الفرح المتبقية في نفسه، وهي مساحة بدأت تضيق شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق منها الا ما يذكّره بطفولته الأولى. إنتهى بذلك زمن الرومانسية الى غير عودة!

أم صعاب

"كانتا إمرأتين، واحدة حطمته، وثانية لمّت الحطام لتعيد بناءه من جديد.."

الرجل المسن جار الطفولة، الذي تشبه ملامح وجهه المحفور بالأخاديد صورة بحار في قصة كلاسيكية خيالية، كان أكثر مواسيه حضوراً. رآه يتكرر مراراً في أحلام يقظته ونومه. تذكر ما قاله ذات مرة وهو صبي، عندما نظر بوجهه و ربت على كتفه:

– إذا نويت الابحار عليك أن لا تتعجل، إرفع رأسك قليلاً الى السماء، غالباً ما تكشف العاصفة عن نفسها بوقت مبكر لمن يريد معرفتها.

تسائل مع نفسه: من أين يأتي الشيوخ بالحكمة؟ كان الشيخ يتحسس جرحاً قديماً، نعم أنها حكمة، فبعد أن قلب "وائل" أيامه السالفات، تذكر، بعد أن زال عنه خدر لحظة الطعنة، أن هناك من حاول تنبيهه للعاصفة، لكنه لم يسمع! لقد فاته أن ينتبه لزحف العقرب قبل أن تلسعه، رغم وجود من حاول تنبيهه لذلك. كشفت العاصفة عن نفسها لكنه كان غافياً. تذكر فيما بعد بخجل، آخر نزهة قبل أن تختفي، عندما تجرأ للمرة الأولى وإصطحبها معه لإحتفال خيري اقامته الواجهة العلنية لحركة "فدائيون"، تذكر كيف وقفت فجأة مصعوقة ملتصقة به:

– حبيبي لحظة! هل تعرف تلك المرأة الواقفة قبالتنا؟

– من تقصدين؟ تلك الطويلة؟

– كلا، الواقفة برفقة الرجل تحت الثريا، تلك الشقراء الممتلئة التي تنظر الينا الآن!

– كيف لا أعرفها؟ هذه "أم صعاب" مناضلة عريقة هل تعرفينها؟ يبدو أنها أيضاً تعرفك، لاحظتُ منذ دخولنا أنك لفت إنتباهها، تعالي أعرفك عليها من جديد!

عندها قفزت"دنيا" مبتعدة عنه بفزع:

– لا، لا، أرجوك لاداع لذلك!

لم ينتبه لمعنى أن المرأتين قد تحاشتا بعضهما بإصرار، فأم صعاب سرعان ما توارت عن الأنظار مع من كان معها، و"دنيا" رفضت بحزم فكرة التعارف معها! وقتها لم يشك بشيء، تصورَ "دنيا" خائفة من التعرف على إمرأة سياسية معروفة، ولم يثر إنتباهه شيء غير هذا. غطى على هذه الواقعة أيضاً، التكليف العاجل الذي وصله أثناء هذه الحفلة، بضرورة تجنب العودة الى شقته لفترة لاتقل عن خمس ساعات، وتسليم مفتاحها للتنظيم لحاجته الطارئة لها. ربط ذلك بموضوع مغادرة " أم صعاب" السريعة مع من معها، فتخيل إجتماعاً على درجة كبيرة من الآنية والسرية والخطورة، سيجري في شقته بحضورها وذلك كان سبب إستعجالها وتركها القاعة. أما الرجل المرافق لأم صعاب فقد كان ذاته الذي زاره فيما بعد في غرفته ليبلغه بمحتوى " التقرير السري"! هو الرجل الجرانيتي. لم يشك "وائل" ذو المواهب التنظيمية حينها بشيء، حتى بعد أن عادا الى البيت بعد منتصف الليل، وأمطرته" دنيا" بالأسئلة الهادئة المتفحصة عن "أم صعاب"، إسمها الحقيقي، منذ متى

يعرفها، مدى عمق علاقته بها، أحوالها العائلية، وطبيعة علاقتها مع الشخص الواقف بجانبها. كل هذه الأسئلة التي عرفت "دنيا" كيف تدحرجها بهدوء، لم تثر شكوكه بشيء! عمى العشق لم يمكّنه من تفسير هذه الواقعة الواضحة التي لم تثر فيه تساؤلاً كان ضرورياً وقتها وهو: ما الذي أدهشها في "أم صعاب؟" هل كانت تعرفها من الوطن؟ هل رأتها في مكان ما؟ هل كانت تخشاها؟ ولماذا إستغربت "أم صعاب" وجودها في تلك الأمسية؟ ما الصلة بين الإثنتين؟ لم يكن آنذاك قادراً على إستخلاص معنى الحدث، أما الآن فهو يحس بالخجل لأن أي طفل، "غير عاشق"، كان سيتوصل الى الإستنتاج المنطقي، وهو وجود سر أخفته "دنيا" عنه. سر خطير يخصها وتعرفه "أم صعاب"، ورجل " التقرير السري" الذي كان يرافقها. ذلك كان سبب فزعها منها حين رأتها. أكثر من ذلك، هو لم ينتبه بعد ذلك المساء الى الصلة بين توعك الخائنة المفاجئ، ثم مغادرتها باريس على غير تخطيط، بالحادثة نفسها. لم يتمكن من ربط خيوط الأحداث، حتى زارته "أم صعاب" بعد فترة من تبليغه بالخبر المشين لتشد من عزمه ولتهنئه على تماسكه أمام صدمة فقدان رجل لأمرأة كان يظنها حبيبة، ثم إكتشفها جاسوسة خائنة!

في ذلك اليوم، عرف عظمة ثورة فيها "أم صعاب"، شرف الانتماء لحركة ثورية يقظة يعطيها هو كل ما يملك، لتبقى هي ساهرة، لكي لا يقع أمثاله بأفخاخ "دنيا" ومن ماثلها!

كانت "أم صعاب" إمرأة شقراء ممتلئة، يصعب حتى على الخبير تقدير عمرها فهي يمكن أن تكون في منتصف الثلاثينيات أو نهاية الأربعينيات. قبل أن تصل فرنسا لتكوّن عشها الموسمي، تنقلت بين دول أوربية عدة وبقيت محاطة

بهالة من ضباب قاتم لا يُعرف عنها الا القليل، وهذا القليل هو إسمها المستعار، وسمعتها كمناضلة متمرسة، وهو ما عزز الثقة بجسامة وخطورة مهامها. لا أحد يمكنه بالضبط تأكيد ماشاع من أنها متزوجة، ولديها ثلاثة أطفال مستقرون في عاصمة ما، مطلقة، أرملة شهيد. ثمة من ينفي كل هذا ويصر على أنها مناضلة قد إمتهنت الكفاح الصعب، ولم يكن في أولوياتها في أي يوم أن تؤسس أسرة. ربما كانت مثله، عندما كان منغمراً بالعام ولاخاص له. شيء واحد بقي غير قابل للجدل، هو أنها أمرأة ذات نفوذ وتأثير أينما حلت، وقد إستغلت كل نفوذها لكي تنهض "وائل" من كبوته، فكانت تبرهن له بين فترة وأخرى على إستمرار وقوفها معه. كانت إمرأة عظيمة، لم تتوجس منه بعد الحادث مثلما فعل آخرون، بل إقتربت منه تدريجياً حتى تعوّد رؤيتها كصديقة شخصية له. هذا بحد ذاته كسب هائل، فالمعروفون والمتميزون والموثوق بهم الى أقصى حد، هم فقط من يطمع بصداقة شخصية مع رمز مثل "أم صعاب"، وهؤلاء المحظوظون، كانوا غالباً أكبر سناً وتجربة منه. فيما بعد، أحس من خلال أحاديثه معها أنها تعرف الكثير عن الجاسوسة، ولربما كانت منشغلة بمتابعتها لفترة طويلة، لكنه كان ما يزال مترنحاً فلم يفطن في الوقت المناسب الى مغزى سؤالها:

– هل إنتهيت منها؟ هل أحصيت كل خسائرك؟

بعد صمت قصير أجاب:

– خسائري؟ أنا لم أخسر الا علاقة بأمرأة غادرة..وهذا بحد ذاته كسب!

بعد يومين، أدرك ما عنت "أم صعاب" بإحصاء الخسائر!

كان منشغلاً بعملية نقل اثاث شقته الى الغرفة القصية التي إستأجرها في بيت يقطنه أربعة من معارفه، منهمكاً بإزالة آخر ما تبقى من آثار مادية للخيانة، مما سقط خلف الطاولة من نوتات الموسيقى، بقايا أصباغ الأظافر، وأقلام رسم الحواجب، والمنسيات من جوارب غير مستخدمة، ونظارات، ودبابيس الشعر، عندما قفز صارخاً فجأة كما لو أن مسماراً قد إنغرز بخاصرته: سُرقت محتويات القاصة! إختفى كل ما بها!

لم يجد أي شيء في القاصة التي كانت "دنيا" تضع عادة علبة زينتها عليها!

كانت القاصة الفولاذية التي يخبئ بجوفها كل ما هو مهم وغال، ولا يفتحها الا مرة أو مرتين في العام، تحوي ما يقارب السبعة آلاف دولار هي كل ملكيته، إضافة الى أوراق سرية، ومقتنيات غير الفلوس، تخص نشاطات التنظيم. سُرقت القاصة، ولم تكن الفلوس المسروقة هي ما أصاب رأسه بالدوار، بل الأوراق الخاصة بأسماء المتبرعين، وتقارير النشاطات السرية في الداخل، والساعة الذهبية التي أهداها أحد الوزراء لجده الجندي وإنتقلت اليه، سرقتها النذلة!

"نعم هذه هي واحدة من خسائري، ولربما ليست آخرها..آه لو أنني ظفرت بها الآن، الآن في هذه اللحظة!"

تمتم مع نفسه بحرقة من خُدع! منذ تلك اللحظة أدرك أن معركته مع الخائنة، معركة مفتوحة الآفاق، إن كان لها أن تنته، فلابد أن تنتهي بانتهاء أحدهما أو كليهما معاً. لكن ما أربكه أكثر، هو تسرب خبر ضياع فلوس التنظيم والأوراق السرية للآخرين، وكانت "أم صعاب" من بين هؤلاء الآخرين! كيف

تسرب الخبر لها وهو لم يبح به لأحد؟ لابد أن يكون مصدر الإشاعة " دنيا" ذاتها. هي من سرق وهي من سرّب و أشاع الخبر. هي تروم سحقه نهائياً. لقد تمكنت من إرسال إشارة ما الى التنظيم، إشارة تفيد بضياع الأوراق والأموال بقصد توجيه الأنظار اليه، وإتهامه بالإهمال وربما بالضلوع بالتنسيق معها! وذلك ما حصل بعد أقل من أسبوع عندما أبلغ بتجميد عضويته!

تذكر وشعور بالعجز يجتاحه حكاية الحقيبة والصيغة الذهبية التي أرادت الماكرة من خلالها ربما صرف إنتباهه عن مقاصدها، هل تراها غافلته في ذات اليوم وأفرغت القاصة؟ وماذا لو كان وافقها على مشروع وضع صيغتها وجواهرها في شقته؟ أم أنها كانت تعرف مقدماً أنه لن يوافق؟ ربما كانت ستسرق مصوغاتها بنفسها لكي تكبله بقيود الشعور بالذنب وتحمله بهدوء على الرضوخ لمشيئتها..

بمرور الزمن، تعرضت التربة التي يقف عليها "وائل" للتآكل، وتهاوى ما بناه عبر السنين. أمرّ الفقدانات كان فقدان "طارق زيدان" صديقه المخرج السينمائي الذي كان أقرب الجميع لنفسه. كان" طارق"، لسوء الحظ، الصديق الوحيد المشترك مع "دنيا"، والوحيد المطلع على تفاصيل علاقتهما الطويلة، و الذي علم بدقائق إنهيارها، وفزع من ضخامة وخساسة الخدعة التي مررتها. لهذا السبب بالذات، لتعذر الفصل بين "طارق" والذكرى المريرة، وللحرج الذي كان يعصف بوائل، بعد مرور وقت طويل على إطلاق تهديده بالإقتصاص من "دنيا" دون تنفيذ، إنقطعت صلتهما باصرار من "وائل" نفسه. كان هذا القرار أحد أكثر قراراته إيلاماً لنفسه، لكن الصدفة ساعدته عندما إنتقل "طارق" فيما بعد للعمل بين الخليج و"مرسيليا" فسهل ذلك عليه تدريجياً قطع آخر

الحبال التي تشده له. المرأة هي كل شيء، المعمّر والمخرب، المصافي والمجافي! اللعنة، كم كان أحمقاً عندما أسلم كل عدته لإمرأة! ولكن إنتبه يا " وائل": "أم صعاب" أيضاً إمرأة. كانتا إمرأتين واحدة حطمته وثانية لمت الحطام لتعيد بناءه من جديد..ورغم أن مسار حياته إستقام تدريجياً، لكن وزنه أمام نفسه لم يعد لسابق عهده. لم يكن يدرك سر ذلك الأحساس بالفراغ الذي كان يسلبه إتزانه وثقته بنفسه. هل هو إحساس المغدور عندما لا يجد سبيلاً للرد على من غدر به؟ أم أن شيئاً منه قد فقد فجأة؟ شيء كان قد نما بجوفه ومات فجأة؟ يا للحب من فعل مذّل، هذا ما كان يعذبه، ويدفع به لسلوك أي سبيل للظفر بها وتسديد ضربته القاضية لها. أراد أن يتتبعها بخطى ذئب. باحتراس وخفة وصبر، لكن ليس بعد وقوع الواقعة مباشرة. وقتها قال لنفسه، الآن هي مستعدة لتلافي ضربته، سيضرب فيما بعد، حين تصل الى مرحلة الاستقرار وقطف الثمار، سيظهر لها كعفريت من حيث لا تتوقع، سيحرمها لذة قطف الثمرة أثناء إمتداد يدها لقطفها. كانت سُحُب الإنتقام تتكاثف ببطئ في أعماقه ليجعلها تمطر مطراً أحمر في وقت قادم، لكن مابقي يحيره ويزيده إحساساً بإنزلاق الزمن من بين يديه أنه كلما شرع بتنفيذ خطة بدت له محكمة جاءه الخبر: لم يتمكن أحد من معرفة شيء عنها أو من تحديد مكانها. خطة الحرب، تبدأ عادة بتحديد عوامل المكان والزمان، فأين هو مكان العدو؟ كل خطة فاشلة كانت تثير في نفسه حنقاً يمسك بخوانيقه، وكانت قناعته تزداد أنها تدرك حجم جريمتها فأستعدت لردود فعله منذ زمن مبكر، يتخيلها تضحك منه مستهزئة بخططة الفاشلة فيزداد حنقاً. بدأ مرور الزمن يجبره على الإعتراف بعجزه عن اللحاق بها، ليس دائماً بل حين يكون المكان خالياً، مثلاً عندما يكون الجميع نياماً، في الساعة الثالثة والربع بعد منتصف الليل، عندما

يداخل المرء إحساس أن كل مخلوقات الأرض نائمة، فيكون بمقدوره الهمس الخفيض للغاية لنفسه وسماعها دون تطفل من أحد، لم يعد بمقدوره إدامة الثقة بنفسه أنه سيفلح في الإنتقام منها. وعندما كان يحاول إقناع نفسه بمحدودية مسؤوليته عما حدث، عائداً لاولى لحظات اللقاء، كان لديه ما يجعله يشك بأن خطة قد رسمت قبل علاقته معها، سهّلت وصول الأمر الى ما وصل اليه. ربما رتب له أحد ما خفية، لكي يلتقيها في ذلك اليوم الحار ببيروت، نعم ليس هناك أكثر فتكاً من إمرأة فاتنة لإقتحام قلاع مناضل ثوري. الم تلتفت هي ناحيته وتبتسم؟ هناك من أوعز لها بإعتراض طريقه! هناك من خطط لكي تدخل المطعم، وتنظر له تلك النظرة المتأملة ثم تجلس قريباً منه، هناك من أوعز لها بالقاء شبكتها في اللحظة المناسبة. لقد كانت جاسوسة عرفت كيف توقت إقامتها، فنسجت خطتها ببراعة منقطعة النظير، كيف يمكن أن يكونا من سكان مدينة أوربية واحدة، ويلتقيان عبر البحار دون أن يعرفا بعضهما؟ كان يميل الى هذا الرأي، أكثر من ميله الى أن جهة ما جندتها للتجسس على التنظيم بعد إستتباب علاقتها به. ولكنه عندما كان يجمع شظايا حياتهما المشتركة، ويعيد تركيبها، كان يفشل في التوصل الى مكان الثغرة التي أحدثتها في دفاعاته، كيف تسللت؟ ومن أين لها تلك الثقة الهائلة بنفسها وبنجاح مسعاها؟ لماذا لم تخف من أن يكشفها؟ شيء ما بقي غامضاً ولكن ماهو؟ ربما كانت مكلفة باختطافه وشحنه عبر السفارة لكن فرصتها لم تحن..هذه كلها تخمينات ولكن، الآن وقد كُشفت فهي لاشك لن تكتف بما حققته. لقد تحولت المعركة بينهما الى مجابهة مكشوفة..سيستند الى حليفته "أم صعاب" فهي الجدار الوحيد الذي منعه من التهاوي مترنحاً تحت وطأة الضربات المتلاحقة. هي قررت المضي معه حتى إستعادة كامل

لياقته الإجتماعية التي تضررت. في زياراتها المتكررة له، عرفت كيف تزيل كل الحواجز التي قد تمنع قبوله لها كصديقة موثوقة! شرعت بهندسته من جديد، وكان هو يتقبل مشروعها بإمتنان، عندما تسرب تجربتها الحياتية اليه على مراحل، كل يوم تأتيه بحكاية، كي يصفّها الى جانب الحكايات الأخرى المحملة بالحكمة الثورية، ويؤسس عليها حياته الجديدة. وعندما القى بما تبقى من حبه القديم الى موقع ما من دماغه أشبه بالمدفنة، حاول بمساعدتها قبل كل شيء ترشيد جموحه العاطفي والحياتي، ورسم منهج لحياة أقل رومانسية. عليه أن يصنع من نفسه شيئاً جديداً. هو الحالم سيُستبدل بوائل الواقعي. "وائل" الذي كان ينام قليلاً ويقرأ كثيراً من الشعر، يتوجب الآن أن ينام كثيراً ويقرأ قليلاً من الشعر، هو الذي كان يحكي لضيوفه قصصاً كأنها من الخيال وهو ينظر للبعيد، عليه الآن أن يحدق بعيون محدثه، ويختصر الجمل الى أقل مدى ممكن. حتى فيروز عليه البحث عن بديل لها. شخص آخر لزمان آخر. لا جولات تحت المطر. لا ضياع في الغابات. لا نهوض قبل الفجر وتتبع آثار البجعات في البحيرة. لا تسمّر في الشرفة كالرهبان لترقب إنبثاق أول شعاع للشمس. تلك الأفعال كلها كانت من تراث حياته السابقة، كل ما كان يحبه كان مرتبطاً بها، عليه الآن تغيير ماكان يحبه، هذا هو الأمر ببساطة. عليه إيجاد ظواهر جديدة، طقوس مستحدثة، نمط حياة مختلف تماماً عما كان يتبعه. إحتاج عامين لكي يصفي حياته من بقايا سمومها، كانت "أم صعاب" تزوره خلالها بلا إنقطاع، تجلس على كرسي خاص في غرفته، وتطلب منه غالباً قراءة ماكتب. أول مرة، تناولت دفتره الذي يدون به مشاريع قصائدة الفرنسية المترجمة للعربية، وبعض ما ينوي كتابته، كأنما كانت تعرف أن روحه الرومانسية تختبئ بين طيات هذا الدفتر سألت:

– هل تسمح لي؟

ولم تنتظر منه جواباً على سؤالها، إمتدت يدها الى الدفتر وبدأت تصفّحه، شيء ما أزعجها فقالت:

– على الثوري أن يقلل من رومانسيته، فأمرأة ساقطة واحدة قد تطيح ببناء سنين!

لفظت "أم صعاب" جملتها وعيونها توجه له تقريعاً حارقاً، وقعت كلمة "ساقطة" على رأسه مثل ثمرة قرع ثقيلة تسقط وتقفز الى أعلى، لتسقط ثانية فتجبره على مط شفتيه ألماً بما يشبه الإبتسامة. لفحته حرارة عينيها الصقريتين توجهان للورقة وله سيلاً من نار. كان دفتره هذا أكثر دفاتره خصوصية، فهو كما ورشة فنان مليئة بالآلات والأجهزة ومواد العمل الخام التي لم تتحول بعد الى أي شيء جديد، قصاصات من ترجمات غير مكتملة، ومحاولات تجريب إيقاعات مبتكرة لم تكن قد أخذت شكلها النهائي، لكل هذا أحس بالحرج مثل من يُسترق النظر اليه وهو بالحمام.

توقفتْ "أم صعاب"عند قصيدة كتبها "وائل" بالفرنسية ثم ترجمها للعربية وهي لم تزل بصيغتها الأولى:

"حين يأتيك نعيي يا امرأة، ذات خريف ماطر كئيب، أعرف أني راحل، بمفردي بليله الرتيب، لاتشغلي نفسك عني ببكاء، لا، ولا ببعض ورد ذائب في الماء،لا، إنتظري حلول ليله الشفيف.."

لم تُكمل قراءة القصيدة، حوَطَت السطور التي قرأتها بدائرة بقلمها وبعصبية واضحة تابعت تقليب الأوراق:

"عجباً عجبي، من ليل يتثائب في أوصالي، من ديك يصدح في حجرة رأسي العارية، ظلي يقعي فوقي فانهض من تحتي مدهوشاً، عجبي من صيّرني تحتي؟ كيف جلست على نفسي، من سورني بيأسي؟ كيف أقمت قروناً في بارقة شهاب؟ وكيف إمتدت فأس الهدم لكفيّ ولم ادر؟ عجباً عجبي"

وخطت دائرة ثانية حول السطور، سجنت الأبيات داخلها مثل سابقتها ومضت الى صفحة أخرى:

"في درب يوصد بالليل وبالقضبان، لا تسأل من أين تجئ الطعنة بعد الان"

وكذلك:"افضيت اليك بسري، لا يستر قلب العصفور سوى قفص.."

كل هذه المقاطع المتناثرة غير المكتملة لم تعجبها، فأشرت عليها بخط أحمر ثم توجهت الى الأوراق برأسها وقالت تخاطبه دون أن تنظر اليه:

– هل تسمح لي؟

ودون أن تنتظر جواباً هذه المرة أيضاً، إقتلعت الأوراق التي أشرتها من دفتره القديم ورقة أثر ورقة ومزقتها قطعاً صغيرة.

– ما هذا التشاؤم؟ ما هذا الضعف؟ أنت الذي أرعب سجانيه، تكتب بميوعة؟ لذلك خدعتك تلك..

جفت حنجرته. مشاعر مختلطة من إنزعاج، ومهانة، وتضاؤل، وضعف، أخرسته فلم ينبس بحرف. هي تلقنه كل يوم درساً جديداً، تروم بكل السبل أن تعيد له توازنه، وتخلصه من مستنقع الأحزان الذي إمتصه حتى أنه شعر بالخزي من نفسه. لقد إقترف خطأ جسيماً ولابد من دفع ثمنه، نعم هو يستحق بجدارة أن يُقرّع. لم يجد ما يرد به على إمرأة تمزق ما كتب، وتعيّره بموت مجساته فلا تميز بين المرأة الوضيعة وغيرها. هي عرفت كيف تتتبع بداية المنزلق، عرفت أن كبوته سببها رومانسيته الطائرة، فهو لم يكن يمشي على الأرض، كان طائراً وها هي بخبرتها تقوده بهدوء للهبوط على الأرض بسلام. كانت تعرف كيف تختار أوقات زياراتها له، كأم تراقب طفلها وهو يتدرب على خطواته الأولى، تراقبه من بعيد وما أن يقترب من منطقة الخطر حتى تهرع لنجدته. يتذكر يوماً شتائياً، وقد حجبت الشمس بجبال من الغيم الرمادي المقرور الكثيف، كان يومها يترقب حدوث العاصفة الثلجية التي أعلنوا قبل ليلتين عن قدومها فلم يبارح المنزل. أوقد الموقد، ورتب الغرفة بما يليق بيوم شتائي كئيب، أسدل الستائر لكي يتجنب النظر للسماء الرمادية وأسراب الطيور المهاجرة التي يشعره نحيبها بالأسى، وأوقد ثلاث شموع كبيرة. أنهى نهاره بإرتداء البيجاما وإندس في فراشه متمتعاً بقراءة أشعار" فيكتور هوغو" المبكرة، لكن، بعد أقل من نصف ساعة رن جرس الباب بدون توقع. أراد أن لا يفتح لكن الرنين إستغاث ملحاحاً كأنما يروم الإحتماء بدفء غرفته، سارع بلف الروب على نفسه بعجاله، وفتح الباب موارباً ليفاجأ بأم صعاب واقفة على بابه وقد التفت بمعطفها الأزرق الغامق، والبرد يكاد يجمد ماء عينيها. شعر بالحرج فقال متلعثماً:

– عذراً أنا لا زلت بملابس البيت، لحظة، سأغير ملابسي حالاً!

إندفعت هي الى الرواق وأغلقت الباب وسحبته من كمه:

– لا، لا تفعل، لا أريد أن أضايقك، أود أن أراك على طبيعتك وبدون إستعداد مسبق، لذلك لم أعلمك بزيارتي!

ثم بغتة وكأنها تفاجأت بعتمة الغرفة المرتبة المضاءة بالشموع، قالت بصوت مشوب بضحكة خفيفة وعيناها تضيقان:

– هل تنتظر أحداً؟

ضاقت عيناها الى حد إكتسبت عنده ملامحها شكل إمرأة أخرى، لاعلاقة لها بأم صعاب، أراد أن يزيل الحرج عنها وعن نفسه فقال ضاحكاً بدون إستعداد:

– أنتظر أحداً؟ نعم، أنا أنتظرك!

إقتربت منه ووقفت قبالته وهي تثبت عينيها اللامعتين بعينيه:

– تنتظرني؟ حقاً؟

لم يدر كيف يتصرف هل سيقفل الباب خشية أن يراه أحد ما بروب الحمام مع إمرأة، أم يتركه لكي يبرهن على براءة وجودها معه؟ لم تمنحه "أم صعاب" فرصة التصرف فسحبته من كمه ثانية وأجلسته قبالتها:

– أتعرف لمذا جئت اليك دون إعلام؟ وفي هذا اليوم؟ أنا خفت عليك من العتمة والبرد. خفت أن تعود لذكراها، إبدأ من جديد، ألغها من ذاكرتك تماماً، حاول أن لا تتذكر يوم تعرفك بها، أمسحه من ذاكرتك..

بوغت بهذا السبب الغريب لكنه إكتفى بهز رأسه موافقاً، محاولاً تغيير وجهة الحديثعن الموضوع الذي كان يؤلمه، لكن "أم صعاب" كأي جرّاح ماهر لم يكن يهمها ما تتسبب به من ألم للمريض، كان العلاج هو ما يدفعها للمضي بعملها وما يوجه مسار حركتها، عليها أن تواصل مساعيها الى أن تعيد العافية له. الألم لايهم، المهم أن تخرج الرصاصة من قلب المصاب!

مضت في كلامها:

– قارن بين إنسان يعطي حياته من أجل الآخرين وآخر يكرس حياته للعب بحياة الآخرين.

ولكي يقطع الطريق عليها فتكف عن تذكيره بذلك الطاعون، أي لكي يقطع هو بنفسه الطريق على آلامه، توجه الى النافذة لإشغال نفسه بإزاحة الستارة ومعاينة السماء العاصفة، و كان الثلج عندها قد بدأ بالهطول ندفاً تائهة في الهواء أول الأمر ثم إنتظم. لابد له من بث إشارة واضحة بإتجاه "أم صعاب" تفيد بنسيانه قصته مع تلك نهائياً. لابد لها من الكف عن اللعب بجراحه كل مرة! فقال لها وهو يتجه لملئ ركوة القهوة كي يتجنب لهيب عينيها:

–"أم صعاب"، إسمعيني، لا تتصوري أن ذكراها ستهزمني، وحتى تتأكدين من ذلك سأفاجئك وأقول لك: كلما طرأت هي على بالي، حلت محلها صورتك تلقائياً، ربما لأنك نقيضها الأخلاقي، لا تتصوري انني سأترك ذاك الذي سبب متاعبي حراً، أنت تعرفين تراثي في التحري والإنتقام!

لاحظ أنه قد لامس بمداخلته القصيرة تلك أكثر أوتار عواطفها حساسية، فإحمر خداها بغتة، ثم تقدمت نحوه بارتباك والقت بذراعيها على كتفيه وطوقته

بقوة وكان إبريق القهوة مازال في يده فشعر لأول مرة مندهشاً بان لها صدر كأية أنثى!..كانت الأنوثة هي الخاصية الوحيدة في شخصيتها التي لم يلتفت لها من قبل. هو كان ينظر لأم صعاب ككائن ثوري لا هو رجل ولا إمرأة. كائن مختص بصياغة الخطابات المجلجلة وبالإقتصاص من العابثين بمصائر الناس. كائن قادر على التضحية بلاحدود من أجل الآخرين. إلتصقت به حتى أحس بقلبها يدق بعنف، فيما نفثت شفتاها على رقبته أنفاسها الحارة. لم يعرف كيفية التعامل معها فأرتبك. بقيت هي لحظات ترتجف وتشهق بين يديه، نظرت بعينيه وشفتاها ترتجفان، كأنها أرادت قول شيء إستعصى عليها قوله، لاشك أنها حاولت إطلاق كلمات إنحشرت في حنجرتها وهي في طريقها اليه. كان هو في هذه الأثناء قد بلغ غاية الإرتباك والحيرة، يروم التحرر من بين ذراعيها اللتين كانتا تعصرانه بقوة كأنما لم تكن بارادتها. خاف أن يكون مايراه عرضاً لصَرَع تعانيه فلم يعرف كيفية التعامل مع إنفعالها الذي خلخل هيكل لياقته، فأي داخل لغرفته، التي لم يشأ إحتراماً لها أن يقفلها، سوف لن يحار بتفسير مايراه: إمرأة ترتجف وتختض بين يديّ رجل يمسح على رأسها! وما أدرى هذا المشاهد أن هذه ليست إمرأة كباقي النساء؟ عندما حاول فك إشتباك ذراعيها عن كتفيه، نكست هي عينيها كأنها سألته شيئاً لم تجده لديه. لم يدرك ما سببّ إثارته لمواجعها، لقد تكلم باندفاع لكي يقنعها بنسيانه إمرأة حاولت الإطاحة به، ويحافظ على قدر من مكانته لديها فلا تحسبه مازال باكياً على الأطلال، لكنه شعر أنه أوجعها. ربما ذكرها بحادث منسي وعليه أن يعتذر مما سببه من إحراج وإنفعال شديدين لها، لكنها كانت أسرع منه، عالجت الموضوع بأن التقطت حقيبتها المصنوعة من جلد النمر، ومضت خارجة صافقة الباب وراءها دون أن تنظر اليه لتضيع في

لجة العاصفة. بعد تلك الحالة القريبة من الغيبوبة التي إنتابتها في غرفته، عمدت "ام صعاب" الى التقليل من اللقاء به ففسر ذلك بأنها راضية عن ما بلغه من نضج. وعندما بدأت سحب الإحتجاج الطلابي بالتجمع في سماء باريس، إستقبلتها أجنحته المتكسرة بأن جمعت كل ما تبقى لها من قوة، لكي تحاول التحليق ثانية فوق السحاب، في سماء الثورة. كانت "أم صعاب" مثاله. هو يريد الوصول الى مستوى إيمانها بالثورة وإندماجها بها. حاول إستعادة لياقته الثورية، وإستعراض مهاراته التنظيمية والقيادية فأنخرط في صفوف المحتجين، راسماً الخطط للوصول بالاحتجاج الى غايته القصوى، وهي حمل الحكومة على الإقلاع عن خططها المسماة باصلاح الجامعات. بادر للاتصال بتجمعات الطلبة العرب وطلبة أمريكا اللاتينية وهم الثوريون بالوراثة، والحديث معهم بشأن تصعيد الاحتجاجات. كان تصرفه فردياً دون تنسيق أو تكليف أو مشاورة مع أحد، وكان يروم تبليغ " أم صعاب" رسالته: "ها أنا ذا أمامك، وليس الذي ترينه من خلال قصائدة الرومانسية. دعاها، من خلال التنظيم، للمشاركة في المسيرة، طالباً منها تصدر الصف الأول بما يتناسب مع مكانتها، هادفاً من ذاك أن تراقب حركته، وتلتفت الى عافيته الثورية، وقد عادت اليه. لكن التنظيم السري، الذي بقي متوجساً منه لم يرد عليه، رغم أنه خلع ثياب الرومانسي، ثم قصقص ريش أجنحته التي كان يحلق بها عالياً، ورضي مسحوقاً تحت ثقل هزيمته العاطفية بان يغادر معظم منطلقاته ومسلماته التي بدأ الحياة منها. بعد فترة قصيرة عرف الحقيقة. سمع بمغادرة "أم صعاب" فرنسا فجأة الى جهة غير معلومة، وكأن الحياة تصر على حرمانه من التمتع بقرب من يفهمه. لا يعرف، ربما غادرت لإستلام مهام قيادية أكثر شأناً في الداخل، لكنها تركت خلفها في نفسه أثراً لايمحى. شعر

كمن فقد حنان الأم وسلطتها، حمايتها، وسيطرتها، وإشرافها على إتجاه حركته. كسب واحد كسبه هو أنها قبل أن تغادر قد محت إسمه من سجل المشكوك بهم، فعاد ولكن بإحساس سكين أكل نصلها الصدأ!

سابين

بعد أن وقعت الواقعة، وخرج "وائل" من بين السنة اللهب عارياً بجلده تحت أنظار المارة، جرّب بعد أن تطهر تماماً، أن يصنع موديلاً لإمرأة "سيحبها". إمرأة جديدة فيها كل ما كان تكرهه "تلك"! وضمن نتائج تلك المرحلة من إعادة برمجة مسار الحياة، أكمل دراسته العليا، ثم أحب "سابين هوفمان" الشقراء، وبعد قرابة شهر تزوجا. تخلى عن فكرته الأولى التي كان يسخر بها من الأجانب المرتبطين بفرنسيات، التي كان رد بها على "طارق" ومشروعه الزواج من زميلته الفرنسية: "قل الحاجة ولا تقل الحب، كيف تجسر الهوة السحيقة بين الشرق والغرب ببضع مئات من المفردات؟"

كل شيء في الحياة قابل للتغيير ! كانت "سابين" فتاة من جيل الثورة والتمرد، الجيل الحالم بعالم واحد يقفز حواجز اللغات، والقوميات، والديانات. كانت تعتقد أن هذا العالم المنشود، قد بدأ بالتشكل نتيجة حركة إختلاط الشعوب وهي ترى يومياً أن أكثر من نصف زملائها في الدراسة، هم من سكان قارات أخرى. ولم تكن تنتظر من "وائل"، وهو يتقدم باتجاهها سوى أن يحمل معه من ذخيرة اللغة ما يمكنهما من التفاهم، وفيما عدا ذلك، فكل شيء سيكون وفقاً لنظام الطبيعة التي خلقت جنساً واحداً أسمه الجنس البشري، ولم تخلق أجناساً حسب الديانات والقوميات. كانت ترى أن الديانات والقوميات والطوائف المختلفة كلها ظواهر مكتسبة نتيجة تقوقع الإنسان في محيط معين، ولو كان الإختلاط مثل ما هو عليه اليوم، لما أمكن وجود كل هذه اللغات والطوائف والأديان..إخلط الناس كلهم في قارة واحدة، وأزل الحدود بين مناطقهم،

ستجدهم يتكلمون بعد مئتي سنة لغة واحدة، وستجد ان سلالات جديدة من البشر ستولد، فيتنامي مطعم بالماني، وكندي بعربي، وهندي بنرويجي، وغيني بدنماركي، وبرازيلي بفرنسي..أووه ما أجمل هذا؟ المهم أن ينتج خلط الألوان في اللوحة المتشكلة من التقائهما لوناً جديداً، أن ينتج خلط الحار بالبارد خليطاً دافئاً. كانت هذه الآراء الإدماجية إنعكاساً طبيعياً لأصل "سابين" الهولندي البلجيكي من جهة الأب، والالماني الفرنسي من جهة الأم.

وبزواجه الناضج من "سابين" المتزنة، خط "وائل" أول سطور حياته العقلانية الجديدة التي أرادها أن تهيل التراب على ما مضى..رغم أنه لم يكن يخفي عن نفسه قلقه من سعيه لقولبة ذاته، وخوفه من ضمور أجنحته التي كان يطير بها عالياً. كان يلاحظ كيف جنح إيقاع حياته للرتابة والإحتراس من كل شيء. لكن..كفى، لاعودة للماضي، فما مضى..مضى، وعليه البدء من جديد.

أسرار "العوائل الملفّقة"

أعوام كثار مرت، القت بوائل الى شاطئ الخمسين المهجور، لا أحد ينتظر ولاطير يرفرف بجناحيه، ولا آثار على الرمل لعشاق رومانسيين. وقت طويل مر، طويل جداً، تغير خلاله العالم كله، ولكن سلالة النمور المتوحشة التي أجبرت "وائل" على التواري عن الأمكنة التي ولد ونشأ بها والكائنات التي عرفها، لم تبرح مكانها. كانت تعد جيلها الثالث كي يقود عهداً جديداً لانهاية له. وفجأة، على غير إنتظار هرب أكبر النمور ليتبعه الآخرون مثل حكاية تحكى للأطفال..نعم أخيراً جاء القطار بعد أن يأس منتظروه فغادر معظمهم المحطة تباعاً، لكنه جاء على كل حال وكان لابد لوائل أن يلحق بالقفز الى أحدى عرباته. قفز بخفة وسرية كي يلحق ماتبقى من ماض متهم يريد له أن لايهرب بجلده دون حساب، وإكتشف بسرعة أن الوقت لم يحن بعد، فعاد الى فرنسا. أما أصدقاء "وائل"، المنفيون الآخرون "ياسر" و "ماجد"، فهم لم يجربوا العودة للبلاد، لكنهم عادوا الى طفولتهم مثل من جذب من أكمامه من طرقات ليون" ليلقى به في أزقة الصبا. أيقظ الوضع الجديد الحنين الطاغي النائم في أعماقهم لفوضى الحياة الشرقية، ودفعهم الى التفكير ببرنامج شهري للسهر الرجالي فقط. الرجال الشرقيون بدون نسائهم الأوربيات. كان الرجال متلهفين لفكرة التحرر من قيود الأتكيت الأوربي، لالغاء سطوة النظام، والصرامة، والتخلي عن الإلتزام بالحدود بين الساعات، وإنتظام الوجبات، ومنع التدخين في الصالون، ومراعاة الحديث بالفرنسية، وتجنب الغناء بالعربية، وضرورة خفض الصوت، وإنتقاء الموضوعات التي تهم الجميع، والحيود عن ذكر الطرائف غير اللائقة، والمجئ في وقت مبكر، والانصراف بوقت مبكر، وعدم

نسيان وقت نزهة الكلب، ومراعاة مشاعر القطة. نعم سهرة للرجال وحدهم، كل شهر في بيت أحدهم، حين يكون البيت فارغاً الا منهم. وقد تطور المقترح لكي تكون السهرة مفتوحة، حتى إنبلاج الفجر. لسنين طوال لم يشعر أحد منهم بحاجته لمثل هذه السهرات العربية الخالصة، لكن منذ أولى اللحظات بعد أن إنقشع الظلام عن البلاد، وقبيل أن يبدأ ظلام جديد بالتشكل، بدأت الحياة تدب من جديد بالجذور المتيبسة التي كانت تربط "ياسر" و "ماجد" ببلدهما الأم العراق.

كانوا جميعهم قد تعدوا سن الخامسة والأربعين. تجاوز عدد سنوات عمر كل منهم في الغربة، سني حياته في وطنه الأم. ورغم تخطيهم السن التي تخشى عنده المرأة زوغان الرجل من بين يديها، بدأوا يشعرون بعيون نسائهم تلاحقهم. ليست عيونهن فقط، بل أن كل شيء فيهن بدأ يلاحق كل شيء فيهم. كن يلاحقنهم بفعل قوة خارجة عن إرادتهن على ما يبدو، قوة لم يكنَّ منتبهات لها هي قوة الإحساس بخطر الفقدان. بدأت النساء الآن تتيقظ لمعنى أن يكون لأزواجهن، وطن ثان غير هذا الذي حاولت كل منهنَّ أن يكون وطناً لها وله معاً. عموماً، لم تكن النساء لتولي الأمر أهمية قبل أن يتغير الوضع "هناك"، فكل رجل من رجالهن، كان يُعّد لفترة طويلة من بين الذين لا وطن لهم، أولئك المغضوب عليهم، الذين يطيلون من أمد دراستهم في أوربا عمداً، لأن تخرجهم سيعني فقدانهم شرعية الاقامة. ورغم أن العلاقة التي ربطت الرجال المبتعدين قسراً عن أوطانهم بنساء بلد المهجر، كانت بالأصل "عاطفية"، الا أن أياً منهم لم يكن بمقدوره تجنب إحساسٍ مؤلم، بأن إمرأته متفضلة عليه بزواجها منه ومنحه حق الإقامة. تغير الوضع الآن. لم يعد الوطن طارداً لأبناءه! كان ماجد يكرر أن "شانتال" تشعر بالخوف من أراءه الجديدة التي

لم تسمع بها من قبل: "كلما كبر المرء كلما عاد الى طفولته فحتى المغتربين الذين أمضوا أكثر من أنصاف أعمارهم في بلاد الغربة، وتطبعوا بعاداتها تراهم يعودون، حين يكبرون، الى تسمية الأشياء بمفردات لغتهم الأم"

أو رأيه الذي سمعته حين كانا يمضيان يوم السبت في مسبح المدينة: "الوطن طبيعي و الغربة مختلقة، الوطن كاللغة لايكتسب تلقائياً من المجتمع، بل له في كل إنسان إمتداد عضوي. مثلما لكل إنسان قلب لدفع الدم ورئة للتنفس هناك عضو عام لكنه مخفي إسمه عضو الوطن، لذلك يتعلم الطفل الصغير لغة أمه وأبيه أسرع مما يتعلم غريب متعلم كبير هذه اللغة"

"ماجد" يشعر كما لو كان كل منهما، هو و"شانتال" قد تغير. كلاهما بدا منهمكاً بحركة غامضة غير محسوسة، كل على طريقته. هو كان يبتعد عنها بفعل قوة مغناطيسية لاتقاوم وجدها تشده شرقاً، تعبر به البحار وتعيده الى مواطن طفولته الأولى وصباه، وهي كانت تجهد في اللحاق به ومحاولة جذبه من كمه بلطف، أو أحياناً إعتراض طريق عودته بفكرة:

– هذا الصيف يتوجب علينا تغيير سقف المرآب، يالها من مهمة ستستغرق على الأقل ثلاثة أسابيع!

فيرد:

– لا حاجة بنا لذلك، سنغيره العام القادم، سوف لن ينهار خلال عام!

قال " ياسر" مؤيداً:

– ذات الشيء تفعله "جانيت" معي. هي تجهد في إختلاق ما يعيق سفري الى الشرق! الشرق يخيفها لسبب أجهله. أمس إختلست النظر اليها وهي تتأمل صوراً لنساء عربيات في مجلة أزياء، رفعت رأسها اليّ فجأة وفي عينيها سحابة دمع لم تتكاثف بعد، وكأنها كانت تعرف تماماً أنني أراقبها، قالت:

– جميلة المرأة العربية ها؟

فطنت الى كمينها بالوقت المناسب فتجنبت التعثر به:

– الجميلات موجودات بكل مكان، في فرنسا وخارجها!

"جانيت" لم تكن هكذا من قبل. قبل شهرين أرادت أن تفاجئني على ما يبدو فصبغت شعرها أسود، دُهشت لأنها لم تفعل ذلك في أي وقت قبل الآن فصرخت بها:

–"جانيت" ماذا فعلت بنفسك؟

– الا يعجبك؟ كنت أعتقد أنك ستفرح!

إتضح لي إنها بدأت تستشعر الخطر القادم من الشرق. بدأت تنصت بارهاف لمكالماتي العربية، وكانت حين نجتمع بمفردنا تنهمك بتوجيه نظرات مركزة طويلة الى عينيّ دون كلام، كأنها تبحث هناك عن شيء مخفي. كنت لا أستطيع الجزم بالرد على نظرتها المتسائلة بنظرة تطمينية، لأنني وبصراحة لا أعرف ما الذي تغير بي.

"ماجد" يشعر الآن مثل شعور طفل عاد من حضن غريب الى حضن أمه. إكتشف أنه كان يعيش يومه في البصرة. حتى المفكرة الشهرية المعلقة على الجدار أبدلها بأخرى عربية، و" شانتال" تراقب تحولاته الهادئة بصمت. أحيانا

كانت تحاول تقبل تحولاته كقدر لابد من التسليم به، لكنها، كامرأة ذكية، لم تجرب كشف أوراقها أمامه. يتذكر كيف نمت العفاريت مرة في رأسه فمسه جنون التجريب، قال لنفسه سأفاجئها بسؤالها إن كانت سترافقني لو قررت العودة، لكنها فاجأته بالتحمس لذلك! عرف أن مصدر قلق "شانتال" هو ليس" هناك" كمكان، بل إحساسها الداخلي أن شيئاً ما ينقصها هي. ربما وعت الآن أن ذراعيها تفتقران الى قوة الجذب التي تجنبه الإنزلاق التدريجي من بين يديها، هي تعرف أنها كانت شقراء جذابة عند تعرفه عليها، وتعرف أن رجال الشرق يتهافتون على أمثالها لكنها تعرف، أو عرفت فيما بعد، أن ولع الشرقي بالشقراوات يشبه ولع طفل بلعبته الجديدة، لايدوم الا بمقدار كونها جديدة، وحتى متى سيبقى الجديد جديداً؟

يبدو من حديث الرجال، أن نسائهم الاوربيات، شعرن الآن ببرودة أعماقهن قياساً لدفء الشرق. هن يعرفن أن هذه البرودة ليست من صنعهن ولم تتولد بارادتهن ولا يمكنهن التحكم بها. ها أن الأمل في البقاء متمتعات بشمس الشرق الفياضة قد تلاشى، فزمان الحب مرق سريعاً وقد شارف الآن على نهايته وحان موعد العودة الى البيت القديم.

"وائل" هو الوحيد الذي وجد حاجة ملحة للإفصاح عن حقيقة ثبات حبه لسابين وتمسكها به دون خوف من أي منهما من منافس محتمل، لأنه لن يرض عنها بديلاً، بل أن فكرة البديل عنها فكرة مضحكة وغريبة لم تطرأ على باله أبداً. "سابين" لا تفكر مثل الأخريات، فلسفتها الخاصة بها التي سارت بموجبها هي فلسفة دمج الأضداد. نعم كانت تريد ربط الشمال بالجنوب،

وضع الحار لصق البارد لكي يتعادلا، فينتجا مخلوقاً دافئاً، هو "الشنوب"، يحمل من هذا وذاك.

قال "وائل" وهو ينظر للنافذة:

– لكن، إنتبهوا، فالمرأة الشرقية، بفعل مكانتها الدونية في المجتمع، إمرأة مشوهة، لا تحترم من يحترمها، هي عبد في قرارة نفسها، تعض الكف التي تطعمها وكائن مطبوع على الغدر..

إحتج "ياسر" و "ماجد" على هذا الرأي بالغ الإجحاف، فرد "وائل" وغصة تحبس جملته التي ولدت مختنقة:

– أنتم..لم..تجربونها..تلك..

التفت "ماجد" الى "وائل" وقال:

– إسمع "وائل"، مازال في الوقت متسع، سنجربها، لكن لا تتجاوز، فأنت لاتعرف أن لياسر إبنة خالة عانس تجنن، طول وشعر، عيبها الوحيد طول لسانها..

لكزه "ياسر" بحنق مشيراً له بالصمت لكنه لم يأبه فواصل ضاحكاً:

– وفوق ذلك هي الحبيب الأول الذي طوّحت به السياسة وكما تعرفون ما الحب الا للحبيب الأول..

أطرق "وائل" وبقي صامتاً و إمتعض "ياسر" من هذا الكشف السافر لأمر كان يريده، على ما يبدو، أن لا يذاع الآن، فسارع بالهجوم:

– لنكن صريحين إذن، لست وحدي، أنت أيضاً لا تنوي البقاء مربوطاً للمعلف الأوربي طيلة حياتك!

في هذه الأثناء كان مضيفهم "سمير بوهيمي" يستعرض وجوههم مبتسماً باشفاق:

– معالف، وخيول، ومرابط يا أوغاد، من الذي أجبركم؟ أنتم تورطتم بتأسيس مؤسسة ملفقة والآن يقتلكم اليأس لإنعدام قدرتكم على تغيير ما يجب تغييره!

رفع "ياسر" يديه وشبكهما خلف رأسه وصاح:

– إحترم نفسك أيها الفيلسوف الملفّق! يقول"عوائل ملفقة"! مع ذلك كم أحس بالإرتخاء في مثل هذه الجلسة حيث لا نساء، إستمر "سمير" يعجبني هذيانك

كان "سمير" في طريقه الى المطبخ، لكنه عاد على عجل وكأنه يريد اللحاق بكلام "ياسر":

– حيث لا نساء؟ قل حيث لا حبال، حين لا تكون مربوطَاً. أنتم ثلاثتكم إنتبهتم الآن الى إرتكابكم حماقة فعلتموها بظروف أعمتكم، فلم تروا غير هذا الإختيار!

كان "سمير" سعيداً في مملكته البوهيمية مترامية الأطراف، لايحد تفكيره حد، ولا يعترض إنطلاقاته عائق. لم يتزوج أبداً، لكنه بقي يعاشر الكثيرات راضياً عن نفسه وعن من يعاشرهن..

رد "ياسر" موضحاً وهو يشير الى مقعد "سمير" الخالي:

–"نحن كلنا كنا كهذا المقعد المتحرر من عجيزتك الهائلة، ما أن غادرته حتى إستعاد حجمه الذي كان. نحن الآن في مرحلة إستعادة أحجامنا السابقة، العودة الى ما قبل مرحلة إنكباسنا، كنا مكبوسين، هل فهمت ايها الفليسوف البوهيمي؟"

عاد "ماجد" بالحديث الى نسائهم الفرنسيات، وقد تجعد جلد وجهه بعد رشفة فودكا لاذعة:

–حين كنا أنا و"شانتال" الشهر الماضي في سهرة جمعتنا بأصدقاء لي، غنينا حتى بكينا، لم تكن هي قادرة وقتها على تجاوز المنطقة الجليدية التي كان يتوجب عليها قفزها، فصاحت: "ماجد" إنكم مثل الأطفال! علام تبكون؟" إنتبهت في تلك الليلة الى إفتقار اللغة الفرنسية المطلق الى مايمكنه إفهام زوجتي، ما الذي يدفع رجالاً عراقيين، يسهرون على مائدة، للبكاء كصغار الأطفال في منتصف الليل!

قاطعه "ياسر":

– تعرفون أنني أغرمت بجانيت عندما كنت في الخامسة والعشرين عن طريق صدفة، لكنكم تجهلون التفاصيل. كنت بعد أن إنتهى حفل أوركسترالي، واقفاً أنتظر إستلام معطفي الذي تركته لدى البوابة. عندما وصلت، وجدت نفسي بمواجهة فتاة شقراء جذابة بشكل ملفت. إبتسمتْ وطلبتْ مني رقم الإستلام فلم أجده، عبثاً بحثت في جيوبي، عندها قالت بلطف وهدوء: يتوجب عليك الإنتظار حتى إستلام آخر معطف. صرخت بوجهها: آخر معطف؟ في القاعة مئات الأشخاص! لكنها هدئتني وقادتني الى مقعد قريب وأوصتني أن

أنتظر، فما هي الا نصف ساعة. كنت خلال نصف ساعة الإنتظار أمعن النظر بها، سحرني قوامها، وأوقعتني إبتسامتها بشراكها، فلم أقاوم دعوتي لها في الأسبوع التالي والتي أفضت الى جلوسنا متقابلين، أنا مقابل فتاة بدأت أحبها! بعد لقائين صرحتُ لها عن مشاعري بطريقتي الشرقية، طريقة التلميح، ولم أتمكن وقتها من فهم رأيها فتصورت أنها رفضتني. كدت أجن، حسبت أن الحياة قد أدرات ظهرها لي.

همس "ماجد" بصوته الخفيض:

– هذا لأنك خُدعت فتصورت وجود مايسمى بالحب المتبادل من أول لحظة، هناك على الدوام حب من طرف واحد، وهذا الطرف هو الذي يستثير الطرف الآخر فيبدأ ذلك الآخر بالتفكير: أها، هناك من يهتم بي! من يفكر بي! عندها يبدأ الآخر بتشكيل إستجابته، وهذا ماحدث معك، ثم أننا ياعزيزي مختلفون عنهم بكل شيء، الحب لدينا يبدأ فجأة مثل شمس صيفنا الحارقة، تحرق منذ ساعتها الأولى، نخلط بين الحب، والإعجاب، والإستلطاف، والإحترام والتقدير، ونعبر عن ذلك بطريقة لا تُفهم.

عادت لرأس "وائل" فجأة نظرية الصبا الغارب عن الصلة الشعاعية، وأحس بالكدر يخيم على روحه، لكن" ياسر" إستأنف الحديث فحاول الإنشغال بحديثه:

– نعم، وبعد عودتها بعد أسبوع، تأكدت أنني كنت واهماً، وأنها لم ترفضني لكنها لم تفهم قصدي. إستغربتُ من نفسي وما فعلت، وكأن من ضاقت الدنيا بعينيه قبل أيام هو شخص آخر لا أنا! ما أن تأكدت من أن لا عائق يقف

في طريق إمتلاكي لها، حتى خفّت مشاعري تجاهها حد التلاشي. تيقنت بعدها أن الحب هو شعورك في الزمن الفاصل، بين توقك لأن تكون قريباً من الحبيب، وتحقق قربك منه. هذا هو كل شيء. ما أن تتحقق للمرء رغبته بالوجود مع من أحبه حتى ينتهي ما سمي بالحب ليبدأ شيء آخر.

كان "وائل" يصغي بإهتمام لقصة "ياسر"، وتذكر نظرية شبابه التي كان يحاجج بها من يريد الزواج بأجنبية: "كيف تجسر الهوة السحيقة بين الشرق والغرب ببضع مئات من المفردات؟" وتذكر..افلاطون..ولايدري لماذا وجد نفسه يقول:

– هذا يعني أن البقاء العمر كله بانتظار الحبيب الغائب، أكثر إدامة للحب من اللقاء به!

رد "ماجد":

– نعم، فتحقق التلاقي، يعني إتمام الانجذاب، أي إنتهاء قوة الجذب التي كانت. إنتهت مرحلة التقارب الى إتحاد، وتشكل الآن كائن آخر مشترك.

عاد " ياسر" مواصلاً:

– ثم مرت السنون فاكتشفنا أن كل ماكنا نمتلكه سوية، بدأ ينضب تدريجياً مثل تل ثلج ذاب شيئاً فشيئاً، أو مثل موقد بدأ حاراً لاهباً ثم إنتهى الى رماد. تكررت الأحاديث عن الأمراض، والتأمين، والإنتخابات، والرواتب، والسيارات، والأرهاب الدولي، وحدائق المنازل الريفية، والعواصف في أماكن التزلج، وسلوك المدمنين على المخدرات، وتصاعد الضرائب، وأسعار اللحوم وإفلاس

الصحف. فقدت حرارتها وبردت تدريجياً. ومع بلوغ الأطفال سن النضج وتركهم المنزل، إنفصم واحد من الأربطة التي كانت تجمعنا، وتسلل البرد والوجوم الى زوايا الحياة، حتى أننا الآن، في أيامنا الأخيرة، لا نكاد نجد موضوعاً واحداً لم نكرره لأكثر من عشر مرات. قبل إسبوع أعادت "جانيت":

"حين كان أبي في مانهاتن شهد مرة عام..فقاطعتها مكملاً:

عام 1965..واقعة سقوط عمال تنظيف من الطابق العاشر الى الأرض أعرف القصة سمعتها عشر مرات!"..

لم يكن سلوكي مهذباً، أعرف ذلك، لكن حياتي المكررة لم تترك مجالاً للتهذيب..فقدت السيطرة على نفسي. الا ترون أن بقاء رجل وامرأة في فضاء مغلق لفترة طويلة لابد أن يجعلهما يأكلان بعضهما؟ يكرران حياتيهما؟ خصوصاً إذا كان أحدهما من شمال الأرض والآخر من جنوبها، فما الجديد الذي بمقدورك أن تحكيه بعد ثلاثين سنة مع ذات الإنسان تحت ذات السقف؟

قال "وائل" بخفوت كأنما يحدث نفسه:

– قل لها أننا لفقنا حياتنا المشتركة!

ضحك الآخرون، وعاد "سمير" من المطبخ حاملاً طبقاً كبيراً من المخللات ووضعه على الطاولة، وكأنه قد سمع من مكانه بالمطبخ، كل مادار بين الجالسين فتوجه لوائل بالسؤال:

–لا أراك سعيداً بما فعلت مع "سابين" البارحة؟

رد "وائل" مباغتاً وكأن "سمير" قد قرأ أفكاره:

– يا إبن الأبالسة وما أدراك أنت ماذا فعلت أنا البارحة؟

– وهل أنجزت أنا شيئاً في حياتي غير هذا التخصص؟ سأكتب كتاباً بعنوان "المتبقي في السرير بعد مضاجعات الحمير"، قل لي اليس الملل هو ما يرهقك؟

– يالك من فيلسوف خبيث! كأنك كنت مختبئاً تحت السرير!

– الم أقل لك؟ تكلم إذن من تلقاء ذاتك ياصديقي، ولا تلجئني لأخذ إعترافاتك بالتحايل والتحقيق..

في أحط حالات "وائل" النفسية، وأكثرها قساوة، حين تداهمة أسئلة لا يعرف الإجابة عنها فترتسم على وجهه بشكل تجاعيد قنوط، و تحديقة تائهة عبر زجاج النافذة، كان شوقه لسمير يزداد. فسمير قادر على إلغاء اللحظة الراهنة، والاطاحة بالجدران، والقيود الاجتماعية، والقوانين الوضعية، حتى ليخيل للمرء أنه يعيش في عالم إفتراضي خاص به..لم يكن فكر "سمير البوهيمي" ليتعارض مع سلوكه اليومي، بل هو يعيشه يومياً، وهو الذي مضى على وجودة بأوربا أكثر من نصف عمره. كان يتنقل بين النساء بمرونة وخفة قط، لا يفرط بعلاقاته مع من يصاحبهن، ويعاملهن باحترام مدهش، ويغدق عليهن من عاطفته وهداياه الكثير، حتى ليظن من يشاهده مع إحداهن، أن الواقفة أمامه هي حبه الوحيد..لم يكن "سمير" من فئة مرتادي الملاهي الليلية، ولا مزدريي المرأة من زبائن دور العهر، كل ماكان يكسبه من أعمال الترجمة

وكتابة المقالات، يتبرع به بلا تردد لمؤسسة واحدة: دار رعاية الاطفال غير الشرعيين!

كان "وائل" يماحكه قائلاً:

– أنت تشجع على الرذيلة ياصاحبي!

فيجيب ضاحكاً:

– إسمع دكتور، هناك فرقان بينك أنت وهذا الصبي اللقيط، أولهما أنه أجمل منك، وثانيهما أنك خُلقت لأن أباك أُجبِر على تأدية واجباته الزوجية، بينما خُلق هذا كثمرة للحب!

إنحاز "سمير" للمرأة كلياً، ولكن المشكلة أن هذا الإنحياز تم وفقاً لتعاريف ومنطلقات غريبة خاصة به، مع ذلك لم يفلح "وائل" في كبت رغبته الداخلية الملحة للإستماع لآراء صديقه البوهيمي، وتعليله لظاهرة "الملل السريري"، لكنه حاول أن لا يمحور القضية حول ذاته، فقال ناظراً للجدار مظهراً عدم الإكتراث:

– ما أمر به ظاهرة عامة كما تعرف عبقريتك، ظاهرة تصاحب كل العلاقات الطويلة، إسأل الآخرين..

أجاب سمير على الفور:

– أها، قصّرها إذن!

– ماذا؟ ما الذي أقصره؟

أحس "سمير" بإنتفاضة "وائل" فقال:

– تقول أن العلاقة الطويلة تنتهي الى الملل، هناك حلان أمامك، أما أن تقصرها، ولا أظنك راغباً بذلك بدليل زعيقك بوجهي، وهناك حل آخر.

رد "وائل" مترقباً مفاجأة جديدة:

– قل لعل فيه ما يفيد!

– إذا تعذر عليك التقصير، فعليك بالتغيير!

وجد "وائل" الرد جاهزاً على ذات الإيقاع:

– بدأت بالتخريف يا "سمير"!

ضحك الجميع الا "سمير" الذي واصل جاداً:

– لم تفهمني كعادتك، التغيير لا يعني الإستغناء عن القديم، بل تعزيزه بجديد

– لسنا بعصر الحريم يا "سمير"، عجيب! أنت تناقض روح العصر!

عدل "سمير" من جلسته إستعداداً لبدء رحلته الهادفة لإقناع "وائل":

– أريد هذه المرة أن أقتلع فكرة "روح العصر" من رأسك، يا دكتور كل مشاهير وكبار هذا العصر عززوا القديم بالجديد. هم يراعون ما تسميه أنت بروح العصر شكلياً، لأنه فُرض عليهم في غير أوانه، وخلافاً لطبيعة البشر، لذلك كانت الثانية أو الثالثة في الظل! روح العصر هذه تذكرني بصورة طفل شيموه

أنه أصبح كبيراً، وأن عليه التصرف كالكبار، فبدأ يقولب تصرفاته لكي يبدو كبيراً، فيما يحن كل شيء فيه لألعاب الطفولة وصخبها.

– المرأة في هذه الحالة هي الضحية!

– إذا أردت أن تعرّفها كضحية فعرفها، أنت وشلتك البائسة هذه، لكن لا تكذبوا على أنفسكم وتدّعون أنكم لم تكونوا من حوّلها الى ضحية. اليست نسائكم الآن ضحايا؟ اليست جريمة أن تعدوهن قبل ثلاثة عقود بالحب "الأبدي"، وتولولون أمامي الآن شاكين قساوة السجن الذي إخترتوه؟ ثم أنكم كلكم تمارسون في الخفاء ما أعلنه أنا، وأمام "سمير" تتحولون الى مرشدين إجتماعيين وقساوسة. إذا سألتني سأقول المرأة التي اقصدها ليست ضحية، لا أبداً. المرأة تريد حصتها هي من الرجل، الرجل يريد المرأة كلها. صدقني لايهم المرأة أن تعرف أنك كنت مع أخرى، الأهم هو أن لاتشغلك الأخرى عنها! لكن كيفية أن لاينشغل الرجل بالأخرى كلياً، هو فن..ليس كل الرجال قادرين عليه! المرأة مخزن عواطف وأحاسيس، عندما يكون فارغاً عليك أن تملأه، إن أجدت ذلك لبيّت لها نصف مطالبها، أما النصف الآخر من المطالب فهو تفريغ مخزونها العاطفي، هذا هو كل شيء، آلية الشحن والتفريغ العاطفيين هي ما يحرك كل كيانها..وهي ضمن هذه العملية سترد لك صنيعك على شكل عواطف معاكسة، عليك الإنصات لها وتقبلها..

– أنت متخلف، "سمير". بإختصار هذا تخلف، عندما تثني وتثلث وتربع و تلعب كما تشاء.." رد " وائل"

– ومتى كنت أنت تفهم بغير الكسور والمفاصل والغضاريف؟ الروح، أو روح الأنثى، لا تقع في حدود عالمك الطبي الموحش. أنظر الى الطبيعة، رجل واحد يمكن أن يصنع قبيلة هائلة بمعاشرة مئة إمرأة اليس كذلك؟ بينما مائة رجل مع إمرأة واحدة قد لايمكنهم صنع أسرة كبيرة واحدة، ما الذي يعنيه هذا؟ يعني أن تعدد الأناث ووحدانية الذكر، هو من تصميم الطبيعة لكي يستمر الوجود! تأمل: ما سر طلاق الأزواج بعد سن الأربعين؟ إنها ظاهرة عامة تقارب الأربعين بالمئة من زواجات الأوربيين والستين بالمئة الباقية، باقية لأغراض نفعية، البيت المشترك، الأبناء، العلاقات العائلية..السبب مللهم و معارضتهم القانون الطبيعي بقانون آخر وضعي، إستباقي، ملفق، لا يتناسب مع العصر.

قام "ياسر" متوجهاً الى الحديقة لتدخين سيجارة، وإقترب من "سمير" ضاحكاً:

–"سمير" تعجبني يا بوهيمي، أنت تخترع قانوناً إجتماعياً جديداً!

– وما الضير؟ تقولون تطور إجتماعي، كم إستغرق الإنسان ليتحول من متوحش يعيش بالكهوف الى إنسان متحضر؟ فقط قبل الفي عام كان الرجل يعاشر من يشاء من نساء، فكيف يتطور خلال الفي عام بحيث يقتصر على واحدة؟ هذا ضد قانون التطور أصلاً، حتى زمان الثورة الفرنسية كانت في مقاطعة "نيفرنيه" في "فرنسا" التي تعيش بها أنت، المشاعة البيتية التي كانت قائمة أيضاً في "الجزائر" و" روسيا" و"صربيا" و"بلغاريا" قبل مئة عام فقط، فهل قفز الإنسان خلال مئة عام هذه القفزة الهائلة، من العائلة المشاعية متعددة الأجيال الى إكتفاء الرجل بواحدة؟ ثم أنظر للتطور الفسيولوجي، منذ متى لم يتغير تركيب الإنسان الفسيولوجي؟ من آلاف السنين، يعني "يوليوس

قيصر" و"فرعون" و"الاسكندر المقدوني" و"سقراط" و"فيدياس" و"هارون الرشيد" والذين قبلهم، لم يكن لهم تركيباً جسمياً يختلف عنا، فكيف نقفز بطبيعتنا الروحية هذه القفزة الهائلة، التي لا تتناسب مع تطورنا وتغيرنا الفسيولوجي؟

– لكن الإنسان توصل الآن الى إقرار مبدأ المساواة بين الجنسين!

– نعم المساواة. هذه هي الخدعة الكبرى، هل بإمكانك أن تحمل أنت وترضع الأطفال؟

– لكل جنس دوره!

– وأنا أقول ذلك أيضاً، الرجال من المريخ والنساء من الزهرة كما قال راي، مهما مرت الأيام يبقى كل منهما حاملاً لسمات كوكبه، لكل جنس دوره ومتطلباته وما أقول لا يهين المرأة!

– كيف لايهينها حين لاتكون مخلصاً لها؟

– صدقني أنا كنت في زمن ما مخلصاً لثمان نساء في وقت واحد!"

رد "سمير" بثقة فتعالت الضحكات مجلجلة، فيما قفز "وائل" صائحاً:

– ويقول كنت مخلصاً! لايمكن، صديقي "سمير"، كنت صادقاً مع واحدة فقط والسبع المتبقيات مخدوعات..أو إن شئت الحق، لم تكن صادقاً حتى مع واحدة. هذه خيانة..

– أها خيانة، وهل أنا أخون المرأة مع جنس ثالث؟ الثانية إمرأة أيضاً، أنا منحاز لجنسها، ثم ما هو تعريف الإخلاص؟ الإخلاص هو مراعاة مشاعر شريكتك، وأن لا تدعها تشعر بك بعيداً عنها، ولا قريباً حد الملل. وهي موازنة لايجيدها الا القلة. أتعرف كم هو جميل أن ينادينك عشر نساء بكلمة حبيبي؟ كل منهن تراك ملاكها؟

قهقه "ماجد":

– ستجنني "سمير"..أنت وحش مثل أي وحش غابة يمتطي من يصادفه من إناث جنسه!

– أنت مجنون بالأصل حين تركن الى واحدة، ثلاثتكم مجانين! مشكلتكم كلكم، أنكم لاتفهمون غير العلاقة الجسدية مثنى وثلاث ورباع ضمن فعل إمتطائي، بينما أنا أتحدث عن العلاقة الجسدية – الروحية!

– تجمع ثماني نساء وتتحدث عن الروحية؟

يقترب "سمير" من "ماجد" ويجيب بلهجة هادئة:

– وما العيب في ذلك؟ هذا يتبع خواصك الروحية، إن كانت بحيرة روحك من العمق والسعة ما يكفي لإرواء ثماني نساء أو أكثر، ما الضير؟ إن كان لديك الكثير دع الكثيرات يستمتعن به! أنا لا أستطيع رد نظرة إمرأة محبة، هذا هو الإجرام بعينه. تصور أمرأة ثانية أو ثالثة أو عاشرة فارقتها قبل سنين، تقول لك بكل رقة الأنثى: "أنا لا أصل القمة الا معك"! هذه إمرأة رقيقة تعترف لك أنك الوحيد على الأرض القادر على هزها وإسعادها، فما الذي ترد به؟

هل تتصرف كأي رأسمالي إحتكاري وتتجاهل حاجتها؟ تقول لك أنت الوحيد! اي أن هذه المخلوقة ستفتقد لأهم متعة في الحياة إن بقيت أنت مثل الحجر، اليست تلك جريمة؟ هل تتركها للدود تمارس معه الحب هناك تحت التراب؟ المرأة قيثارة لا تشدو أوتارها بملامسة أي كان، لابد من عازف مُجيد، عارف، و إذا كنت أنت العازف الذي تحن أوتارها لأناملك؟ تقول لها عذراً أبقي على صمتك؟ أما هذا السجن الذي دخلتموه بإرادتكم فهو يضحكني..الكائن البشري يا أصدقاء وجود واحد وحيد، كل فرد هو مسار منفرد بحد ذاته، لايشبه غيره لايمكن أن يبقى طيلة حياته مربوطاً الى آخر بكذبة " شريك الحياة"، لا يوجد إنسان يشبه آخر، ولا إنسان خلق لآخر، وكل هذه الملفقات التي يلجأ لها للتلائم مع" الشريك الشرعي" والتقارب معه، يفعلها على حساب فردانيته من أجل إستمرار عمل آلية الخداع الإجتماعي. " شريك العمر"، أكذوبة، العمر طويل ياصاحبي لايمكن أن يمضي كله بشراكة بين إثنين، قد يصح ذلك لعام أو عامين، لكن سرعان ما يكون بعد ذلك عرفاً لاروح له، سيكون فرضاً مثل باقي الفروض التي يزوغون عن الالتزام بها سراً ويدعّون الالتزام بها علناً، هو كذب مثل الكثير من مظاهر هذه الحياة التي تراها أمامك! سيقول لي "وائل" حتماً: أنت تحتقر المرأة، أنا أقول: لا حق لك في إتهامي هذه التهمة الملفقة، الحق تملكه المرأة نفسها، أنت تتكلم نيابة عنها، وأنت الذي تدعي الاقرار بالمساواة كما تسميه، دع النساء أنفسهن يأتين هنا ونوجه لهن السؤال: هل تشعرن بالراحة مع "سمير بوهيمي" المتخلف أم مع "وائل الشاعر" المتقدم؟ ودعنا ساعتها نسمع جوابهن. ياعزيزي أنت لا تتمكن من إستيعاب حقيقة طبيعية، هي أن المرأة شيء والرجل شيء آخر مختلف تماماً، ليس فيسيولوجياً فقط ولكن سايكولوجياً أيضاً وسلوكياً، لذلك فانا أقرب لفهم أعماقها فهماً

صحيحاً لأني أنطلق من منطلق الفرق الفسيولوجي والنفسي، فيما تقحم أنت إفتراض التماثل. بإختصار الواقع يقول أنني قادر على إسعاد الكثيرات، كلهن بلا إستثناء، فيما تفشل أنت وأصحابك في إسعاد واحدة فيصيبها ويصيبك الملل. أوغاد أنتم، لو تمكنتم من أكثر من واحدة، لما ترددتم..

رد "ماجد" مصالحاً:

– بدأت بإقناعي يا فيلسوف "سمير" لكن، مع ذلك ثمان نساء رقم مخيف، أنا مستعد لمساومتك، بصراحة زوجة، وواحدة أخرى إحتياط هو الحل! الزوجة وحدها تُمّل فهي تكرار للحياة اليومية بكل بصلها وثومها وصراخها وقيئ أطفالها والولادة والوحام، وقد لا يتبقى من أعظم حب شيء بعد عملية الولادة الفظيعة وما يليها، أما العشيقة فهي البديل الجاهز الذي لا يُرى الا بمفرده، نظيفاً، مبتسماً..

– هراء، عقود الزواج كلها هراء، قل لي من إخترع هذه القوانين التي تؤمن بها أنت؟ الزواج والعقد، والمهر، والخطوبة، والطلاق؟ هذه كلها صيغ قانونية ملفقة تتعلق بالملكية لا بالعاطفة! لو لم تكن الملكية والمال والإرث لكان الإنسان أكثر حرية وأكثر صدقاً. الطيور تعيش سعيدة بدون عقود زواج، و ثلاثة أرباع عقود "الزواج الشرعي" التي تراها هي عقود إنتفاع، إكتسبت شرعيتها من إمضاء آخرين لاعلاقة لهم بالأمر أصلاً وليس من رضا طرفيها! هي عقود بغاء قانوني وشرعي! ما دخل القاضي بعلاقة بين إثنين؟ ثلاثة أرباع هذه الزيجات أو أكثر هي عقود قامعة للعاطفة، أو هي أفعال قمعية لتدجين طبيعة الإنسان وتشغيلها لخدمة ما يسمى بالمجتمع. المجتمع في هذه الحالة تجمع لأفراد يخدع بعضهم بعضاً. مجتمعاتنا مجتمعات بغاء مقنّع،

حياة قسرية مصلحية بحتة لرجل مع إمرأة! أنتم تعرفون ذلك يا أوغاد لكن الجرأة تنقصكم للإقرار بالحقيقة!

جأر "ياسر":

– هيه أنت "بوهيمي"، يعني عازمنا ببيتك لازم تجبرنا على سماع نظرياتك الفلسفية الأنثوية؟ ساعات وأنت تنظّر، أترك لنا فسحة!

عندما بقي" ياسر" يعب بصمت كؤوس البراندي، غائصاً عن المجموعة في عالم بعيد، ورأسه قد مال قليلاً الى اليمين بوضعية إسترخاء تام، عرف الباقون أنه وصل "مرحلة التطهر التام" كما كانوا يسمونها. مرحلة إندلاق الأسرار التي توقعها "ماجد" هذه المرة متجهة لكشف أسرار علاقته بالعانس إبنة خالته. سيحكي كل شيء، بلا رتوش ولا تزويق، ملتزماً كالعادة بدس كلمة "اللعنة" بين سطر وآخر. كان الثلاثة ينتظرون منذ وقت خطابه التأريخي فلم يخيب رجائهم، رفع يده إشارة للآخرين بالسكوت:

– اللعنة، تتحدثون عن الحياة وكأننا نلجها مخيّرين. الحياة مختبر هائل لا معنى لتجاربه، مختبر يلاقي البشر، ويطحنهم، ويعجنهم، يخلطهم مع بعضهم بلا سبب ولا هدف. كل منا نتاج من نتاجات هذا المختبر، نحن صنعتنا الصدفة العمياء، جعلت مني أنا، ولو خيروني ماكنت لأكون أنا، جعلت مني إبناً لأب، لو كان بيدي أنا لما إرتضيته أباً..عندما أحاول أن أتذكر أكثر الأحداث قدماً في حياتي تأتي صورة أمي الراكضة بهلع وأبي يركض خلفها، لم يعد قادراً على تجنب إعادة شريط المسبات الطويل الذي كان يردده. وعندما تعب من تكرار مسباته إختصرها الى كلمة واحدة: "قحبة! اللعنة، كم كان

ذلك قاسياً ياربي على طفل يسمع أباه يقول عن أمه أنها قحبة؟ لكني حين كبرت قليلاً إدركت أن أبي كان محقاً تماماً في إطلاق هذه الصفة على أمي! اللعنة..

صدمت كلمات "ياسر" الأخيرة أذان الحضور حين وصم أمه بهذه الوصمة المشينة. لقد تجاوز الحدود، تعرّى بالكامل..وتحرك بوائل إحساس قوي بالإشفاق عليه، فحاول إيقافه عن الإيغال في تعرية نفسه أمام الجميع عبر حرف الحديث الى وجهة أخرى، لكن "ياسر" بقي يتحدث بثقة وهدوء وبلا أقل قدر من الإنفعال أو الإحراج، حتى أن حيادية ملامحة كانت تصوره وكأنه يقرأ كتاباً، أو يروي طرفة ما، لاعلاقة له بها. وقرأ هو على الفور ملامحهم المحتجة فواصل:

– نعم، أعرف أن كلماتي تصدمكم، لكنها الحقيقة. كان هو على حق بوصف أمي بهذا الوصف، اللعنة..ما حكاه "البوهيمي" صحيح، رغم أنه بوهيمي متفلسف، فما هو تعريف المومس أو القحبة؟ هي المرأة التي تقيم علاقة جسدية مع رجل على أساس نفعي مادي، بدون توفر إحساس عاطفي..وأمي كانت كذلك، اللعنة، هي موجودة معه بموجب حاجتها له كحام، لأنه ينفق عليها كالعادة في مجتمعاتنا البليدة. تماماً كما قال " سمير" قبل قليل. نفرتُ من أبي الذي كنت أخاف الإقتراب منه، فيداخلني كلما إقترب مني شعور أنه يرمي الى الفتك بي، ورميي من النافذة الى الكلاب، كما كان يقول حين يغضب، ونفر هو الآخر مني، معيراً أياي: "كل شيء فيك هو من أمك! لا أحس إنك مني" اللعنة..سيطر علي إحساس بأني حقاً لست إبناً لهذا الذي يسمى أبي، كلا أنا إبن أمي، فأنا لاأكاد أحس بأية عاطفة تجاه أبي، وكان

هذا الإستنتاج يريحني كثيراً من معاناة تبرئته من سلوكه المتهور المتكرر مع أمي. اللعنة، أكثر مايذل الإنسان هو مسؤوليته عن واقع لم يكن حراً في إختياره، أنا لم أختر أن أكون إبناً لهذا. أنت لم تجرب العيش في كنف أبوين يكره أحدهما الأخر، كيف يمكن لك أن تفهم الحياة وتحبها؟ وبعد أن تخلصت من طغيان الأبوة بطلاق أمي وإلتحاقي بها، بقي هاجس أن أكون قد جئت الى هذه الدنيا من أب آخر، غير هذا الذي تزوج أمي، طاغياً على تفكيري. وكان هذا هو الدافع الذي ألح علي ذات يوم أن أفهم الحقيقة كاملة من أمي. هي نظرية كنت أروم البرهنة عليها، تقول أن إحساس الأبوه أو الأمومة ليس من الأمور البديهية. فهذا أبي لم ألمح في عينيه مرة نظرة حب أو حنان، أو حتى شفقة يحسها الإنسان تجاه كلب أو قطة، ومع ذلك قد أكون أنا إبنه الحقيقي! لم يكن الأمر يسيراً علىّ ولاعلى أمي أن أستدرجها الى السؤال الأكثر إحراجاً لأي إمرأة: هل أنا حقاً إبن هذا؟ فبدأتُ الدوران حول الموضوع، مقترباً بحذر من الحدود الشائكة، وأمي تجيب عن اسئلتي بتلقائية، ولم أشأ أن أترك الحبل يفلت من يدي فقلت: أتتذكرين كيف كان يصرخ في وجهي "أنت لست إبني"؟ ردت: على هذا الكلام الوسخ سيدخله رب العالمين الى جهنم! خجلت بعد ذلك من الإسترسال في التحقيق مع أمي، وتيقنت من صحة نظريتي، قد يكره الإبن أباه، أو الأب إبنه من قلبه..هذا أبي قد فرض عليً، ولايتحتم عليً أن أقر به أباً لي، ولا أن أقر بما يورثه لي هو أو المجتمع من تقاليد كقدر مكتوب. أما هذيان الفيلسوف "سمير" حول المرأة الثانية فإسمعوا: أنا لا يمكن أن أخون "جانيت" ابداً، حتى لو أغرتني أجمل جميلات هوليوود، ولكني أشعر أن حبيباتي السابقات لهن ذات حق " جانيت" بي!

ضج الجميع بالضحك، فتركهم "ياسر" خارجاً لتدخين سيجارة. مرت لحظات صمت. لم يعجب "وائل" حديث "ياسر" الذي كان يشبه التعري في ساحة عامة، ولا فكرة "ماجد" الغريبة عن العشيقة، ولا إشارة "سمير" التي تدل على إفتراض فشله في علاقته بسابين وبالمرأة عموماً..و رغم أنه يحب "سابين" أو على الأقل هما لم يضجرا من بعضهما للآن، إنتصب أمامه سؤال مفاجئ: أي دليل تملك على حبك لها؟ وأي دليل تملك على حبها لك؟ وانها سعيدة معك؟ ثم دس سؤال خبيث نفسه بين هذين السؤالين: ترى لو جاءت أخرى أكثر قرباً منك هل سترفض؟ صاح فجأة:

– هذا إجتماع غير إنساني!

حملق الآخرون بوجهه غير فاهمين فإعتذر بلطف شاكياً من صداع مفاجئ وغادر بهدوء لينام.

الإجازة

في فضاء بيتها، و منذ أكثر من خمس سنين، لم تعد "سابين" ترى في زوجها ما كانت تراه. ربما كان يمر بفترة كآبة، أزمة منتصف العمر مثلاً، فهو لم يعد يتبادل معها سوى الضروري من الكلام، ما قلّ ودلّ. لو لم تبادر هي بفتح الحديث معه، لما سمعت منه كلمة واحدة. في عمق ليلة رطبة نهض "وائل" من سريره ووقف أمام المرآة في غرفة الحمام، مرر كفه اليمنى على شعره الذي شابته خصلات فضية بدأت بالتكاثر، تمعن بوجهه الذي قابله بالمرآة وهمس: "إعترف أيها الفتى الخائب، أيها الفارس المخذول، إعترف أنك خسرت الحرب، لم تخسر معركة بل الحرب كلها"..لكنه إنتفض فجأة صارخاً:
– كلا الحرب لم تنته بعد!

إستيقظت "سابين" على أثر الصرخة وأسرعت مرعوبة راكضة نحو الحمّام، بقيت تحملق به بذعر، ولم يزد هو عن الإشارة لها أن تعود للنوم:

– لم يحدث شيء، كان كابوساً، عودي لنومك.

ردت بإستغراب:

– كابوس في حمّام! وفي الساعة الثالثة والنصف ليلاً!

غير أن ذلك لم يحدث من لاشيء، الصمت والميل للعزلة هما عرضان لإنشغال الدماغ بعمل جبار. نعم، لو توفر وقت أطول لوائل، لكرس الكثير

منه، بل كل ما تبقى من حياته للبحث في خفايا هذا الحقل المجهول المسمى"الباراسايكولوجي".

بعد قرابة عشر سنين على مشروع زيارته الفاشل للبلاد، الحت عليه ثانية فكرة السفر، كما لو أن إتصالاً قد وصله، وإستلمه دماغه أثناء فترة الإستراحة. هذا هو كل شيء.هناك وقائع وأحداث تخصنا تحصل على مسافة بعيدة منا، فنشعر بها على شكل إنفعالات حزن أو فرح غير مبررين. هناك "شفرة" لم تُعرف أسرارها بعد، تتبادل عبرها الأدمغة الرسائل، ولكن ليست كل الأدمغة، الأدمغة "المتوافقة تصميمياً" فقط، ما معنى "المتوافقة تصميمياً"؟ لا أحد يدري الآن، ولكن معناه العام، أن ليس أي إنسان، بمقدوره الإتصال بأي إنسان. كل هذا الطيف الواسع من هذه الغوامض، نسميه نحن الأقدار والحظوظ، أو التخاطرات أو الصدف، وهي كل ما لا نتمكن من تفسيره من أحداث وفقاً للمنطق العقلي، ووفق معارفنا الحالية. والأزمات التي يمر بها المرء، أزمة منتصف العمر، فترات الكآبة، فترات الإنزواء، هي في جوهرها مراحل تصفية، وإعادة دوزنة للدماغ، و تعديل لنظام الإشارات الدماغية، أو الروحية، بالتعبير المعروف، ثم الإنطلاق من جديد.

أزمة "وائل"، أو مرحلة "الدوزنة الدماغية"، وضعته على خط إتصالات جديد صحيح كلياً.."هشام"، الذي لم يسمع عنه أي خبر منذ أيام الكفاح القديم يبعث له برسالة اليكترونية، يتحدث فيها عن صندوق كبير، يحوي إرثاً ورقياً قد إنتهى به المطاف اليه بعد رحيل إخته! وماذا يعني الإرث الورقي الضخم غير "أسرار عائلية"؟ سجل العائلة اليومي الضخم، ودفتر قصائده الأولى التي لم يكتب أفضل منها فيما بعد؟ الدفتر الذي كان "وائل" قد بحث عنه طيلة

سنين عبثاً، وقيل له أنه ضاع. الدفتر قد وُجد أخيراً، ولابد للباحث عنه من السفر. سوف لن يُجبر هذه المرة على الإستماع لوعائظ سائق المطار البدين، فالطائرة ستلقي به في حضن بغداد، مباشرة! سيقطّع إجازته السنوية هذه المرة الى قسمين:هنا وهناك!

قبل يوم من حلول الإجازة السنوية، وعندما كان يتهيأ لإغلاق عيادته، نقّل بصره بفضاء الغرفة وحدق طويلاً بطاولة الزان العجوز، وكأنه يستنطقها، وينبش ذاكرتها التي إختزنت كل وجوه وكلمات وملمس أيادي مرضاه. ولا مرة واحدة فكر بتغيير أثاث عيادته، فبقيت منذ إفتتاحها على حالها، كل ما تغير هو صبغ الجدران الذي كان يجدده مرة كل خمس سنين، هل هو التشبث بماض لا يريد له الهروب؟

على غير توقع، رن تليفونه العتيق مرتجاً فوق الطاولة، رغم أن مرضاه يعرفون أن العيادة مغلقة وأنه ربما كان الآن في بيته الصيفي، فمن تراه يكون هذا الهاتف؟ تردد في الرد، لكن الحاح الجرس الذي لم يكف، أجبره على التقاط الجهاز، لم يميز صوت من كان يحادثة فرد بنغمة محايدة:

– "وائل الشاعر"..مَن من فضلك؟

– معك "نذير مطلوب"..كيفك يا فتى الرافدين الشاعر؟

– مَن لو سمحت؟

– يا"عكروت"! يبدو إنك نسيتني.. نذير باريس..لجنة الإضراب قبل ربع قرن، شو لازم كبرت، ناسي كل شي!

– مَن؟ الدكتور "نذير مطلوب"؟ زميل التظاهرات الثورية والعصيان؟ "يحرق حريشك يازلمه"..لا أصدق! أين أنت يارجل ومنذ متى لم نلتق بعضنا؟ من أين تتحدث؟

– من مطار "هيثرو"، ولدي طائرة بعد نصف ساعة الى "مانهاتن"

– غير معقول أن لا أسمع صوتك الا من المطار، هل ستأتي لفرنسا؟ دعنا نلتقي..أم..ماذا أقول، والله صعقتني المفاجأة..

– نعم أنت محق، أردت أن أسلم عليك أولاً، وأبلغك وصية، بلا توقع، عثرت صباح اليوم، في دفتر قديم وجدته في حقيبتي، على رقم هاتف عيادتك، فجربته، إسمع..البطارية تكاد تنفد، هناك قريب يبحث عنك ليوصل لك كتاباً ثميناً من أختك إسمه "أسرار عائلية" أو ما شابه، لم يكن عنوانك ولا تليفونك لديّ، لذا أعطيتهم عنوان النقابة في ليون كصلة إحتياطية، أعتقد أنه سيصل الى فرنسا ربما في الثامن عشر من هذا الشهر..

صاح "وائل":

– قريبي..من هو؟ قلت "أسرار عائلية"، هذا شيء غريب فقد قالوا لي أنه في بغداد..نعم ولكن..بهذا الوقت بالذات سأكون خارج فرنسا..

صمت التلفون، فصرخ ثانية:

– نذير..أسمعتني؟

نفدت بطارية تلفون "نذير مطلوب" فهو لايرد..ما قصة هذه الأيام؟ يبدو كما لو أن نظام الاتصال في حياته كان معطلاً وعاد للعمل، ولكن من سيصدق؟ "هشام" تحدث عن إرث ورقي، " نذير مطلوب" ذكر الدفتر بالإسم، فمن تراه يكون هذا الذي عثر على هذا السجل؟ كيف عرف بمساعيه الباحثة عنه؟ الا يتوجب أن يبق "أسرار عائلية" عائلياً؟ بقي يقلب الأمر فتوصل بعد عناء الى الإقتناع بأكثر الإحتمالات منطقية: أن واحداً من أقاربه يروم الإقامة لفترة في فرنسا أو الهجرة، ولاشك أنه سمع بالدفتر العتيق، فوظفه لكي يضمن إستقباله له في باريس، هذا لا يعني الجزم بأنه يحمل الدفتر ولكنه على الأقل يعرف مكانه ومكانته، وقد يكون الدفتر معه! في كل الأحوال، حل زمن التحولات الكبرى، الدفتر الضائع، وآثار الماضي التي بدأت بالوضوح.

دقت ساعة الجدار الكلاسيكية العتيقة المعلقة على الحائط منذ ربع قرن، معلنة الحادية عشر، أحس بصوت الساعة هذه المرة متعباً، كانت الرنة تنشج كأنما مبللة بماء ثقيل آسن، كانت مثل سعلة شيخ طاعن بالسن، تجر نفسها جراً. رتب مكتبه، وأحكم إغلاق النوافذ، وأسدل ستائرها، فغرق في العتمة. إستل من درج مكتبه مجموعة أقراص ليزر، وإختار منها أربعة للإجازة: كونشرتو البيانو الأول لتشايكوفسكي، إفتتاحيات كوريولان واكمونت لبيتهوفن، أجمل ما غنت "أديث بياف" و..آآه.."بيتيلز" ، كم هي موجعة هذه الأغنية؟ كتب بخط يده على غلافها قبل ثلاثين سنة:

Yesterday, all my troubles seemed so far away;
Now it looks as though they're here to stay.
Oh, I believe in yesterday.

في تمام الثانية عشر، كلم "وائل" بالتلفون بوابة مبنى النقابة، وأوصاها بلطف

أن توصل رقم هاتفه لمن سيأتي سائلاً عنه. أغلق أبواب العيادة، ليبدأ بعدها طقوسه التي بقي طيلة حياته يحرص على أن لايعكر صفوها معكر، فالإجازة الصيفية هي المتنفس السنوي الوحيد له، يضاف لها عطلة أعياد رأس السنة التي عادة ما تقتصر على الأقارب القليلين، وهم الذين ستذهب "سابين" لزيارتهم من هناك بعد الأسبوع الأول من الأجازة، ومابين العطلتين وخلفهما يمتد فضاء واسع من العمل..العمل حتى آخر العمر.

عندما أكمل رزم الحقائب، ودسها في صندوق السيارة، ألقى نظرة مشفقة على بيته، راوده إحساس طالما تكرر في حياته كلما خطط لغياب طويل عن مكان، إحساس أنه لن يعود الى هنا ثانية! ربما خلفت لديه مغادرته بلاده أيام الشباب هذه العاهة المستديمة القاسية. ترك "سابين" تقود السيارة، فيما أغنية "يستردي" ترن في رأسه. قبل أن تنزلق الشمس خلف الجبال، لاح لعينيه قرميد بيته الصيفي المنتصب على تلة تشرف على الطريق العام. كان لمعان القرميد الأحمر قد خبأ، بعد أن كسته طبقة رمادية.

– لقد شاخ القرميد والبيت كله! قال كأنما يحدث نفسه، فردت "سابين" موافقة:

– بنيناه قبل ربع قرن، ربع قرن من التوسيخ، تآكلت خلاله حتى طبقة الأوزون!

– نعم، تآكل كل شيء خلال ربع قرن..حتى طبقة الأوزون

رد وهو يفك حزام الأمان، و يترجل من السيارة بإتجاه صندوقها.

مضى الاسبوع الأول من الإجازة سريعاً، كانت "سابين" خلاله تتلهى بجمع ثمار التفاح والسفرجل وتقطع غصون الكروم التي إمتدت لتتسلق الجدران والسطوح، بينما لم يجد "وائل" مفراً من إفراد معظم الاسبوع الأول لإكمال بحثه الذي سيقدمه للمؤتمر الطبي القادم عن "عودة الأمراض المنقرضة للمجتمعات الفقيرة". غير ذلك، كانا ينشغلان بالنزهات اليومية الثلاث مع الكلب. بعد أن غادرت "سابين"، تغير إيقاع حياته فبدأ ينطلق كل يوم في ساعات الصباح الأولى، بجولة بعمق الغابات العذراء التي لم تطأها قدم. كم كانت الغابات تستهويه؟ خاصة الغابات العذراء التي لم يدس دروبها أحد. لم ينم في آخر لياليه في البيت الصيفي، بقي ينصت لصوت الساعة يدق مسماراً أثر مسمار بنعش الليل..تك..تك..تك..تك، ومسمار آخر تك..تك..تك..بعد ساعة سيكتمل نعش يوم بكامله، وسيشيع بموكب صامت، الى غياهب المجهول. غادر الدار في الرابعة صباحاً، وقت نهوض العصافير، ونقارات الخشب، وطيور الرفراف والقيثارة الصداحة. كان مدفوعاً بدافع غريب للإختلاء بنفسه، كأنما ليقابل من سيستعرض أمامه ما فات من حياته. حلق لحيته التي نمت خلال إسبوع من الإهمال. إرتدى ملابسه الرياضية. ودس بحقيبة الظهر قطعتي سنيكرز، وعلبتي سردين، وقنينة ماء، وبعض الخبز، ثم قاد سيارته حتى آخر الطرق السالكة و ترجل دالفاً للغابة الباردة التي تشربت أرضها بالبلل. كان ضباب الغابة كثيفاً فلم ينتبه للوحة محذرة: "إنتبه طريق غير مطروق"! الا بعد أن وقف تحتها تماماً فتمتم مع نفسه هازئاً: "وهل كانت حياتي طريقاً مطروقاً؟ وها أنا قد مضيت بها حتى إنتهيت من نصفها الأول!" ثم قهقه بصوت عال: هذا تحذير من زمان لا وجود فيه للهاتف المحمول ولا GPS! غاص مع أفكاره مندهشاً من فكرة الحياة: نعم

إنها إختراع مدهش هذه الحياة، ليست الحياة بمعناها البيولوجي، تطور اللا حي الى حي، بل بمعناها الواعي، أن يعي الإنسان انه موجود بذاته، أن حياته لا تماثلها حياة أخرى، أن ليس لبصمات أصابعه ما يشابهها، وأن ما يفعله قد لايمكن ان يُفعل الا من قبله هو. أن يسير المرء بطريق غير مطروق لا يعرف ما يخبئه له تماماً، كمن يسير بغابة لا يعرف الى أين تفضي به دروبها، لكن ما الذي يجعل الإنسان مطمئناً الى مسيره؟ ما الذي يجنّبه الخوف من المفاجِئات؟ غرق في لجة أمواج الماضي، وعاد مبحراً في أعماق أيامه التي خلفها ورائه، مضى يريد الوقوف على آثارها، كسائح يطوف بشوارع مدينة، يعرف أن الوقت قد لا يتيح له زيارتها ثانية كسائح. يا للحياة..في الطفولة، تمر السنوات بطيئة كما لو أنها تحبو بدورها، مثل صاحبها. السنوات الأولى، سنوات التمهل قبل الإنطلاق، وفي مرحلة ما، ستركض السنون مثل خيول فزعة، لا تخلف سوى غبار حوافرها، وكلما مضى الإنسان أبعد في العمر، كلما أحس بسعة ما لم ينجزه في حياته. حياته هو " وائل الشاعر"، كانت عمياء، كم من الدروب سار بها طويلاً ثم إكتشف أنها لا تفضي الى نهاية؟ فكر لو أنه لم يتفق مع "سابين" أن تكون حياتهما بلا أطفال، لكان إبنه الآن شاباً، ربما كان سيرافقه في جولته هذه في أعماق الغابة، لكنه لم يكن آنذاك مستعداً لخلق إنسان، مع أية إمرأة، اللعنة عدنا للماضي..يا "وائل"..حقاً تآكل كل شيء خلال ربع قرن..حتى طبقة الأوزون..ما أقسى وقع الذكريات عندما تشيخ و تتصلب، ثم تتساقط من شجرة الحياة في خريفها؟

(هذه كانت أوراق وائل الشاعر)

2

أسرار عائلية

" قصة زهور نيابة عن ملايين النساء"

كُتبت هذه الصفحات لهدف وحيد هو كي لا تضيع الحقيقة..

قصتي، قصة قديمة قدم وجود الإنسان على الأرض. لعلها نسخة مكررة ملايين المرات، كل مرة بإسم مختلف. هي قصة إمرأة، أي في مجتمعاتنا العليلة، قصة كائن مدجّن، دجّنه الرجل مثلما دجن البقرة والحصان، وهي مثال على عملية تدجين ناجحة، جعلت منها دجاجة بياضة في قفص الزوجية المقدس، من سن البلوغ حتى سن اليأس!

في مجتمعاتنا البليدة، تسمع البنت مبكراً مقولة: أن الحب يأتي تلقائياً بعد الزواج، وهي نظرية الآباء والأمهات الراجفين من فكرة عشيق أو حبيب تجول برؤوس بناتهم. إذا تجرأت هذه البنت و سألت أمها:

ماما وإذا لم يأت الحب بعد الزواج؟

ستنظر الأم لها بإستهجان وترد محتدة:

"إذا لم يأت من تلقاء نفسه فستأتين أنت به، إطمأني. المرأة هي التي تأتي بالحب!"

ستبقى البنت حائرةٌ، فكيف ستأتي بشيء غير موجود عندها؟ ثم ستعرف بعد سنين، أن أمها تقصد معنى واحداً مثلما يقصد الجميع: عليها في كل الأحوال أن تحب من سيكون زوجاً لها، أو من سيُفرض زوجاً عليها، هو حكم مؤبد! النتيجة أن ثلاثة أرباع نسائنا ينمن في أسرة مع رجال، وقلوبهن تنام في أسرّة أخرى مع رجال آخرين، هذه هي الحقيقة التي لا يتحدث عنها أحد! ترى هل يتوجب عليَّ الصراخ أن كسر قلب المرأة عمل خطير؟ وأن هذا أمر يجهله الرجال في المرأة؟ وهو سبب مفاجأتهم بردود أفعال كسيرات القلوب، فيصفونهن بالغدر والتقلب وفقدان الوفاء؟ أن حمل المرأة على قتل حبها، أو إجبارها على تجاهل الحب هو فعل خطير، قد يخرجها من طبيعة جنسها كبشر، ويجعلها تتصرف كمارد لايأبه لخطر. نعم، غالباً، حين يُكسر قلب المرأة، لا يعود صالحاً للعمل مرة أخرى كقلب، بل قد يتحول الى موطن لصنع العناد، أو بلغة الرجال، صنع "المكائد"!

أنا هنا لأتحدث عنها، هي، أو أنا، لا فرق. الأشخاص و الأسماء لا معنى لها. هي التي زرعت وبدلاً من أن تحصد حصدوها. أو إن شئت، هي التي توهمت قدرتها على الطيران، لكنها إكتشفت أن لا ريش يكسو جناحيها بل شمع..هي التي تمنت الموت بتحقق شرطين لاغير، أولهما أن تموت ولا يمسه هو أذى من موتها، وثانيهما أن تصله حقيقة حياتها التي عاشتها، ولكن الموت اللئيم، الأناني، المتعجرف، المغرور، الذي لايزاحمه في مهنته أحد، لم يرض الا ان يفرض شروطه هو كما يشاء. بكل عنجهية، أراد أن يعدمها حتى لا يبقى منها أثر، ولا يصل خبر منها اليه، فعاشت فقط لكي لاتستسلم لشروط الموت. تلك هي أنا، التي لو كان لها أن تختار، لكانت حياتها شيئاً مختلفاً عن ما هي عليه الآن، وهذه الأوراق هي سجل حياتي

البائسة، أسجلها دونما إنتظام، وكلما سنحت لي الفرصة. إسجلها له لا لغيره فحين يقرأ هذه الكلمات سترقص روحي فرحاً في أي مكان كانت، على الأرض أو في السماء في طريقها الى المجهول، فكل فرح الأرض لا يعادل فرحي في تلك اللحظة، حين أتأكد أن أوراقي هذه ستصل يديه. هو أمل ضئيل بعد أن سدت كافة المنافذ أمامي، لكني بدون هذا الأمل سأفقد القدرة على الحياة. أعرف أنه أمل اليائسين، واليائس إذا عاش، فهو يعيش على أمل واه أن يأسه ربما يكون حلماً.

لنبدأ من زمان الطفولة، زمان الوئام، حيث لا معارك تحدث ولا معارك آتية، كما كنا نتخيل. سنعود الى البداية حين كانت الحياة في خطواتها الاولى، وأنا الطفلة التي تنبئ ملامحها وقوامها عن جمال نسائي اخّاذ، كما كنت إسمع. هل كنت أفكر بأن الأيام ستهشمني فينتهي عمري مع بداية إزدهاره؟ أنا المدللة التي لايرد لها طلب، هل كنت أفكر في يوم من أيام مراهقتي السعيدة، أن يأتي زمان سيركلني فيه كل من أعرفه بقدميه؟ لا، رغم أن الحياة كانت تتغير من حولي ببطئ. كل سنة جديدة من عمري كانت تدفعني الى عالم غامض كنت أخافه، هو عالم كبار العائلة. الكبار ذوو الشوارب، والنظرات الحادة، والأحاديث الخفيضة التي كانت تدور حولي، فلا أسمع منها سوى، "هي"، ولم أكن أعرف ما بي، وما يراد مني. لم يكن يروق لي سماعهم يهمسون: "هي"، ثم تأتي الهمهمات التي لا أسمعها، يقولونها وعيونهم تحدق بي! كان هذا الهمس يخيفني. لفترة، تركوني حرة أتنقل في فضاء مابعد طفولتي دون عوائق. كان القفص كبيراً، وكانت لي حريتي في أن أطير داخله الى حين، فلا أحس بقرب قضبانه مني. وعندما رأيت حبيبي على غير توقع في صدفة من صدف ذلك الزمان السعيد، إبتدأ العالم من حولي يتغير. شدني

المجهول الذي في عينيه، ما الذي كنت أبغيه؟ لا أعرف. في ذلك المساء، وأنا في البيت على مائدة العشاء، أحسست بطعم آخر، للخبز، والسكر، وللكلمات، ولصوت المذيع في التلفزيون، وأسئلة اختي الملحاحة، ولنباح كلب الجيران الذي كان قبل الآن يضايقني. لون الجدران الذي كنت أمقته صار أكثر إلفة. بدأت التصالح مع محيطي الذي غالباً ما لايكون متصالحاً مع مراهق، و نمت ليلتي كما لم أنم من قبل. إستيقظت قبل الفجر وفتحت باب الحديقة خلسة كي لا أوقظ الشمس، ومضيت لكي أسقي الورود، تعثرت بأبريق الحديقة المعدني، فأحدث جلبة إستيقظت أمي على أثرها، فأقبلت اليّ تصيح بصوت أقرب الى الهمس:

–هييه؟ أحالمة أنت؟ ماذا تفعلين في الحديقة والشمس لم تشرق بعد؟

– أشرقت!

– الساعة الآن الرابعة!

– أشرقت البارحة يا أمي لا تعانديننني

– جنّت البنت!

إنتبهت أمي قبل غيرها الى تبدل حالتي، وسألتني بعد أقل من أسبوع على ذلك اليوم مبتسمة:

– مابك؟ ليت ذلك حدث قبل عام أو عامين!

– ما الذي حدث؟ ما تقصدين؟

وكانت تضحك! لأنها خمنت أن أحداً من أقاربها قد القى بشباكه على إبنتها، كانت تعرف أن أحدهم يحوم. نصف تخمينها كان صحيحاً، فالشبكة قد ألقيت عليّ، ولكن نصفه الآخر كان مستحيل الحدوث. بعدها توالت الأيام، وأنا طائرة. كل يوم يزيدني غلواً في طيراني، لكني لم أنتبه الى أن البنادق كانت تتبعني، وأن الصيادين قد تناثروا في البراري يرومون إسقاطي. كانوا يتابعونني منذ أن نما ريش جناحيّ. قبل هذا التأريخ كنت أبحث عن نفسي، من أنا؟ ماذا أريد؟ عرفت أن ذخيرة تدليلي تسير الى نهايتها، أنا الآن لا تغريني الشوكولا، ولا مدن الألعاب، ولا مسلسلات التلفزيون، فقد شبعت منها كلها ولم أعلم وقتها أن في ذلك إشارات لهم لكي يأخذوا حذرهم. كنت حتى ذلك التأريخ أنظر لنفسي كبنت محظوظة، لا يعوزها شيء، لكني بعد ذلك المساء، أحسست بنفسي قليلة حظ في كل حياتي السابقة، فلمَ لم التق به من قبل؟ في ذلك اليوم وجدت نفسي الضائعة. لم يكن حديثنا الأول طويلاً، بضع دقائق، لكني أحسست عندها بطمأنينة لم يكن تفسيرها واضحاً، فما معنى أن تؤثر دقائق قليلة مع إنسان في حياة آخر لتقلبها كلها؟ لم تكن الجمل ككلمات ولا كمعنى هي ما قلب حياتي، بل الرسالة الخفية التي إختفت خلف الكلمات، ضياعي في إدلهام العينين الحزينتين، هو ما قادني لمسالك واجهتني بصورتي ووضعتها أمام نفسي، هناك وجدت روحي! لم يكن وقحاً. الوقحون في عرفنا نحن المراهقات، هم هؤلاء الجريئون المتأنقون، الذين تتطاير من عيونهم الرغبات الوقحة ونوايا إيذاء الغير. هؤلاء هم من نحاول تجنبهم، وإبداء أكثر أشكال الصدود تأثيراً معهم، غالباً الصمت المقرون بنظرات إحتقار، ثم الهروب بأسرع ما يمكن. هذا هو تاكتيكنا لا بديل عنه. وهؤلاء هم من يلجأ

لمحاصرتنا نحن الفتيات في الطرقات، وإستغلال إزدحام المواصلات للإلتصاق بنا وتضييق الخناق علينا، فما الذي تستطيعه فتاة محاصرة في باص نقل عام؟ هي لا تجروء على الإحتجاج، لأن في ذلك إشارات تواطؤ، ولو إستسلمت سيظنونها فريسة سهلة:

– وراءها، التصقت بها ولم تعترض!

– خلفها، قلت لها ماهذا الصدر كأنه جبل قاسيون ولم ترد!

– وأنا قلت: وحياة الله أحلى من عيون سميرة توفيق..فإبتسمت!

– لنلحقها!

سلاحهم الماضي، هو ذكوريتهم التي تجعلهم يخوضون المغامرة، ولا يحملون من توابعها شيئاً. هؤلاء القوم، هم من كان يعترض قوافلنا طوال التأريخ، سيماهم في وجوههم، لا تكاد واحدة منا تخطئهم، هو لايشبههم بشيء! لا نظرته تشبه نظراتهم، ولا إعتراضه القافلة يماثل إعتراضهم. هو إعترض القافلة كمن يريد أن يطلب شيئاً، لا كمن يريد أن يسلب شيئاً، كأنه يقول "ليست هذه طريقتي لكني مُجبر عليها!"

وبعد أن إزددنا إقتراباً من بعضنا حتى كدنا ننسى الحدود الفاصلة بيننا، ضرب القدر ضربته الموجعة ففرقنا. يحدث هذا دائماً لهذا الكائن العاقل المسمى بالإنسان، المهووس بقدرته على التحكم بمصير الأرض ومن عليها، عندما يتوهم أنه إمتلك مفاتيح مصيره وسعادته في هذه الحياة، فتتظافر جملة

من عبثياتها لتخطف منه كل ما ملك بلحظة واحدة، وتتركه عار من كل شيء!

من أين أبدأ؟ من أول معركة إنكسرت بها؟ وكيف سيكون بوسعي وصف معركة وأنا أول قتلاها؟ أنا الآن بعد مرور سنين على تشريح جثتي أعيد لذاكرتك تفاصيل تلك الأيام حين كنا معاً، فالكثير مما كان، لم تعرفه بسبب تسارع الأحداث. ربما يكون الحديث عن مثل هذه الأمور بعد كل هذه السنين أمراً مضحكاً. كان مساء يوم جمعة عندما زرتك بدون موعد ثم مادت بي الأرض، أنت لا تدري للآن أنني كدت أسقط على وجهي، عندما لمست أصابعي معطفها وحقيبتها المركونة في خزانة ملابسك! لكني بعد أن رأيت ما يدل على وجود إمرأة، تستعد لأن تتجمل لحبيبها، الذي هو حبيبي، لم أعد أر ما حولي، ولم أتمكن من فك عقدة لساني. كنت أنت أثناء ذلك تحلق وجهك مترنماً بمقطع أغنية، فأدرت وجهي أولاً الى جهة الباب، ثم دخلت الحمام وبدأت أنتحب، قلت لنفسي، هو إذن مثل غيره، حسبني غائبة فحلت الأخرى محلي، ترى هل يعقل ما أرى؟ انا التي ركلت العالم كله وإخترتك أنت..أنا التي عاندت العالم كله من أجلك، هل تغشني؟ أيعقل أنني توهمت بك؟ جن جنوني، وإختلطت عليّ الامور، لكني لم أجرؤ على البوح لك، كنت خائفة من فقدانك الذي لم أكن حتى أقدر على تخيله، لذلك صمتُّ ثم غادرتُ بعذر سريع، كما لو كنت ميتة. هناك عاندت مشاعري، كل مابي يجرني اليك، لكن كبريائي إنتصر، ثم داهمني مرض دام أسابيعاً. بعدها لم أجد في نفسي القدرة على الحديث معك. ترى ما الذي سأقوله لك؟ كيف سأبدأ؟ هل أسألك بسذاجة اللاتي كنا نتندر منهن، وأحكي عن الحقيبة والملابس؟ وكيف سأبرر ذلك أمام نفسي؟ أي الكلمات أنتقي؟ ومن يضمن لي أن لا تخرج

كلماتي عن السكة التي أريدها أن تسير عليها؟ هل أكتب كلمات إمرأة عاشقة لا تقوى على تصور فقدان حبيبها؟ كيف أقول لك أنني طُعنت على يديك، لكنني آمل منك أنت علاجي؟ بل ولا أتقبل علاجاً الا منك؟ كنت أنتظر أن تبادر أنت لتوضيح الموقف، كان يكفيني، مؤقتاً على الأقل، إعتذار منك يسكنّني فأكف عن الإختضاض، فلا تتهاوى دواخلي على بعضها، كانت بضع كلمات منك تكفي، لكي لا تنسف قناعاتي بأنك أجمل وأنبل وأنقى من صادفت بحياتي، لكنك أنت الآخر سكتت، كأنما لكي تؤكد شكوكي! وبعد أسابيع من الإنفراد بدموعي، وجدت نفسي تبرر لك وتدافع عنك ضدي. لقد بقيت وحيدة مع عينيً متمسكة بمقاضاتك، في وقت وقفت كل حواسي الأخرى ومشاعري وأحاسيسي، معك وضدي أنا. تماثلت للشفاء بعد أن وجدت أن حبي لك أقوى حتى من شكوكي كلها. بدأ عقلي يعمل لا قلبي، كان عقلي يمطرني بأسئلة تقريع: الا يمكن أن تعود الحقيبة والمعطف لإحدى قريباته أو معارفه مثلاً؟ أو هدية منه الى واحدة؟ إسترجعت أيامي الأخيرة معك بتفاصيلها، لم يكن في سلوكك معي مايثير الشبهة، بل أنني تعمدت فتح الخزانة مرتين، وأنت تنظر لي ببراءة وثقة خلال حلاقتك، لم يثر ذلك فيك شيئاً. حاسة الأنثى أنبأتني، ولكن متأخرة، أنك لم تكن محترساً من شيء، وأنك كنت واثقاً بي وبنفسك. ضحكت مشاعري مني. كان علي وقتذاك أن أتخلى عن غباء المرأة الشرقية التقليدي وغيرتها، لأعرف أنك لست أحمقاً ولا نزقاً ولا صلفاً الى حد أن تترك مع ملابسك، معطفاً نسائياً وحقيبة نسائية لصاحبة سرية لك، وفي المكان الذي أعلق فيه معطفي كل مرة خلال زياراتي لك. ذلك ما لايفعله مراهق مبتدئ. ولكن من أين لي بالعقل آنذاك؟ كنت قلباً فقط! في النهاية إنتصر حبي لك على وساوسي، بل وعلى حواسي التي رأت

ولمست المعطف والحقيبة! وبذات الوقت الذي بدأت فيه قطعان الغيرة المتوحشة الإنسحاب التدريجي من أوردتي، وبعد أن عاد لوجهي لونه، وقررت فيه التسامي على الحادثة كلها والإتصال بك، فوجئت كما لو أنني أصبت فجأة بالجذام. صحوت بعد ليلة معتادة، لأجد أن لا أحد من العائلة يريد الإقتراب مني، لا أحد يهتم بوجودي، أو يبدي رغبة بالحديث معي. كانوا كما لو أنهم إكتشفوا فجأة أنني لا أنتمي لهم، وانني قد هبطت عليهم من السماء. الجميع ينظر لي بإزدراء، وأنا لا أفهم شيئاً مما يدور حولي. لم أجد أحداً يعينني على معرفة ما حصل، الى أن اسرّت لي إبنة عمي والخوف يهز أوصالها، أن رسالة سرية غريبة مجهولة المصدر، وصلت الى عمي على عنوان فندقه. كانت الرسالة التي تشبه التقرير المصور، تروي بالتفصيل علاقتي بك مع أربع صور مرفقة تجمعنا، واحدة من هذه الصور هي التي التقطها لنا مصور جوال أمام المتحف، وكانت تبديني كما لو أني نائمة بحضنك، رغم أنني قد ملت بإتجاهك فقط، أتتذكرها؟ كان صاحب التقرير مطلعاً على الكثير مما بيننا، لكن ما أراد إيصاله هو أنك صياد عذارى متعدد العلاقات، وهو ينصح عمي بلجم إبنة إخيه "الماجنة"، ومنعها من الإتصال " المشين" بهذا الشاب المتهور..والا فأنه سيشهر كل ما يعرفه علناً!

سألتُ إبنة عمي بإنفعال: وأنت مثلاً، هل تعتقدين أنني فاسقة؟ أجابتني أن الجميع يظننوني كذلك فالصور والشهود والرسائل..والمعلومات..كلها تدينني!

كنت مشوشة الى حد أني ضيعت درب التفكير السليم. أول الأمر ربطت بين الرسالة والمعطف والحقيبة، ففكرت مثل مجنونة أنها كلها مجتمعة رسالة طرد منك، سألت نفسي: من لديه صورنا سواك؟ بعد فترة، تماسكت وحاولت

العودة للمنطق الذي غادرني. كلا، شكوكي لا يمكن أن تكون صحيحة! كم هو سخيف مستوى تفكير المرأة التي تتعرض لعملية سرقة لقلبها؟ تضيع عقلها تماماً! أنت لايمكن أن تفعل هذا، ولو أنك أردت الإبتعاد عني لأي سبب، كان لديك الكثير من السبل لإبلاغي، إذن من الذي فعلها، ولأي غرض؟ كانت الخطة محكمة وقد لعب مخططها المجهول لعبته بخبرة خبير محترف. أضرمت الرسالة حريقاً هائلاً في بيتنا. سجنوني في قبو معزول. فتشوا أمتعتي قطعة قطعة، وعثروا على رسائلك القديمة. صادروا صورنا التي خبأتها، فكانت دليلهم على صحة التهمة. إتفقوا مع دائرة البريد لقاء رشوة، فكانت رسائلك لي تصلهم دون أن أعرف محتواها. عشت الرعب بأبشع صوره عندما كانوا يقرأونها بصمت وعيونهم تتوعد. بعد أسبوع، سيروا واحداً من اقاربنا الأثرياء يخطبني لإبنه. رفضت وهددت..ولم يمض أسبوعان حتى تقدم آخر وكأني المرأة الوحيدة على الأرض! أعدت ماقمت به بعناد، ولما يأسوا من تبدل موقفي، هددوني بقتلك. لم أشك قط بجدية تهديدهم، كانوا قد إستعدوا لذلك. لقد أصابوا مني مقتلاً حين هددوني بما أخشاه. كان الفتية المسلحون يتداولون إسمك وعنوانك فتناهبتني الكوابيس ورأيتك مراراً ممزقاً بسيوفهم. هل أنتحر أم أدعهم ينحرون حبيبي؟ إمتنعت عن الأكل، ثم تعرضت لإنهيار عصبي وجسدي قربني من النهاية فنقلت الى المستشفى، وبقيت غافية بين الحياة والموت لا طاقة لي على إتخاذ أي قرار. لقد سُدّت المنافذ أمامي. في تلك الأثناء مدت لي السماء حبل نجاة لم أصدق وقتها بوجوده. كان واحداً من معارفنا ممن هم على صلة وثيقة بأهلي، وكانت أخته فتاة كتومة، وديعة دائمة الإتصال بنا، ومن القلة النادرة التي تعرف قصتي معك بتفاصيلها. أما هو فقد كان رجلاً كبيراً، مهموماً غارقاً على الدوام ببحر من الوجوم، منطو،

في ملامحه شيء غامض قاس، مخيف بعض الشيء. كان من جيل عمي، وبقي أعزباً لسبب لا يعرفه أحد. كانت ملامح وجهه غير المريحة تحمل آثار جدري من زمان الطفولة، لم يسبق لي أن حادثته على إنفراد ابداً وكنت أنظر له على الدوام نظرتي لرجل غير سوي تماماً..فاجأني هذا الرجل في ذروة أزمتي، فزارني في المستشفى بصحبة أخته، وإغتنم إنفرادنا لبرهة، ليدس بيدي قصاصة ورق مدهشة يعرض فيها حلاً وجدته هبة من السماء:

" أختي العزيزة "زهور"، قالت لي الحياة: لايكفي ان تكون مقتنعاً أنك على حق لكي تتوقع تعاطف الآخرين معك. يجب أن تفعل الكثير لكي توضح قضيتك! أنا على إطلّاع سابق، عن طريق أختي" ليلى" على قصتك بتفاصيلها. أعرف علاقتك بالرجل الذي اخترتيه، وأنا معجب باخلاصك له ومقدّر لإصرارك على رفض غيره. تبريداً للأزمة، ولكي يكون بامكانك التقاط الأنفاس، أعرض عليك الحل التالي وأنت حرة بقبوله أو رفضه ولكن، لا ترفضيه أو تقبليه الا بعد تفكير وإقتناع: انا سأتقدم لخطوبتك شكلياً كي أحميك من الذئاب. أقترح عليك أن لا تمانعي ومثّلي دور الموافق، عندها ستكونين بمأمن، فانت مخطوبة شرعياً ورسمياً لي، وسوف تمر العاصفة بسلام، وبعدها تستردين بهدوء قرارك الذي سلب منك. هذا هو الحل الوحيد كما أرى! إنتبهي: إذا ما قبلت الإقتراح، لا توافقي مباشرة وتقولي نعم! حاولي أن تدّعي التفكير بعض الوقت، حتى يتأكد لديهم أن ليس في الأمر لعبة مني ومنك".

منحتني الوريقة السحرية حلاً لم أكن أحلم بمثله، كانت تلك مبادرة من شريف قل نظيرة في زمني النذل، ومحيطي العدواني غير الشريف. خجلت من نفسي

لسلوكي الجاف فيما سبق مع هذا الملاك الصامت، هذا الفيلسوف الذي حسبته أمياً، يالنا من أغبياء كم تخدعنا المظاهر! أجبته شفوياً بكتاب شكر وإمتنان مبلل بالدموع، وطلبت منه بهمس الإسراع بالتقدم الى أهلي قبل أن يتقدم آخر، فأشار اليّ بلطف أن أسارع بتمزيق الورقة خوفاً من إفتضاح الخطة، وأن أترك الأمر له، ولاا أفكر بشيء آخر. أخذ الوريقة مني ومزقها بنفسه وقال: الآن كل شيء تمام! جربت وفقاً لنصيحته أن العب بالزمن، أن أضمن قبل كل شيء تخليهم عن فكرة المطالبة برأسك، عبر التأجيل والتحايل بعد أن هُزم رفضي. كان أملي أن يكون الزمن حليفاً لي، فما دام الذي لا تريده لا يحدث الآن، سوف يمكن توقع حدوث ماتريده، فيما بعد..تلك كانت فكرتي. نُفذت الخطة بسرية تامة. وبعد مغادرتي المستشفى بأسبوعين تمت "الخطوبة" بعد أن ترددت أولاً في القبول حسب الإتفاق. توقعت أن تثير موافقتي على هذا الخاطب إستغراب أهلي، فأنا بعد كل المعارك السابقة والعناد الذي أبديته، قبلت بمن هو بسن عمي ولايمت لطبعي بشيء، وبعد أن رفضت ذوي الجاه الأكثر فتوة وجذباً من شباب العائلة الأكثر تحضراً، وتوقعت أهلي يسألون مذهولين:

" هل جننت؟ كيف لك أن ترضي بهذا الرجل المخيف الذي يفوقك بالسن ولا تربطك به أية روابط، و بعد أن رفضتِ الجميع؟" وتخيلت نفسي مزهوة بقدرتي على تمثيل الأدوار الخطيرة فأجيبهم: "كفى أبي ذلاً، وكفاني عناداً، وكفاكم كلكم عذاباً بسببي..أنا نفسي تعبت..هذه هي قسمتي سأتزوج هذا الرجل الخيّر فهو أكثر من الآخرين شرفاً". توقعت الشكوك من أمي بالذات التي ستخاف أنني قبلت مرغمة، وأني سأندم فيما بعد، وربما أخطط لالحاق الأذى بنفسي. لكن الغريب أن أحداً لم يسأل أو يشك أو يستغرب، أو يفطن لظروف صفقة

"الخطوبة" ولا للهدف المرجو منها. بعد إسبوع من الخطوبة التي بالغ شريكي بطقوسها، فأحظر شيخ المسجد زيادة في التمويه، كنت أستعد لترتيب هروبي، بعد أن أتاح لي وضعي الجديد إسترداد وثائقي بهدوء وبدون ضجة. مر اسبوعان، وضحى أحد الأيام وصل سمعي عبر فتحة الباب ضوضاء لنساء ذكرني بأهوال الشهرين الماضيين، ترى ما الذي يجري؟ هل هو خاطب آخر لا يعلم بأنني مخطوبة؟ لكني هذه المرة لم أهتم، فأنا بأمان. فجأة دخلت أمي الى غرفتي غير المرتبة، التي تعمدت إبقاءها مكاناً لفتاة تريد أن تعلم الجميع أنها غير راغبة بالترتيب، والتنظيف والحياة الزوجية، والأمومة. دخلت ومعها امرأتان، واحدة مسنة أعرفها، والثانية لا أعرفها ولم أرها من قبل. بادرت المسنة بالقول مبتسمة إبتسامة عريضة كشفت عن الفراغ الذي خلفته أسنانها التي تساقطت:

– إستعدي حبيبتي سنذهب للسوق، لم يبق على الموعد الا اسبوعاً!

لم أفهم الموضوع فنظرت اليها ببلاهة مستفسرة، قالت:

–الزفاف قريب، علينا الإنتهاء من إختيار الملابس!

سمعت الجملة ولم يكن الحدث يعنيني فإستفسرت: زفاف؟ زفاف من؟

– ما هذا؟ لا تخجلي، كلنا مررنا بهذه المرحلة وهذه الأيام!

أردفت أمي:

– نعم فخير البر عاجله يا إبنتي، الخطوبة والقران لا تدومان للأبد على أية حال!

أكملت الأخرى الغريبة:

– نعم، إطرق الحديد مادام حامياً، علامَ التأخير؟

فجأة كما لو تفجرت قنبلة داخل رأسي! فهمت أن الحديث يدور عني أنا! شلّت الصدمة قدرتي على الكلام، فتلعثمت ولم أجد جواباً سوى الصراخ الهستيري:

– أنا .أنا .ماذا دهاكم؟ أي قران؟ اي زفاف؟ لم نتفق على الزواج..أي زواج؟..أنا لم أتفق على هذا..

صاحت النساء غاضبات:

– ما هذا الكلام؟ هذا كلام مجانين، على من تلعبين؟ أنت قبلت بإرادتك، فما الذي يأتي بعد الخطوبة؟ هل تظنين الدنيا لعبة بيديك؟

صحت كالمجنونة:

– نعم وافقت..ولكن على خطوبة..خطوبة فقط، هذا سوء فهم لاشك..

ركضت هاربة بملابس البيت كالمعتوهة، ولم أتوقف الا وأنا في بيت خالتي. هناك حاولت أن اشرح الموضوع، لكني وجدت كل تصرفاتي تدينني، فكنت

أسمع: هل جننتِ! أنت رفضت كل من تقدم لخطوبتك، وقلبت الدنيا على رؤوسنا، ثم وافقت بإرادتك على هذا، آخر الخاطبين، فممَ تهربين؟

من ترى سيصدقني لو قلت أنه إتفق معي على حمايتي فقط؟ ما هو دليلي وقد مزق الوريقة التي كتبها لي؟ عرفت أنني سُرقت. نعم سُرقت. لقد كانت خطوبة وعقد قران معاً، "نعم" التي قلتها وإعتقدتها مهربي، كانت أنشوطة عقدتها وأدخلت رقبتي فيها بنفسي! كل شيء عاداني، حتى برائتي وثقتي بمن إعتقدته يستحق الثقة..كل العالم. حتى ما تصورته نباهة مني وقف ضدي. من مكان لجوئي في بيت خالتي، حاولت قبل كل شيء أن أعيد الى ذاكرة الذي خطبني إتفاقنا، أذكره بما قال، طلبت الإختلاء به لكي أذكّره مرة أخرى أنني قبلت الخطوبة وثوقاً به، أنني لست مناسبة له فمهما سيكون ما سيقدمه لي، سوف لن يفلح في حمل قلبي على الخفقان له. طلبت مقابلته بحضور خالتي، فلم يرد عليّ ولم تتحمس خالتي لمتابعة الأمر. ربما كان الجميع ينظر لي كمجنونة. جربت أن أكتب للخاطب مادام اللقاء متعذراً فكتبت: "أخي الكبير العزيز، ما زلت أطمع بتفهمك، وما زالت حواسي كلها متجهة لأن ترى رجولتك وقد عبرت عن نفسها بابهى صورة، أنا أختك لذلك لا أجد حراجة في مصارحتك أن قلبي مازال مشغولاً بالذي أريده والذي كنت أنت من قدر بي وفائي له، هل ترضى رجولتك بزوجة تحب آخراً؟ لايمكن أن يكون جسدي بمكان وقلبي بآخر. أنا سأكون شاكرة تفهمك مدى حياتي لو ساعدتني وأخرجتني من هذه الورطة، أنا أختك، أناشد فيك أخلاق الفرسان أن لاتساهم بذبح أخت لك، الم تعرض عليّ حلاً للأزمة؟ الم تعاهدني على مساعدتي؟ أرجوك أن لاتغصب أختاً لك على قبول ما لا ترغب، فتعيشان الجحيم معاً أنت وهي. أنتظر منك ما تنتظر الأخت الصغرى من أخيها الكبير، أني

ألتجئ اليك، أغثني أرجوك و سوف لن أنس لك صنيعك ما حييت وستبقى في ذاكرتي مثالاً للأخلاق والضمير الناصع"

فكان جوابه لي لا يصدقه العقل: "لابد أن تعرفي أنك ستكونين زوجتي وفقاً للشرع والقانون، أنا كنت أريدك لي منذ زمن طويل، وستكونين زوجة طائعة ولن تغير من هذا كلماتك، و حتى تعرفينني بشكل جيد ولا تتوهمي أقول لك سأقطع رأس هذا الذي تفضلينه عليّ وأرميه للكلاب!"

لو كان بأمكاني أن أبتلع نفسي لإبتلعتها بدقيقة واحدة، ما الذي يجري يا عالم؟ ما الذي كان بوسعي أن أفعله؟ يعرف بماضيي ويريدني زوجة! يعرف بما أسماه ألاعيبي، أي علاقتي بك ويصر على أن أكون له! سأقتل نفسي! نعم لا حل أمامي سوى الإنتحار. تظاهرت بالسكون، ثم أتيت بكل ما موجود من أدوية حوتها صيدلية منزل خالتي، وخلطت مايذوب بالماء منها مع ما وجدته من سوائل دون تحديد في كأس واحدة، وشربتها بدفعة واحدة، ولم أحس بنفسي الا في المستشفى. بقيت هناك عشرة أيام أتأرجح بين موتين، موت يخلصني مما أنا به، وحياة تشبه الموت. خضعت لعناية مركزة لإزالة السموم التي تشبع بها دمي، لكن الشرطة شكت بأمر ما فأرادت التحقيق بالحادث. عند هذا الحد تغير الموقف مني، فإتجهوا لي يتوسلون هذه المرة أن أنسى الماضي ولا أفكر به، فالخطوبة قد فسخت، وعلي الآن أن افيد أمام الشرطة أن السبب كان فترة كآبة مررت بها، وكان ما أرادوا. بعد محاولة الإنتحار، بدا وكأنهم وعوا ما سببوه لي، بينما زادت ثقتي بنفسي فالعاصفة قد مرت بسلام. كان لابد لي من تهيئة نفسي للقياك! حدث آخر ضاعف من إنتعاش آمالي بالانعتاق، إستلامي رسالة من معهد التجميل في نيقوسيا، وهو

المعهد الذي كنت أزوره لقص شعري كلما زرت قبرص، تفيد أني فزت بجائزة إستجمام مجاني لفترة اسبوع. ولاقت الفكرة قبولاً من معظم من في البيت: "إتركوها ترفه عن نفسها قليلاً، لقد عانت الكثير.."

كان ذلك تحولاً إنقلابياً في موقفهم مني. كانت هذه فرصتي الفريدة لكي أنصرف لنفسي لأسبوع. رافقتني إبنة عمي وإبن عمي وإبنة خالتي في رحلة الإستجمام التي إنتهت بجلسات مساج، وقص شعر، وتزيين مجانية، فبدا كما لو أن الحياة قد كافأتني على إحتجاجي العنيف وإصراري. عندما عدت، تأكدت من قوة تأثير ما حاولت القيام به إذ فوجئت بتغير مزاج العائلة التي إستقبلتني بود وتبريكات، لا تنسجم مع فعل بسيط كقص الشعر وتزيين الوجه. أدركت العائلة أخيراً أنها قست عليّ، فوجدتُ ضرورة في التعبير عن الشعور بالعرفان لها على ما توصلت اليه، وغيرت من طباعي الحادة كأنما أقول: "أنا إبنتكم في كل شيء الا بما أردتم أن تفعلوه بي"

أنا الآن أكتب هذه السطور بعد سبع سنوات على الحادث. جسدي يرتجف وأشعر بالغثيان..لكني لابد أن أستمر بتدوين ماجرى..مساء اليوم التالي لعودتي، زارتنا مجموعة من نساء الاقارب المتزينات، قالت إحداهن وهي تستعرضني:

– ياربي كم تبدين ساحرة؟ أين تجملتِ؟ البسي على عجل ليس هناك أجمل منك لتزيين حفلنا!

– أي حفل؟ لم أسمع به!

– وكيف ستسمعين به وأنت في قبرص؟ "غادة" قريبة "ام مروان" خطبت و تريد الترفيه عنا في بيتها! هي الحت على دعوتك!

غادة لم أسمع بأسمها من قبل، "ام مروان" نعم، لكني سوف لن أمانع في الحضور. لم تكن لدي رغبة مخالطة نساء الأقارب، لكني رافقتهن لكي أدشن عهداً جديداً خال من التوتر. باختصار لكي أبدو فتاة طبيعية، لا تلك النافرة الحانقة الرافضة. وصلنا بعد قرابة ساعة لفيلا فخمة، ثم إنحرفت سيارتنا وسلكت باباً جانبياً وترجلنا لندخل بهواً مزيناً. كانت حفلة كبيرة تتناسب مع فخامة الفيلا وحشد السيارات الفارهة التي تناثرت في الساحة الواسعة المقابلة لها. سمعت الكثير من عبارات الإعجاب: ماشاء الله ما أجملها، تسعد بزفافها إن شاء الله، محظوظ عريسها، وكنت في داخلي أزهو بالنتيجة التي وصلتها وأقول: كم حاولوا ؟ لكنهم فشلوا في حملي على الاذعان، كل هذه الزينة هي لك، لك وحدك لاشريك لك! أمسى واضحاً لديّ أن النساء يرمن مواساتي والتضامن معي، بعد ما مر بي من أيام عاصفة. إقتربت مني مجموعة فتيات لم أرهن من قبل يسألنني عن الصالون الذي تزينت به، ثم بدأت الحفلة، وأتت الراقصات يتمايلن، كما يحدث في البيوت الارستقراطية وكنت أنا في مزاج رائق لم أعشه منذ شهور. الححن علي أن أرقص، وضجت النساء بالكلام المشجّع:

–هيا، دعينا نرى هذا القوام الفتان يتمايل، هذا يوم فرح، القي بهمومك عن كاهلك..لكن ليس رقصاً على مقطوعات البيانو، نريد رقصاً عربياً!

وبعد أن رقصت دقائق، إنبهرت الحاضرات وصفقن لي، ثم صاحت واحدة:

–بديع ، بديع..لكن يابنات من منكن تستطيع الرقص بالعباءة العراقية؟

تقدمت واحدة، ثم تبعتها أخرى ورقصن تعثرت واحدة وكانت حركات الأخرى بطيئة كسلحفاة متعبة، فصحت بزهو:

– أنا أرقص بأي نوع من الملابس!

–حتى ببدلة العرس الضيقة الطويلة؟ هي أصعب رقصة، لايمكن أن لاتتعثر فتاة بالبدلة!

قلت منتشية:

– أنا أرقص حتى بملابس رائد الفضاء

فضجت النساء بالضحك ثم أتت إحداهن ببدلتي عرس فاخرتين وقالت:

– هذه بدلة عرسي التي لم أطق إرتدائها لساعتين، وهذه بدلة عرس أختي، سترقصن ونرى من منكنَّ ستقاوم!

أخذت إحدى الصبايا واحدة ولبست أنا البدلة الأخرى التي كانت تناسبني تماماً، وتمايلتُ وصورتك أمامي. رقصت حتى شعرت بالتعب. رقصت لك فأنا لم أر أمامي أحداً الاك! ويبدو أن رقصي قد أعجبهن، خاصة بعد إستسلام المنافسة فصورتني إحداهن وهي تقول: "ليس هناك أجمل من هذه الصورة لتزيين غرفتي، أنت ملكة، فقط إبتسمي! قلت لها بشرط أن أستلم

نسخة منها، ثم أتت أخرى وصافحتني طالبة تصويرها معي. إبتسمت بفرح ووجهك أمامي، همست لنفسي: ستكون الصورة الأولى هديتي القادمة لحبيبي!

بعد قرابة ساعتين بدأت النساء المحتفلات بالتهامس، كان واضحاً أن شيئاً ما حدث وعكّر مزاجهن الرائق فشرعن بالإنسحاب التدريجي من الصالون، و تناهى الى سمعي أن إحدى الفتيات المحتفلات سكرت وإفتضح أمرها، لكني لم أكن متحمسة لمعرفة تفاصيل الحادث. في كل الأحوال أنا لبّيت رغبتهن وساهمت بتغيير فكرتهن عني الى حد ما. بقيت بمفردي الى أن قدمت واحدة لم أرها من قبل، كان جسمها يميل لبدانة طبيعية لامرأة تخطت الأربعين، إعتذرت وإقتادتني بلطف الى غرفة أخرى مسدلة الستائر، بدت كغرفة نوم مؤثثة بأناقة مفرطة، الفراش الوثير معد بعناية، وأريج الياسمين المنبعث من أنحائها يدعو للإسترخاء. الى يسار الشباك، علق رف بباب زجاجي مقفل حوى قوارير عطور ومساحيق تجميل أجنبية، شعرت بحاجة لكسر الصمت فأردت أن أطري على تأثيث الغرفة، لكن المرأة بادرتني بابتسامة لطيفة معتذرة:

– إرتاحي هنا، إعتبري نفسك ببيتك، ببيتك تماماً، نحن أهل..

–لاشك أنها غرفة نوم إحدى بنات البيت ياخالة! قلت

–نعم، أصبت، غرفتها المستقبلية هي لم تتزوج بعد، لكن في القريب العاجل إن شاء الله. ردت المرأة

–باركي لها نيابة عني، هل هي موجودة معنا في الحفلة؟

–في الحفلة؟ نعم، نعم، موجودة

ثم وضعت المرأة كفها على كتفي وهمست بإذني:

–إرتاحي هنا، كل شيء سيكون على مايرام! هنا ستكونين بأمان..كلها دقائق معدودة!

–لم أفهم أين باقي النساء؟ هل حدث شيء؟ هل يمكنني تغيير ملابسي فأنا لا زلت ببدلة الرقص وثيابي بقيت في الحمام، ثم أن وقت عودتي قد حان!

–لم يحدث الا الخير لاتقلقي من شيء سترينهن جميعهن، وتغيرين ملابسك فيما بعد، كلنا مررنا بهذه التجربة، صعوبة عابرة ستزول!

أردت أن أقول: أنا لم أمر بهذه التجربة، أن أسكر بحفل عام! إبتسمت المرأة قبل أن تخرج، لكني رأيت في إبتسامتها هذه المرة شيئاً آخر فخفق قلبي. أردت أن أتبعها لكنها صفقت الباب ومضت بعجالة، ولم أعد أسمع سوى وقع نعلها على البلاط المرمري. فجأة، بلاسبب، تكدر مزاجي وودت الصراخ، إنتبهت الى أن الباب قد أغلق من الخارج، فانزعجت، هل أنا طفلة لكي يحجزونني حتى لا أعبث باروقة القصر؟ طال إنتظاري وأحسست بوحشة تغمر المكان كله. لم أعد أسمع أية أصوات خارج الغرفة، و قبل أن يعتم المساء، رأيت من خلف ستارة الشباك كيف ضُرب طوق الحصار على الغرفة التي أنا بها، ما الذي حصل؟ كأنما ثمة من يخاف عليّ، مثلاً..كي لا أعود الى البيت لوحدي؟ لم كل هذه الحراسات؟ أم أن هناك من يخاف مني؟ ربما كنت في نظرهم مجنونة بعد الذي فعلت. أعدت على نفسي كلمات المرأة لي

وتطميناتها، وإقتربت من الشباك ذي الستائر المسدولة علّني أرى أحداً أعرفه، ومن فتحة ضيقة لمحت فجأة سيارة توقفت وترجل منها بضعة أشخاص، وسمعت خليطاً من أصوات، فإنهارت قواي وسقطت على الأرض..مختنقة بصرخة شقت صدري: قتلوني!

في تلك اللحظة المرعبة، عرفت أن الواقعة قد وقعت! أدركت وقوعي في المصيدة! نعم، لقد تم أسر النمر الهائج المتمرد بنصب هذا الفخ الذي لايمكن لبشر مثلي تصوره. كانت خطتهم في التعامل معي قد تغيرت من تهديد علني، الى عمل غاية في السرية، كأنما كانوا يستعدون لغزو حصون الروم. خدعوني بخدعة لم تخطر على بال الشيطان نفسه الذي خدع المرأة للمرة الأولى بتفاحة. لقد أرسلوني لأجمّل نفسي لكي أرضي مغتصبي! لكي أجيئ بنفسي لموتي! لأرقص في يوم إنتحاري!

نسجوا خطتهم لكي أكون جاهزة لليلة الزفاف كما أية عروس! لعبوا أدوارهم ببراعة قل نظيرها، فتظاهر بعضهم بالتردد في الموافقة على سفري، لكنهم في الواقع خططوا كل شيء. لقد هندسوا ليلة إغتصابي باستخدام تكنولوجيا الخدعة، اليست الحرب خدعة؟ إنتبهت الى خلو الغرفة وما حولها مما يمكن له أن يتسبب بقتل إنسان، النار والحبال، وحتى الكهرباء أطفأوها، وإستعاضوا عنها بقنديل علقوه بمكان عال لا يطال. كانوا يخشون الفضيحة الكبرى: أن تنتحر عروس إبنهم! وحتى الإنتحار لن ينفع كحل بأعرافهم، فلو كان إنتحاري الفعلي يحل العقدة لفعلت، لكنها عقدة مستعصية، فعندما أنتحر سيطالبوك بدمي وعندما أعاند يطالبون بدمك! ذلك ماهمست به إبنة عمي بأذني أثناء زيارتي في المستشفى: "لا تعيديها ثانية لأنك لو مت سيعتبرونه سبباً في

قتلك". رتبوا كل شيء لكي يكون قبولي هو الحل الوحيد فكم هم موهوبون؟ عند تحديد ساعة الصفر إنسحب الحراس، بعد أن دفعوا بذي الوجه المجدور الى الغرفة، وأحكموا غلق الأبواب والنوافذ، ورأيت نفسي وجهاً لوجه في غرفة محكمة الاغلاق مع الرجل ذي الملامح التي كنت أخافها. مع شريكي في خطة الخطوبة الكاذبة. مع الذي توهمت به الشرف. كان نصف عار بوجه متوحش سال في أخاديده، التي تقاطعت كوديان، عرق كثيف، كان يشبه حيواناً ثائراً، شرع بلا أدنى مقدمات بالانكباب عليّ. صرخت به أولاً في محاولة إستنجاد أخيرة: هل هذا عمل يشرّف رجل؟ لم تجد صرختي على وجهه أثراً أبداً، كان ميت الروح، إندفع نحوي فقاتلت بكل قوتي، قفزت الى السرير وسددت رفسة أصابت وجهه فسالت الدماء غزيرة، عاود الهجوم كذئب جريح، فرفسته ثانية بين فخذيه، صاح متألماً، كان متسلحاً بحزام ذي عروة حديدية ثقيلة، خلع الحزام وأراد أن يسوطني مثلما يفعل المرء مع حمار حرن، لكنه أفلته فكسر خزانة العطور، بخفة مددت يدي وأمسكت بقارورة ثقيلة ورشقته بها لكنه زاغ عن ضربتي، فإرتطمت القارورة بالجدار، وإمتلأت أرض الغرفة بشظايا الزجاج. هذا ما أتذكره، بعدها لم أع شيئاً من حولي. لم يبق فيّ عضو لم أستخدمه في معركتي، كانت ليلة لاتنسى لم اكن أتوقعها تنتهي الا بموتي. رغم مايسببه لي تذكرها من ألم ممض، لكني سأدونها لكي تطلع على بعض ما عانيت. فتحت عينيّ على جمهرة من النساء يقفن على جثتي، وهن يحملن البخور ويلغطن بكلام لم أتبينه. كان الفراش مبعثراً يحمل آثار معركة كبرى، قمصان مدماة، وشراشف مهلهلة، ومرايا قد تحولت الى شظايا، وخصلات شعر، و أزرار متناثرة على الأرض، وقناني عطور مكسورة، وقوارير مهشمة..وبين الحطام كنت أنا أستلقي بملابسي الممزقة الموشاة

بالدم، وكدمات لاتحصى تتوزع على جسدي. كنت أحس خيولاً تجتاح خلاياي، ورماحاً تنغرز في أشلائي، وسكاكيناً تحاول قطع مفاصلي. وبعد أن عاد اليّ بعض الوعي بما أنا به، سمعتهن يرددن القصة فيما بينهن. سمعت كيف أنهم حملوا الذي كان يسمى عريسي، دون أن يعلم أحد من المدعوين، ونقلوه فجراً الى المستشفى جراء ركلتي اللتين سددتهما أسفل بطنه، والأخرى التي هدمت مقدمة أسنانه.

كن يقفن على جثتي كما لو يعاينّ نعجة نافقة:

– جابوك يا العاصي مكتْف!

– لها قوة حصان، حتى الطبيب صدق فعلاً بقصة الحصان الجامح الذي رفس العريس وهدم مقدمة أسنانه وكاد أن يخصيه!

– صرخة العريس قد طغت على دبكة الدابكين: قتلتني!

– أخو العريس ترك الدبكة وركض، هو أول من سمع الصراخ!

– لا ليس هو، إبن عمه كان يطوف حول المبنى بعد أن تأخر في "إنهاء الأمر"، وسمع الصرخة فهجم على الباب وحطمه ثم أتى الحراس..نعم إبن عمه، يقول أنه ظنها قتلته لما سمع الصرخة: قتلتني!

كنت أستمع لهذه القصة التي أنا بطلتها بعيون نصف مغمضة، وكأنها تأتيني من مكان بعيد في العالم الآخر الذي سكنته منذ الليلة البارحة. كانت القوة

تعوزني لكي أمسك بأقرب النساء اليّ، وأخنقها تحت قدمي حتى تموت. حتى تلك اللحظة، كنت آمل التمكن من النهوض، والركض بكل قوتي الى الخارج بمجرد أن تسنح الفرصة وتنصرف النساء عني، فأنا أفلحت في المقاومة ومنعت إتمام عملية إغتصابي. شيئاً فشيئاً، كنت أستعيد قدرتي على الإنصات فسمعت كلاماً جانبياً لإثنتين:

– المهم أن الليلة عدّت على خير..

قالت واحدة منهن بصوت مبحوح من الغناء على ما يبدو، فردت ثانية من مكان يقع قرب أذني اليسرى:

– خير؟ أي خير؟ بقي المسكين يحاول معها حتى الصباح!

أتى صوت ثالث لواحدة أفتى من السابقتين:

– أعمامه حذروه، إن لم تتم العملية سيفرغ أحد منا المسدس برأسك أو..برأسها!

رد صوت مثل فحيح الأفعى:

– بيني وبينكن، أنا كنت أتوقع أن يفرغه برأسها!

– ومن لم يتوقع هذا بعد معاندتها الطويلة؟ رفضت كل من تقدم لها، فقلنا أن السبب هو خشيتها الفضيحة!

ردت صاحبة الصوت المبحوح مقتنعة:

– نعم خير، المهم النتيجة، المحاولات أثمرت، والا تصوري لو أنه لم يتمكن..تمكن بعد أن ظنها ماتت، بعد أن أعادوه من المستشفى..

عند سماعي هذه العبارة الأخيرة أحسست بجسدي يبرد فجأة: "تمكن..المحاولات أثمرت؟" ماذا يعني كل هذا؟ هل يعني هذا أنني..أغتصبت؟ يعني أنني إنتهيت؟ هل قضى العريس وطره وأنا بين الحياة والموت؟ هل نام العريس مع جثتي؟ ياربي كيف تم كل ذلك؟..لقد قاتلت قتال مجانين، فهل فعلها الوحش رغم ضراوة المعركة وإستبسالي؟ كم تمنيت لو غادرتني روحي! في تلك اللحظة المهولة، إجتمعت قوى الدنيا كلها بجسمي، نهضت فجأة كما تنهض جثة في فيلم خيالي، مثل الضفادع تقافزت النساء فزعاً من حولي، رميت نفسي عليهن ماسكة إحداهن من شعرها، وبدأت أعضها ككلب مسعور وأرفس الأخريات كثور هائج، ليتعالى صراخهن كما لو أن حريقاً قد شب فجأة، وبعدها لم أر نفسي الا في المستشفى. هكذا إذن إنتهت " أجمل ليلة في العمر"! سرحني المستشفى بعد شهر مثل هيكل عظمي يمشي على الأرض. كنت خاوية، تائهة بلا رأس، وإحساس عارم بالقشعريرة يجتاحني، كما لو أن جيشاً من النمل قد إنتشر بأحشائي. أيقنت أنني أضعتك فتلاشت رغبتي بالحياة. كنت أعاف الأكل، والنوم، و قد سكنني في تلك الأيام جنون من نوع خاص، كنت أحلم في يقظتي ونومي أنك آت للبحث عني، فتتناهبك سيوفهم تمزيقاً. جربت أن أبعث لك بطاقة قلت فيها كلمتين: لا تأت، لا أمل! لكنها عادت لي بسبب خطا العنوان، معنى ذلك أنك غيرت مكان سكنك، وضعت مني لا أعرف اليك سبيلاً. ترى كيف يمكنني تحذيرك

منهم؟ لا فائدة أنا إنتهيت! تلاشيت! طيلة تلك الفترة كانوا غير راضين تماماً عن ما أنجزوه. نعم هم أنجزوا الإنجاز الأكثر بريقاً، روضوا النمرة، وساقوها وذيلها بين ساقيها ككلبة مستسلمة عاجزة عن المقاومة، لكن العقدة الأخيرة بقيت لم تحل للآن. العقدة الأخيرة هي أنت، ورسائلك التي بقيت تنهال. خصصوا واحداً لإستلام الرسائل التي لم أقرأ أية واحدة منها، كنت أتوسل أن لا تحتوي رسائلك على ما يثير غضبهم. لا أعرف للآن لماذا لم يخبرونك صراحة بالذي جرى؟ كانوا ينتظرون أن تكف عن المراسلة، وحين طال بهم الإنتظار، ثم عندما وصلت رسالة معينة منك جنّ جنونهم، وعادوا فجردوا سيوفهم مجدداً، مهددين بقتلك بهمة وجدية أكبر من ذي قبل، فلم أر أمامي من حل، الا ان أحاول ثانية تجريب قدرتي على التمثيل. قلت لهم: "انا سأتكفل بالأمر، تعالوا أجلسوا هنا، أنا إقتنعت بقسمتي ونصيبي في الدنيا. كتبت لك الرسالة الأخيرة بحضورهم، محاولة التمثيل عليهم بأنني لم أكن جادة معك. لقد شتمتك في آخر رسائلي..آآخ ياربي كم عذبتني حماقتي تلك! كم ندمت على كتابة رسالة أسخر فيها منك أمامهم! لقد بالغت في قدراتي الإيهامية، كنت أريد لهم أن يصدقوا أن لامكان لك في قلبي بعد الآن. إخترت أكثر العبارات تحقيراً لك لكي تنزل مكانتي في نفسك، فلا أعود أستحق منك سوى النسيان..أريدك أن تنساني من أجلك، لاتفكر بي ولا تجازف من أجلي في مغامرة قد تكلفك حياتك. كانت كل كلمة أكتبها تفرقع بداخلي كأنفجار بركان، كانت السطور تحرث بأحشائي، وأنا أجاهد من أجل حملهم على التصديق بما أكتب. كم عانيت لكي لا تغلبني إنفعالاتي فتفضحني؟ كم قاسيت كي أتحكم بدموعي؟ كم حبست بداخلي آهاتً كادت أن تشق صدري؟ كنت أقنع نفسي أن ما أفعله هو من أجلك. كنت أدوس على قلبي مع كل

حرف. إخترت أكثر المواضيع خصوصية كي أفلح في تحويل نظرهم عن خطتي. وعندما أحسست أنني قد قاربت الوصول حافة الإنهيار، إخترعت لنفسي على عجل طريقة لكي لا تفلت مني عواطفي، تصورت نفسي أتكلم مع الذي إغتصبني لا معك، أبدلت وجهك بوجهه، وصرت أوجه له كلماتي، ولكماتي، وإهاناتي، كما في ليلة الإغتصاب. ساعدتني هذه الطريقة في إتمام كتابة الرسالة، وفي كسب إقتناعهم بصدقها، أعطيتهم الورقة، و كان أملي أن يخف الحصار عليّ كي أتمكن من الهروب. حاولت مراراً أن أتوصل الى حل ينهي حياتي، لكن حديث ابنة عمي معي بقي يرن في أذني: سيقتلونه إن إنتحرتِ! و كنت أسأل نفسي، لو أنني مت من سينقل الحقيقة لك؟ وعندما نقلوا لي ما قالوا انه رسالتك الأخيرة التي دلت على وصول ما كتبته لك، أيقنت أني مت. نقلوا لي مبتسمين أنك تقول وداعاً لي. إنتهت حياتي! ها هو حبيبي يقولها: "وداعاً". كم هي كلمة موجعة؟ "وداعاً" تعني أن لا لقاء بعد الآن، "وداعاً" تعني أن حياتينا قد إفترقتا كل الى جهة. "وداعاً" تعني أن حياتي قد توقفت، ولكني في حالة من حالات جنوني، كنت أشك بكل شيء، أسأل نفسي: ترى ما الدليل على انك قد كتبت الرسالة؟ انا لم أرها، إبنة عمي هي من قالت لي. كنت أخاف من شيء حتى لا أجرؤ على كتابته..أخاف انك أتيت و..!

طرت اليك..حمامة بجناح مثقّب وريش شائب

في حياتي كلها، لم أكن أتوقع أن أتزوج مَن لا أريد، أما أن يكون هذا المتقوقع، صاحب الوجه المجدور الذي كنت أخافه وأتجنبه، زوجاً لي، فهي المهزلة التي لا تُصدّق! هذا الوغد هو الآن زوجي وفقاً للقانون والشريعة. زوجي حتى الموت. زوجي الذي لا أستطيع تبديله أو الفرار منه. هو سجني الأبدي. هل ذهبت الى حتفي بارادتي؟ لا أدري، كنت مخذولة أتشبث بأي سند، وكان هذا هو سندي! طيلة هذه الفترة، لم تكن لي غرفة نوم قط بل ساحة قتال، أتدرب فيها كل يوم وكل ليلة على فنون الحرب الزوجية. كل ليلة، كان مغتصبي يترقب موعد إغفائتي لكي يبدأ الاقتحام، كان يبقى ساهراً حتى بعد منتصف الليل، وأحياناً حتى قبيل شروق الشمس، ليطمأن الى أنني قد إستسلمت للنوم، فيبدأ بالإقتراب مني، وفحيح أنفاسه يتصاعد كما قارب بخاري هرم. وكنت على الدوام أقتنص اللحظة المناسبة، لكي أعيده من أعلى السرير الى أسفله بضربة واحدة، فكان يرد علي بقذفي بما يتيسر له من أحذية أو أوان أو كؤوس، وتندلع المعركة من جديد، هو بالسوط أو الحزام وأنا بذراعي، هو بقبضته وأنا بأسناني. لكن، رغم مقاومتي الهائلة الضارية المستمرة لمنعه من الإقتراب مني، كنت أرى في حالات معينة، عندما أكون مريضة أو متعبة، كيف ترك آثاره على ملابسي فأبدأ صباحي بافراغ ما في معدتي، التي أحسها كما لو كانت تمتلئ بعشرات الثعابين. لم نكن نتبادل في النهار أي حديث، جربت النوم في المطبخ فتبعني الى هناك، وأجبرت على العودة بعد أن تحطم نصف الأواني خلال معارك الإقتحام. ظهرت عليّ على الفور آثار اللعنة الابدية التي تحملها الأنثى..لعنة أن يَعتدي عليك أحدٌ فتحمل

آثار العدوان لتدينك بدلاً من أن تنصفك، كأن مصيبتي كلها لم تكف، فكان عليّ أن أحمل وأنا غير القادرة حتى على حمل نفسي. بدأت أستفرغ كل يوم مراراً، وأشعر بالغثيان كل النهار. سخرية لامثيل لها، نساء ينتظرن الحمل سنيناً، ويتوسلن بالأدعية والتعاويذ فلا يأتي، وواحدة مثلي تحمل من غزوة واحدة! لم أستوعب فكرة أن أحمل في أحشائي شيئاً لا أريده، كنت أستيقظ في عمق الليل مرعوبة من هذا الذي زرعوه قسراً فيّ. ضربت بطني مراراً، كان الجنين متشبثاً فلم يفلت. يا قدري المشؤوم ما العمل؟ كنت بأبشع حالاتي. مزقتني أعراض الوحام المريرة، كانت معركة هائلة بين جسدي الذي تشبث بحملي، وروحي التي كانت تريد إنتزاعه. كانت موجات القيئ تداهمني، وفي كل مرة أتخيل أنني سالفظ الجنين، وسيخرج من فمي مع ما أتقيئه..

أنا أتعذب كلما تذكرت أنني لم يمكنني قراءة رسائلك الأخيرة، تلك التي كنت تكتبها ويستلمونها هم بدلاً عني، ترى أي شيء كتبت؟ هل تراك حدثتني عن المعطف والحقيبة مثلاً؟ عن إكتشافك أنني شككت بالأمر؟ كانوا يقرأون الرسائل ولا يتلفونها وهذا ما كان يخيفني. كانت تعابير وجوههم تكتسب في أحيان كثيرة طابع الدهشة مما تكتب. مرة سمعتهم يتحدثون أن واحداً من مراهقيهم كان يتوسل برسالتك على شكل قصائد يبعثها لصاحبته علها تستجيب لدقات قلبه، أولاد الخنزير حتى هذه سرقوها مني، يعرفون أنها عواطف محب لحبيبته، يعرفون أنها من قلب تصدع بسبب فرضهم قيمهم ولا يتورعون عن الإرتزاق بها.

في واحدة من تلك الليالي المزمهرة، ليالي أواخر الخريف الصفراء، حلمت بك! كنتَ حزيناً واقفاً تفتح أزرار معطفك المطري، و تدعوني اليك كما لو

كنت تريد أن تخبئني! تقول لي بصوت أقرب الى الهمس: "تعالي اليّ"! كدتُ أجن، أنا لم أرك من قبل بأحلامي بهذا الوضوح إطلاقاً. نهضت في الصباح وقابلت وجهي في المرآة، رأيت إمرأة لا أعرفها صحت بها: أنا لا أعرفك، أريد وجهي الذي أعرفه..جن جنوني ثانية فقررت أن أهرب. سأرحل اليك. أنت من سيرد لي وجهي وروحي، لا يمكن أن يكون حلمي خادعاً. بحثت عن وثائقي، كانت ماتزال صالحة، هيأت حقيبة صغيرة وركنتها في خزانة الملابس. قطعت بطاقتي دون أن أثير فضول أحد ثم إنطلقت اليك..نعم سأطير لك، أنا والذي في أحشائي..سأضع نفسي بين يديك، أتراك ستقبلني أنا المغتصَبة؟ سأرجوك أن تخلصني من الذي ببطني، أنا لم أشارك في صنعه، لقد زرعوه قسراً بداخلي، خلصني منه وسيعود كل شيء كما كان! خلصني منه وإقبلني لانني لم ولن أحب سواك، وإن لم تشأ تخليصي منه، سأنهي حياتي قربك..على الأقل ستكون أنت من يدفنني!

رحلت الى لبنان، ثم بالباخرة الى قبرص في أمرّ وأصعب رحلة. كان وضعي مثيراً للشفقة. كنت كمنبوذة مطرودة مكسورة، لا أنظر الا الى الأرض التي كانت تميد تحت أقدامي. تظافر دوار البحر مع دوار الوحام فخلق مني لوحة بؤس لا مثيل لها. كل من حولي ينظر لي باشفاق، إمرأة وحيدة منكسرة لاتكف عن التقيؤ، ما الذي يجبرها على السفر؟ ما أن وطأت قبرص حتى شعرت ببعض التحسن، فأكملت كل ما هو مطلوب بعد أن إستحصلت الفيزا بسهولة ومن هناك، أردت أن أبرئ ذمة أهلي مني، فإتصلت بأبنة عمي لكي أخبرها بأني هربت الى غير عودة، هربت الى لا أحد، فقط لكي أتحرر من سجني"الشرعي"، أخبرتها أنني سأسافر الى الهند لأعمل مع صديقة قديمة لي. كنت أريد الافلات بدون إثارة شكوك أحد أنني هاربة اليك، دهشت إبنة

عمي، فهي ظنت مثل غيرها أن كل شيء قد حلّ بحملي لجنيني، وأنني إستسلمت لقدري، سألتني بفزع من أي مكان أتكلم فلم أجب، أنهيت المكالمة وأنا مطمئنة أنني نجحت أخيراً بتنفيذ خطة هروبي المتأخر.

في اليوم التالي، كنت أجلس في باحة الفندق أرتب لقائي المرتقب المفاجئ بك، وبعد أن حصلت على بطاقة السفر لأطير بعد ليلة، تحسنت حالتي قليلاً و كنت أتخيل وجهك، وأتحسس لمساتك تجول بشعري، وأنت تهدئ من بكائي المجنون الذي فاض على صدرك. إنتبهت الى أن الرجل المقابل لي كان يبتسم، ربما ظنني كنت أبتسم له..عدت لنفسي، فنهضت أريد الرجوع لغرفتي عندها أحسست بكف ثقيلة تقع على كتفي، التفتت بفزع لأرى أمامي ما لم يمكنني تصديقه، كان الوغد واقفاً وهو يلوح لي بورقة: "ما الذي فعلتيه يا فاجرة؟ أنت زوجتي رسمياً ولا يمكنك الهروب. يمكنني الآن إعادتك مخفورة الى البلاد، فيعاملوك كأمرأة "ناشز"، كالكلب الأجرب! تصرفي بعقل وسوف لن أدع أحداً يعرف الأمر، أمنحك هذه الفرصة للمرة الأخيرة!"

برد كل شيء بي، وغادرت الدماء عروقي. تخيلت نفسي نائمة، ضربت رأسي مرة، ومرتين، ومددت يدي لتلمس جسدي، فلربما كان خيالاً، لكن كفي الباحثة عن التأكيد لويت بقسوة. لا، هذه هي الحقيقة! هذا هو زوجي الشرعي! كيف عرف بمكاني؟ من الذي أدله على الفندق؟ هل إستعان بالانتربول؟ إنهارت قواي فلم أحس بشيء الا وأنا محشورة في جوف سيارة. لم يعد بإمكاني ولا بقدرتي رفض قدري هذه المرة. الكون كله يتآمر ضدي، كم أنا مهمة؟ صمتُ من هناك حتى وقت دفنت رأسي تحت الوسادة أنتحب خائبة، محطمة، يائسة من كل شيء! كم كنت أود لو كان عمري حبلاً، كنت سأسحبه بكل قوتي

فأصل لنهايته. لكني كلما فكرت بذلك رأيت وجهك أمامي فأقول لنفسي..لا، سأموت وهو لايعرف ماجرى! كان حملي شاهداً على جريمة قتلي، يذكرني بتلك الليلة الرهيبة، وكنت أروم الإنعتاق منه بأية طريقة. هربت الى بيت أقاربي مستنجدة بخبرات العجائز، لكن أحداً لم يشأ مد يد العون لي. كان هَم مغتصبي وغاية طموحه، أن يولد الطفل فيحبسنا نحن الأثنين في سجن العائلة الشرقية الابدي. جُننت ذات ليلة وركلته بين ساقيه ركلة مباغته، فإنهال علي بالضرب، لأجد نفسي في المستشفى. هناك أخرجوا الجنين حياً من بطني، كانت أحاسيسي جامدة، حتى البقرة كانت ستشعر بالأمومة تجاه وليدها البكر، أنا لا. كلما نظرت له تخيلت تلك الليلة الفظيعة..عاش الجنين يومين، ثم مات محتجاً على ما يبدو على تجاهلي وقدره المعتم! قالت لي الممرضة أن صورة الرحم الشعاعية غير مطمْئنة، فلم أهتم لها ولا لرحم وقف ضدي، قلت لها: إقلعيه، لا أريده فنظرت لي بإستغراب..

أنا معزولة عن الدنيا كلها. معزولة عن نفسي. أنا الآن كائن يعيش على الماضي. على الماضي فقط، فحاضري ليس لي، ولا علاقة لي به، هو مفروض عليّ بكل جزئياته الصغيرة. تحولت أنا الى كائن عدائي، هل تتخيل ذلك؟ أنا التي كتبت أنت مرة عن وجهها: "مسالمٌ وجهك..مثل ضوء القمرْ" أتصدق أن أكون عدوانية؟ أتصدق أني تحولت الى وحش؟ هل تتخيل؟ أنا الذي كنت تقول لها: "أجزم انك لو قابلت نمراً في غابة ستبتسمين بوجهه وتستبعدين أن يهاجمك لأنك لم تؤذيه بشيء". تغيرت علاقتي مع أهلي كلهم، غير أمي لم يصفّ معي أحد. هي فقط التي كانت تتعذب لعذابي: "إبنتي ماتت منذ فارقته، مات كل شيء بها!" هكذا سمعتها مرة تقول لخالتي. نعم، أمي لم تجانب الصواب، أنا بعد أن فارقتك إنتهت حياتي. أنا لم أعش سوى

تلك الأيام التي عشتها معك، أيامنا في الغابات وأنت تتلو عليّ ماكتبت خلال تجوالنا تحت المطر: "مطر، والريح تعوي في الدروب، كالحريق، عجائز الشجر، تصطف في المدى..على إمتداد هذا الشارع الغريق"، أتتذكر قصيدتك تلك التي جرجرتني على أثرها الى الشارع؟ كنت أرتجف وأنت تمضي بي من شارع لآخر ماسكاً بيدي: "أسرعي لا أجمل من الركض تحت المطر"، يالك من مجنون ويالي من مجنونة بك!

عشت بين المطبخ والكلية التي سجلت بها لكي أهرّب وقتي عبر ممراتها، وأدفن ساعاتي الثقيلة بين طيات كتبها. وكنت كلما سنحت الفرصة، أسجل أحداث يومي أو اسبوعي بدفتري هذا الذي أخفيته عن الجميع. أملي الوحيد في دنياي أن يصلك دفتري في يوم ما. كنت أراهن على قدرتي على إنهاك خصمي، بل أني كنت أعيش على هذا الأمل، أن يعلن هو إستسلامه، فيتزوج الذي ترضى بأن يعتليها مستسلمة، دون أن يتعرض لرفساتها، وآنذاك لابد له من الإستغناء عني أنا التي لا تُضاجع. سبع سنين مرة، قاحلة، مخيفة، مرت وأنا أحاول أن أبرهن له أنه سينهي عمره حتى التسعين مركولاً كل ليلة. وفي العام السابع، بعد أن تعب هو و تعب الجميع من ترويضي، وبعد أن يأس من تحقق حلم إجباري على مشاركته بصنع طفل، إستسلم! ووافق الزوج المرفوض على الطلاق مرغماً، لكنه لم يشأ الإقرار بهزيمته، فأعلن نفسه منتصراً: "إذهبي الى صاحبك..يكفيني أنني إعتليتك..وإفتضضتك..هو سوف يهرب منك كما يهرب من مصاب بالجذام أيتها الصحراء المجدبة!"

أجمع الجميع على نبذي مثل البعير الأجرب. حرموني من كل شيء..المأوى وصيغتي الذهبية، وما تحرص الناس عادة على تدوينه في العقود من مال

مؤخر، وكان علي أن أصنع نفسي من جديد، من عجينتي المدماة المركولة بأقدام أهلي وأقاربي. خسرت كل شيء وربحت حريتي، حرية طائر ولكن بجناح مثقوب وبريش شائب. كان أول فعل فعلته بعد إستعادتي حريتي، أنني طرت لك ثانية بهذا الجناح المهيض لأبكي عند قدميك، لأقول لك الحقيقة. ترى أين يمكنني العثور عليك بعد سبع سنوات على إفتراقنا؟ وفي مدينة يسكنها ناس الأرض كلهم؟ درت أياماً في المقاهي التي كنا نزور، سألت عنك في الأماكن التي جمعتنا، لكن كل شيء كان قد تغير. حاولت أن أجد صلة ما بك لكي أوصل لك الدفتر الذي أكتب به أيامي، فلم أجد. تأكدت أنك غادرت البلاد ربما منذ سنين، فعدت بدفتري الخائب كطائر منتوف الريش حتى الرأس! ما العمل الآن؟ هم يناصبونني العداء ويتربصون بي لكي أزل فيعودون لملاحقتي من جديد. كان عليّ أن أنأى بعيداً عن حدودهم، فإستأجرت بعد معاناة شقة فقيرة في حي ناء في بناية متداعية تنتظر الهدم. لكن وجودي وحيدة ومنبوذة في شقة رخيصة بائسة معتمة، شجع الجرذان والفئران على الدنو مني. كل ليلة بعد منتصف الليل، يطرق مجهول بابي فأختبئ مرتجفة كالطفل المرعوب في زاوية من زوايا الشقة. عرف الأوغاد أنني وحيدة ولا أحد لي فتصوروني فريسة سهلة. كل يوم وأنا في طريقي لعملي ألمح اشباحاً تطارد خطواتي، بعضها تقترب مني وتسمعني فحيحها: الليل بارد ياحلوة، حرام والله على هذا الجسد المبيت بسرير بارد! وعلى سلالم البناية المعتمة في عمق الليل، ثمة من يتحين فرصة إنفراج باب الشقة لإقتحامها علي، وماذا عساي أقول عندما يفلح أحدهم باقتحام بابي؟ هل سأصرخ: الحقوني..ياناس ...يريدون إغتصابي؟

ساعتها ستحاصرني الجموع، و يصرخ أحدهم: وما الذي أجبرها على المبيت بشقة في بناية مهجورة؟ ليجيبه آخر: هي متفقة معه ولكنها غيرت رأيها في آخر لحظة، بلايا النساء لاتنتهي! فيلتحق بهما ثالث لايريد أن يفوت على الآخرين معرفة مدى خبرته مع النساء: وهل هناك أوضح من هذا؟ تريد الخلوة لكن الخطة لم تنجح الليلة، يالهن من داهيات! ثم يأتي من يصنع للوحة إطارها: يقال انها تركت قصراً عامراً، لتسكن هذه الشقة المتهالكة! وهكذا تنشأ قصة جديدة من القصص التي سيتلهى بها الناس. كانت الوحدة قاسية وخطرة عليّ بعد أن تخلى عني الجميع، وبعد أن تقطعت أوصال صداقاتي طيلة فترة عزلتي التي إمتدت سبع سنين عجاف. وسط هذا الهلع الليلي، والضياع النهاري، والفزع ليل نهار من أن ينتقموا مني بسبب تحطم حلمهم بترويضي فتضيع الحقيقة ولا أوصلها لك، تعرفت على عجوز أرملة تسكن وحدها مثلي مستأجرة في عمارة أخرى، فتقدمت لها بعرض حماية متبادلة:" أم يوسف"، خالتي، أتركي بيتك وتعالي إسكني معي ولا تفكري بمصاريف البيت، سأدّعي أنك خالتي"، فوافقت أم يوسف، كان حلاً لكي لا يفلحوا بتدبير مكيدة أخرى من مكائدهم فيرسلوا لي من يقتحم الشقة ليلاً يتبعه المصورون. نعم، كان ذلك وشيك الحدوث، وكنت أترقبه كل ليلة فهم مطعونون مثل لبوة جريحة لاتعرف ما الذي ستفعله، وهم روجوا أنني بعد أن تركت "دار النعيم"، دار اليسر والملابس المستوردة من لندن، سوف لن أجد سوى الرذيلة عملاً، فهل هناك رذيلة أكبر من إتهام إمرأة بائسة محطمة، بشرفها؟ فقط لأنها أرادت الإنعتاق من سلطة رجل لاتريده؟ بعد ثلاث سنوات من عزلتي مع " أم يوسف"، أي عشر سنوات كاملة على واقعة إغتصابي، كابدت آلاماً مضاعفة عندما تكشفت لي أسرار تلك الأيام المهولة، ومن بينها سر صمت أهلي عند

موافقتي على الخطوبة الغريبة. كان ذلك عندما أدرك بعض الجناة فداحة ما فعلوا، فأرسلوا إبنة عمي التي إهتدت بعد بحث طويل الى مخبأي. قابلتني باكية لتعلمني أن أمي قد رحلت وهي تتوسل أن أسامحها وأن الجميع يودون لو عدت، وخففت بعضاً من العبء الذي يثقل ضمائرهم بعد وقوفهم على الحقيقة! سألتها محشرجة وقد شلني خبر رحيل أمي:

– أية حقيقة؟

– الحقيقة هي أن مطلقك قد خدع الجميع، لم تكوني أنت فقط ضحية حيلته، بل أنه كان تكلم بسرية تامة معنا واحداً واحداً، مدعياً أنه علم من أخته بأنك فقدت عذريتك، وتخشين الفضيحة ولذلك ترفضين كل من تقدم لك، وقال أنه مستعد لتصحيح الخطأ والإدعاء إنك باكر لم تمُس، بشرط كتماننا الأمر بصورة مطلقة، وهكذا إستمال الكل الى جانبه. كنا شاعرين بفضله ومروءته، ووقعنا جميعاً تحت سطوة شرطه لكنه، بعد أن أُجبر على الطلاق، لم يلق وسيلة للانتقام لكرامته المركولة، غير إطلاق سراح الحقيقة التي حبسها عقوداً داخل جمجمته المريضة فقال:"لو لم تكن عذراء لما قبلت بها"! وهو لم يوافق على التطليق الا بعد أن تأكد من المستشفى أنك غير صالحة للإنجاب".

أها، الآن فهمت معنى صراخه: أيتها الصحراء المجدبة.

باح هذا المخلوق المشوّه بالحقيقة، بعد أن لجأ لتراث الإنحطاط القبلي، فحارب بالسلاح الذي يرعب أية عائلة في بلداننا المنكوبة، إعتقد نفسه إنتصر

ولما عرف أن نصره لم يكتمل، لم يشأ الخروج بأية خسارة..إذ سيكون ثقيلاً عليه أن يعرف الناس أنه ستر فتاة ولكنها تركته رغم فعلته الخيرّة!

ترجتني إبنة عمي كي أعود "وأعوض مافات" فقلت لها:

– لو كنت أنا القتيل الوحيد، لفكرت ربما في ساعة صفاء نادرة، وأنا في قبري، بالخروج من كفني ومسامحتكم، لكن هل يرضى ثاني القتلى بما أفعل؟ تعرفين أننا إثنان، خضنا معركتنا ضد الدنيا كلها، أنا قُتلت في أول معركة، وهو فقد منذ ذلك الحين!

تيقنت إبنة عمي عندها أنك لا زلت بقلبي بعد كل ما حدث، فضربت وجهها بكفيها وغادرت بدموع جارية..عندما وصلت الخامسة والثلاثين من عمري، سن جنون المرأة التي تجد نفسها وحيدة، داخلني شعور طاغ أن الحياة تمضي وأنت وهي تنسلان من بين أصابعي كالماء. أنا اتشبث بذكراك، وخيالك، وملامح وجهك الغاربة، وأنت تنأى عني مبتعداً مبحراً في المجهول. صرت مجنونة. كنت أريد طفلاً منك، لقد إستبدت بي فكرة معتوهة، فكنت لكثرة تفكيري بك، تيقنت أني سأحمل بصبي يشبهك! سأحمل بدون زواج، مثل مريم العذراء، سأربيه ليكون مثلك، سأغرس فيه شراسة التصدي لتعديل ما هو مقلوب، سأطلقه تحت المطر ليتعلم كتابة القصائد من الجني المختبئ في الشارع المقابل، سيكبر وأخذه ليجلس قبالتي في مقهى" الساحل"، هو يحتسي الحليب بالشكولاتا مثلي وأنا سأشرب البيرة السوداء التي كنت تشربها، سأقول له هنا كان يجلس الذي كان سبباً في وجودك بالحياة. لولاه ماكنت أنت. أستلقي ليلاً في زاوية الغرفة كجثة باردة، وروحي مسافرة الى البعيد،

كانت العجوز تسمعني أناديك فيداخلها شعور أنني أصبت بالجنون..أمر لايحتمل، كان وجهك أمامي في كل لحظة! لم تكن المسكينة تعرف شيئاً، هي لا تعرف أن قلبي يتيه في البعيد..ماذا يمكنني أن أقول لك؟ أحادثك وأنت بعيد عني..وأحدثك عن وقت هرب بعيداً..فمن يضمن لي أن ما أقوله سيصلك؟ أو أنك ستتذكر حوادث ذلك الزمان الآفل؟ منذ فراقنا حاولت أن لا أقطع صلتي الروحية بك. قررت أن أضع لنفسي هدفاً آخر قابلاً للتحقيق غير هدفي الأساس وهو رؤيتك، وكان هذا الهدف هو محاولة التشبه بسلوكك، فأتيت بورقة وبدأت أستعيد حياتنا المشتركة، ما الذي كنت تود أن تراه فيّ؟ تريدني أن لا أقص شعري، سوف لن أقصه، تريدني أن أحافظ على عندليب صوتي، كما كتبت لي مرة في إحدى رسائلك الأولى، ورغم أني لا أفهم كيف يمكن أن أحافظ على عندليب يعيش بين خرائب، وركام، و حطام، الا أني حاولت، بقي العندليب عائشاً، لكنه عاش عندلياً بصوت مجروح. تريد لي أن أقرأ الكثير وها أنا أقرأ الكثير، وأستمر بسماع الموسيقى وعزف البيانو..البيانو الذي لم المس أزراره سنيناً..والذي عدت اليه فوراً بعد أول أسبوع من نيلي حريتي. ولكن كان علي قبل كل شيء التشبه بعنادك. أن لا أستسلم ولا أدع الخوف يتسلل الى نفسي، وقد سرت على خطاك، بالرفض والإصرار حتى النهاية، ثم أن أسعى لإكمال تعليمي الذي كان هاجساً من هواجسك، فحاولت إجتياز الصعوبات، وإكمال الجامعة ثم الوصول للدراسات العليا، كي أبرهن لمن أراد سحقي أنني لم أمت بل ما زلت أتحدى، وأنني لن أستسلم لحكم الإعدام الذي أصدروه عليّ.

أم سراب؟

بعد أن فشلت خطط هروبي، وعلت جدران سجني، بحثت وأنا أختض خوفاً عن خيط يوصلني لجماعتك السريين، فإهتديت بعد معاناة، طلبوا معلومات عن حياتي، ثم وافقوا على تكليفي بمهام تطورت من البسيط الى المعقد، لكني كنت أقدم على قبول كل عمل، تحت شعور أنني أحاول بذلك الإقتراب منك. مع الوقت زادت ثقتهم بي، فأقدمت على الخطوة الحاسمة المخيفة، كتبت لهم أن يوصلوا رسالة قصيرة مني لك، لم أفصل بشيء عن علاقتي بك، قلت أنك قريبي ومن المهم أن تعرف أنني حية، وتتصل بي لأني بحاجة ملحة لك، كانت رسالة متقنة ومشفّرة، لا مجال لأن تتجاهلها. وبقيت أنتظر جوابك بصمت بعد أن ردوا عليّ بجملة رادعة باترة: "في حال توفر معلومات سنبلغك..لا داع للسؤال" ولم أسأل بعد ذلك، ولم أحصل منهم على رد، فعلمت أن لا معلومات توفرت! يالحظي العاثر..

رغم تفاهة هذا الموضوع، لكني سأكتبه. مرة كلفت بمهمة لقاء "إحدى المناضلات" أثناء حفل إفتتاح معرض تشكيلي، وتسلم رزمة مهمة منها. وصفوها لي كالتالي: " قرب باب المعرض الرئيس، ستقف سيدة ممتلئة ترتدي معطفاً أسوداً، وتضع على ياقتها وردة ياسمين بارزة، وتمسك بيدها اليمنى..الى آخر العلامات. جلت بالمعرض، وفي الوقت المحدد خرجت الى الباب فأصبت بالهلع..لقد كانت المرأة الموصوفة تنتظر في المكان المحدد، لكن ما أن رأيت وجهها حتى إستدرت مذعورة..كانت هي..آآخ..كم تؤلم ذاكرتي إستعادة تلك الأيام؟ هل تتذكر مرة في حفلة عندما سألتك عن إمرإة

ورجل إستغربت وجودهما بينكم؟ قلت لي وقتها أن إسمها "أم سراب" وربما " أم عتاب" لا أتذكر، وأنك لا تعرف الرجل، هل تذكرتها؟ المرأة الممتلئة الشقراء التي لابد أن تكون قد تحولت الآن الى عجوز منفرة؟ المرأة التي رفضت أنا بإصرار أن تعرفني عليها؟ هل تتذكر كيف فاجأني وجودها مثلما فاجأها وجودي؟ و كيف تسللت هذه المرأة من الحفلة مع صاحبها بمجرد رؤيتي؟ وقتها، لم تكن لدي الرغبة أن أفصح لك عن ظروف تعرفي بها..وعندما سألتك عنها إستغربت من صورتها التي رسمتها لي: مناضلة عريقة! هذه المرأة رأيتها مراراً، قبل أن أتعرف بك بسنتين أو أكثر، حين كنت أزور عمي في الفندق الذي يملكه في لبنان، وكانت هويتها تحمل إسم "رفا القيصري"، لا أعلم إن كان هذا هو إسمها الحقيقي. في تلك الفترة، كنت أقوم بأعمال الترجمة مع الوفود..وكانت هي من الوجوه المرافقة لمجاميع السياسيين الكبار المبعدين، من حَمَلة صفات اللجوء السياسي. كانت، كما يبدو، تعمل سكرتيرة ومرافقة دائمة لواحد مهم يلقبونه "العميد"، هو نفسه الذي كان برفقتها في الحفلة. كان عمي يحرص على سلامة وسمعة فندقه، فكلفني أن أراقب الرواد وبالذات النساء بعد أن إثار إنتباهه تردد الكثير من طالبات جامعيات ومن المدرسة المجاورة، على كافيتيريا الفندق بما لايتناسب مع مداخيل طالبات. كن يسرفن في الطلبات، ويتصرفن كما لو أن الشراب والطعام مصروف لهن مجاناً. وبعد فترة زادت على الشهر من متابعتي اليومية، لفت إنتباهي أن طالبة واحدة، كانت تدفع كل مرة، حساب كل الجالسات اللواتي يأتين بمجاميع من أربع أو خمس بنات. هذه الطالبة بالذات كانت على علاقة وثيقة برفاه القيصري التي كانت تتجنب الصلة المباشرة مع الأخريات. قد تكون الطالبة موسرة، فتتكرم على صاحباتها بدعوتهن لكافيتيريا الفندق، ولكن تكرار ذلك

لمرات في الأسبوع، وغرابة تصرفات هذه الطالبة أثار إنتباهي، فهي لا تتصرف معهن، بل تبقى جالسة في الكافيتيريا لتجتمع على إنفراد برفا، ثم تأتي في يوم آخر مع واحدة فقط من صاحباتها. كانت آلية منتظمة تنفذ بهدوء وبدون إثارة إنتباه. تقربت تدريجياً من الفتاة وإسمها "سلوى"، وهي فتاة في السادسة عشرة ذات جمال أخاذ، وقررت أن أتعرف على نوع الصلة التي تربطها بالقيصري. بعد أيام من المراقبة تيقنت بنفسي أنها كانت، وعبر طرق ملتوية، تيسر لصبايا المدارس المراهقات أو الطالبات الجامعيات الجلوس في كافيتيريا الفندق، للتعرف على نزلاء الفندق من قادة سياسيين مهمين. بقيت مترددة في إعلام عمي بالموضوع لخوفي من أن تكون للموضوع صلة بالشرطة السرية. وذات ضحى، إفتعلت عملاً قريباً من مكان جلوس الفتاة، وفتحت معها حديثاً ودياً أول الأمر، وما أن فاجأتها بسؤال عن سر دفعها بنفسها حسابات صاحباتها، وبينت لها أن إدارة الفندق راقبتها لفترة شهور، وأن الشرطة على علم دقيق بما تفعل، حتى إنهارت وإنخرطت بالبكاء، كاشفة عن تورطها بتسويق الطالبات لغرف ساكني الفندق، بناءً على إتفاق مالي مجزي مع " العميد" و " القيصري". بعد ذلك كفكفت دموعها وإبتسمت بحزن راجية مساعدتي وقالت: "نعم لهذا قصة لكن عمتي مسكينة صدقيني، هي ضحية لا ذنب لها، سأحكي لك بالتفصيل بعد أن أعود من التواليت". كشفت هذه الصبية عن حرفية لا توصف عندما نهضت بهدوء وسارت بإتجاه التواليت، تاركة حقيبتها الخاصة وشالها على الطاولة. تصور كيف تصرفت هذه الفتاة الصغيرة بخبرة الخبراء، وخدعتني بأن تركت حقيبتها الرخيصة الفارغة من أي شيء، وشالها، لكي أتوهم عودتها، ثم هربت بعد أن غافلتني وتسللت من الفندق، ولم أرها بعد ذلك ثانية. بقيت عبارتها عن من أسمتها

عمتها الضحية لغزاً. لم تكتمل معلوماتي عن " القيصري" الا ذات فجر، كنت حينها أساعد في التهيئة لوصول وفد رفيع، وتوهمتُ بأن غرفة " العميد" في الفندق فارغة ففتحتها، وعندها رأيتها عارية في سريره، لم تنتبه لي، كانت تمسح دموعها، لكن شريكها رآني وكاد أن يصرخ غاضباً أو من المفاجأة فأغلقت الباب بهدوء، وإنسحبت. وتكرر ذات الشيء في غرفة أخرى فنظرت لها نظرة إحتقار ولم أتمالك نفسي فصرخت بها: "لو أنك إكتفيت بنفسك"! نظرت اليّ مرعوبة وصفقت أنا الباب خارجة. فكرت بإبلاغ الشرطة عنها، لكني خشيت من التحقيق، والأدلة والمرود، والمكحلة، ثم ما أدراني من تكون مع كل صلاتها بالمهمين من الناس؟ كان التحقيق بحاجة لسلوى التي تعرف الكثير عن "عمتها" كما أسمتها، المهم أنني خشيت أن أدخل درباً لا أعرف مسالكه، ولم أحك لعمي ماشاهدته لأنه كان يستعد لبيع الفندق، لارغبة لي الآن سأوصل له الحكاية بالتلميح بعد بيع الفندق لكي يبلّغ المالك الجديد. لم أر " ام سراب" الا في الحفلة حين كنا معاً، بمجرد رؤيتي لها مع " العميد" في الحفلة، راودني خوف بل فزع..إصطكت ركبتاي، وحين سألتك عنها، وأكدت معرفتك بها أحسست أن زلزالاً بدأ يهز الأرض التي أقف عليها. دارت الدنيا بي، وجودي معك ليس في صالح هذين، لايمكن أن يسرهما أن تعرف أنت بما كانا يفعلان. حين شاهدتهما في الحفلة، راودتني رغبة ملّحة أن أنقل لك ما رأيت في بيروت، لكني خشيت آنذاك أن أدس نفسي بموضوع أكبر من حجمي، وبقيت الأسئلة تفترسني: هل يتوجب علي البوح بما رأيت؟ هل أصمت؟ أجّلت الموضوع الى وقت أهدأ، حين نكون بمفردنا. لكن الأرض كانت تدور أسرع من خططي. مما لاشك فيه أنها وصاحبها كانا يخشيان أن أحكي لك عما رأيته، أظن أنهما هربا وتركا قاعة الإحتفال بسرعة بعد أن

أدركا أنني ميزتهما. لعلك لاتتذكر مثل هذه التفاصيل بعد هذه السنوات الطويلة..المهم أنني في حادثة المعرض التشكيلي رأيتها تقف بالباب ولم تكن قد تغيرت كثيراً، عدت بسرعة دون أن تراني، وضيّعت نفسي ساعة كاملة بين المتفرجين، ثم عدت إدراجي مدعية أنني لم التق بالمرأة المعنية لأني لم أتعرف عليها! حاسبوني وقتها على إنعدام الدقة، وأكدوا لي ان المرأة كانت حاضرة في الوقت المحدد، ولم يكن لدي ما أرد به سوى إصراري على عدم تمكني من تمييزها، وخشيتي من أن أرتكب خطأ ما. هذه المرة أيضاً لم أشأ فتح الموضوع، إعتقدت أن طرح حادثة مضى عليها سنون طوال كان سيدخلني في إشكالات قد تحرمني البقاء في عملي السري الذي يقربني منك.

توقف نمو جسدي عند آخر لمسة من أصابعك!

وتمضي الأيام، ولا ضوء يلوح لي، لا دليل لي كي أصل اليك. ولا أدري ان كنت ما تزال تتذكرني، ترى ما الذي ستقوله أنت عني؟ مرات يتولد لدي إحساس داخلي أنك أيضاً تبحث عني، ربما بدافع معرفة الحقيقة ليس غير، مع ذلك، فسعادتي لاتوصف بهذا الأحساس، ليكن ياحبيبي، لتبحث عني لمجرد معرفة الحقيقة..إبحث عني حتى تعرف كيف سارت الأمور بي. الزمان يمضي..عرفتك في سن الثامنة عشر وها أنا الآن تجاوزت الخامسة والثلاثين، عشت معك سنيناً قليلة هي كل عمري، وبدونك سنيناً كثاراً لا قيمة لها على الإطلاق، ترى هل ستجود الحياة عليّ برؤيتك ثانية؟ قبل أسبوع أتممت إمتحان الماجستير، كنت أراك أمامي فرحاً، وأنت الذي كان يتابع دراستي بالتفاصيل، نادت اللجنة بإسمي لإستلام دبلوم التخرج مرتين ولم أنتبه. كنت أتحدث معك. أتت المشرفة وربتت على كتفي بهدوء: هيه! هذا ليس وقت الدموع!

آآآآخ..وهل لدي وقت محدد للدموع؟

آه إنه كانون الأول، باغتنا الثلج الأول، فتذكرت قصيدتك التي ارتجلتها تحت الثلج: تناثري يا درر السماء، على أديم أرضنا السمراء، وبللي ترابها العطشان بالمطر، وسافري في الريح للبعيد..الى ذرى النخيل في موطننا الشريد، حيث ينام ضامئاً في حجره نهرْ..

ثم حين نظرت اليّ مكللة بالثلج: تناثري يا درر السماء، على ظلام هذه البيضاء اكليل الماز على الشَعَرْ.

كنت تتغزل بشعري الليلي، وتراكم ندفات الثلج عليه كالأكليل..أبكي كلما قرأتها لأني أتذكر الحادث الذي جمعنا في ذلك المساء الشتائي، وهو إتفاقنا على صيغة مفاتحة أهلي بموضوعنا. أتتذكر حين قلت لك: الله، حبيبي اكتب لي هذه القصيدة! فرددت طلبي: حبيبتي هذه ليست قصيدة، ستفضحيني بين النقاد، هذا مزاح مرتجل مع الثلج حين يكلل الليل"

لكني حفظتها، وما زالت موجودة في دفتري! تصور قبل إسبوع كان عليّ الخضوع لفحص طبي عام، بعد أن أكملت الطبيبة فحوصاتها دققت في ورقة المعلومات وسألتني بدهشة:

– هل أنت متأكدة من هذه المعلومات؟ تأريخ الولادة مثلاً؟

– أكيد، نعم ما الذي يثير إستغرابك فيها؟

– أمر عجيب، عمرك عمر أمرأة في الأربعين، بينما كل ما في جسدك يشير الى أنك في العشرين!

نظرت الطبيبة بإستغراب لعينيّ اللتين إنبجس دمعهما كالعادة، وصاحت:

– ما بك؟ المرأة عادة تطير فرحاً حين تسمع ما قلته لك، ومن طبيب، لكنك تبكين؟

ترى ماذا أقول لها؟ هل أقول أن جسدي مازال ينتظرك؟ هذه واحدة من مشاكلي، شيزوفرينيا أعيشها، روحي محطمة وجسدي مازال في إزدهاره، أية حكمة في هذا؟ نعم، توقف نمو جسدي عند تأريخ آخر لمسة من أصابعك. هذا إضطراب آخر، من بين إضطرابات لا حصر لها تعج بها حياتي..كانت السنون تركض، و أنا واقفة أرقبها علها تأتيني بوجهك! ترى هل تتابع حالتنا؟ هل تشاهد التلفزيون؟ قبل فترة تعمدت الوقوف في مكان مميز في ساحة التظاهرات، وحين كان الآلاف منهمكين بالهتاف والنقاش، كنت أنا أبحث عن مراسلي التلفزيونات العالمية لأقف أمام كاميراتهم، عل الصدفة تنقل وجهي اليك فتراني وتصيح: أأاخ هذه المرأة أعرفها! هذه من كانت تقاسمني حياتي، من كانت تعيش فيّ وأعيش فيها، أردت أن أصرخ أمام كاميرات التلفزيون: أنا هنا! هل تعرفت عليّ؟ هذا عنواني وتلفوني! لمرتين وقفت امام كاميرا CNN وشاغلت المصور لكي يبقى وجهي أمام كامرته، ثم أرسلت تحيتي التي تعرفها، هل مازلت تتذكرها؟ تحية العيون التي كنت تحبها..أتتذكر حين كنت تطلب مني فقط أن أنظر لك ولا أتكلم؟ هل تتذكر المرة الأخيرة حين قلت لي:" عديني أن لا تلقي ما على كتفيك لمزابل الحلاقين!" كنت خائفاً من أن اقص شعري إنسياقاً وراء موجة "النيغرو" التي غزت العالم! ليتك ترى ما على كتفيّ الآن..كي تصدق أن كل شيء بقي بإنتظارك! الحياة التي أعيشها هي إستعادة للماضي لاغير. أنا أقوم بفعالية واحدة هي التفكير بك، فحياتي تجمدت، بقيت سنيناً أعيش على أمل واه بأن تحدث معجزة ما فتجمعني بك، لا أدري كيف، ولكن عقلي المخبول كان يعرض عليّ بين حين وآخر، سيناريوهات عجيبة يتحقق خلالها لقائنا، مثلاً مرات أفكر أنك ستأتي ضمن بعثة ستزور الجامعة، فأراك تجر حقيبتك، دالفاً الى قاعة تفتيش

المطار، أركض خلفك وأتعلق بأكتافك..ستعرفني، أنا متأكدة من ذلك. آه..لو حدث ذلك!

بعد سنين إنقطاع، عدت للكتابة لأنني كما يبدو فقدت عقلي أو أن معجزة ستحدث! عشرات السنين كنت أنتظر عبثاً خبراً منك، خبأت لك قلبي و جسدي و شعري الذي تحب، لأني كنت أسير كل تلك السنين بإتجاهك، هذه خرافة عجيبة، لكنك يجب أن تصدقها. إصرار داخلي لا يصدق، كان للوقت مفعولاً معاكساً للمألوف، كلما طال الفراق زاد أملي، وفي السنين الأخيرة أحسست أن زمن الانتظار قد قارب نهايته ولابد أن ألتقيك، فلسفة قلبية غير مألوفة، كأني كنت أعرف أنك موجود بمكان بعيد، وأنا أسير بإتجاهك كل هذه السنين، وسأصلك، كأنما كان قلبي مجساً أحس بأنني أقترب منك مثل مغناطيس! هل تصدق؟ والآن؟ هل كنت أسير كل هذه السنين لكي أصل الى هذا اليوم؟ ربما، لكني لا أريد أن أفرح، ربما لأنني نسيت الفرح، وربما لشكي بأن ما تحقق للآن يعني شيئاً، الا أني أحس بإقترابي من هذا الشعاع الذي يرشدني لك. أنا لا أريد من حياتي أن تمنحني أكثر من أن أتتبع هذا الشعاع وإن كان واهياً، فإن مت، سأموت وأنا بالطريق اليك. تصور، دقائق معدودات في صالة مطار "القاهرة" الذي لم أره منذ سنين، تعيد لي أمل الوصول لك، تعيدني للحياة ثانية عبر صدفة لايصدقها العقل جمعتني بمن كان يعرفك، وكان قد رآك، بل هي المعجزة التي وجدت طريقها اليّ بصدفة تفوق التصور. صدفة من الصدف التي تكشف كم هي حياتنا غريبة وصعبة التفسير! إسمع قصتي لكي تتأكد من أن الغرائب هي التي تسيّر حياتنا:

وصلت "القاهرة" قبل أسبوع للتعاقد مع دار نشر لطبع أربعة كتب لي. كنت أجلس في صالة الإستراحة قبالة رجل وزوجته، ومعنا جمع من المسافرين ننتظر النداء للدخول الى الطائرات. وكان من بين الموجودين مجموعة من الشباب تركوا خلفهم عاصفة من الصخب، وبقايا علب بطاطا، وقناني كولا مرمية على الأرض وإنصرفوا. أحسسنا جميعاً بالإنزعاج ونحن نغادر القاعة ثم بعد أن وقفنا منتظرين في طريقنا للتفتيش. كانت وجهة العائلة "لندن" وأنا "بيروت". قال الرجل:

– جيل تافه هذا الجيل، ما أبعده عن جيلنا؟ حين كنا طلاباً بعمرهم خلال التظاهرات الطلابية، شكلنا نحن الطلاب العرب مجموعة لكنس أرض المظاهرات حتى لا تشوه سمعة الاضراب فينسب للفوضويين!

فجأة سمعت الرجل يذكر إسمك من بين أسماء أصدقاءه المنظمين! من؟ ربما طرت في الهواء في تلك اللحظة، أو يمكن أن يكون قلبي قد توقف وقتها! نعم توقف! شعرت ببلل ندّى جسمي كله، ثم رجفة إجتاحت أكتافي، رغم أن الأسم يمكن أن يعود لأي آخر من بلد بملايين الناس، ولكن من تراه يكون غيرك؟ إستوقفت الرجل وقلت بصوت مرتبك:

– يا للصدفة الغريبة، ربما كنت تتحدث يا أخ عن أحد أقاربي المفقود منذ زمن بعيد!

تأكدت من اللقب ووصف الرجل وزوجته أيضاً لك بأنك المقصود، أنت ملاكي المفقود..جنتي الهاربة، حبيبي الضائع منذ فجر التأريخ! خلافاً لما كنت أظن عرفت منهم أنك لم تغادر البلاد ، بل إنتقلت الى مكان آخر ضمنها. ضرب

الحظ ضربته معي لأول مرة في حياتي. هي عائلة مهاجرة الى أمريكا منذ عشرين سنة، لم يسبق لي التعرف عليها عن طريقك..كانا يعرفان مكان إقامتك حتى شهر نيسان قبل خمس سنوات، زمن طويل لاشك، لكن الرجل أكد أنك مستقر هناك! قالوا أن لاصلة مباشرة لهم بك سوى إتصال غير مباشر حدث قبل عشر سنين. ولم أطالبهم بالمزيد. كان الوقت محسوباً بالدقائق، وشرطي المطار يفحص بطاقات سفرنا ويوجهنا للإفتراق كل حسب طائرته. خفت أن تسحب الأقدار مني هذه الهبة التي إنتظرتها سنيناً، كدت أفقد عقلي، فراودني خوف لأول مرة في حياتي أن تسقط طائرتي، وتضيع أنت مني من جديد. ما الذي يمكنني طلبه من الرجل وزوجته؟ لم أعرف منهما سوى إسميهما "ابو وأم ايمن"، ولم أجرؤ على السؤال عن هواتفهم فهذا طلب لايمكن تبريره، ثم ما حاجتي لهم وهم في أمريكا ولا صلة لهم بك؟ كنت أسابق الثواني كي أحصل منهم على أكثر المعلومات عنك، وفجأة خطرت لي فكرة تأليف قصة عن أخي الوهمي الذي ينوي الهجرة والهرب عبر البحر من جحيم حياتنا، وجنون التفجيرات، والقصف، والموت المنتظر في كل زاوية. إنبثق عفريت الرحيل برأسي دون أن يكون السفر قد خطر على بالي قبل هذه اللحظات، لكني تنكرت بقصة "أخي" العازم على الهجرة لكندا، كي لا أجعلهما يشكان بنيته طلب مساعدتك في البقاء، وتحدثت عن محاولاته البحث عنك لنقل أخبار العائلة لك، وتسليمك "أسرار عائلية". هي طريقة يائسة، ربما كان الدفتر لديك منذ وقت طويل وسوف لن تهتم للأمر..ولكن لاحل لديّ، هو الشفرة الوحيدة التي وجدتها صالحة لتذكيرك بي! أشعر بأنني مسكت شعاع الضوء بيدي. في طريقنا للتفتيش قلت بعبارة خجلة لعلها فضحت كل دواخلي المخفية:

– نعم، أتوقع وصوله يوم الثامن عشر من تموز، في كل حال لو تسنى لكم الاتصال به بالصدفة إنقلوا له ذلك!

هذه هي شفرة ثانية فهذا هو يوم تعارفنا، إن كنت تتذكره!

إستغرب الرجل وزوجته تحديدي تأريخ الوصول بدقة وضحكا:

– تحددين اليوم و كأن أخاك سيرحل عبر المطار!

ثم مد لي قصاصة ورق صغيرة و أضاف:

– هذا هو عنوانه مازال لدي، دعي أخاك ينسخ نسخة من الدفتر ويضعها في مظروف، وليكتب العنوان والأسم كاملاً كما كتبته ويبعثه بالبريد، ولكن إحتمال وصوله له من بيروت أو القاهرة ضئيل، لأنهم يستلمون فقط اوراق المؤتمرات العلمية! لكنها محاولة، أما النسخة الأصلية، فدعي أخاك يغلفها بالنايلون الشفاف بعد أن يكتب الأسم والعنوان عليها ويأخذها معه.

فهمت القصد على طريقتي، أنني حين أكون في طريقي لبطون القرش، قد لا تستسيغ الأسماك دفتراً مغلفاً بالبلاستك، فيبقى طائفاً على الماء، وينتشله البحارة أو المنقذون وقد يصلك. لا خيار لي، حياتنا كلها مرهونة بقد وربما ولعل! تم كل هذا خلال أقل من خمس دقائق! مازلت مجنونة. لم أأخذ بنصيحة نسخ الدفتر فدفتري يتجدد وتزداد صفحاته يومياً، هو سيرة رحلتي اليك، لكني كتبت عنوان النقابة وإسمك كما أوصاني. قبل يومين لم تكن فكرة المخاطرة بالسفر عبر طريق الموت هذا تخطر على بالي. تغيرت حياتي خلال يومين. من القاهرة إتصلت على الفور بواحد من معارفي في

الإسكندرية، وكان يعرف بعضاً من ممتهني التهريب، وعرضت عليه إستعدادي لدفع أي مبلغ مقابل أن أصل في يوم تعارفنا. أتعرف أنني كنت طيلة هذه السنين أحتفل بهذا اليوم، يوم اللقاء بك؟ كنت أبكي في ذلك اليوم من كل عام..أبكي ثم أبكي الى إنتهاء النهار. هل يكون لنا أن نلتقي بعد هذا الفراق الطويل الغامض ذات اليوم؟ بعد يومين من لقائي بصديقك القديم، بدأت العمل. أفهمت معارفي القليلين بصعوبة، بضرورة سفري لفترة محدودة للعلاج، كذبة، بيضاء مع ذلك. بقيت أنتظر الى أن أتاني التأكيد. ألست مجنونة؟ نعم هذا ماقاله أيضاً الوسيط الذي كلفته بالبحث عن مهرب، نظر بوجهي بإستغراب وسألني بخفوت:

–هاربة من المشنقة؟ أم..و أشار مدوراً أصابعه الخمسة جنب رأسه بما يعني جنوني فقلت له:

– نعم هو الأخير..أريد الوصول!

حدثَني عن المراكب التي تغرق يومياً، عن الجثث الطافية المبحرة مع الريح، عن أسماك القرش التي شبعت من لحم العراقيين والسوريين، ثم عن التيه في شعاب البحار، والمشي لساعات متواصلة في الصحارى، عن الصبيان المهربين سريعي الإنفعال بين ليبيا والجزائر، الذين يبيعون بضاعتهم للشرطة التي تدفع، عن الطعام الردئ، والسيارات التي تطير بجنون على حافة الجبل تجنباً لنواظير حرس الحدود. ثم أتى لي بصحيفة تصف ماحدث قبل سبعة أشهر وقال إقرأي حتى لا أتحمل خطيئتك: تشير التقديرات إلى غرق 500 طالب لجوء قبالة السواحل الأوروبية منذ مطلع العام الجاري، كان آخرها كارثة يوم الجمعة حين غرق قارب كان يحمل ما بين 400 و500 لاجئ

قادم من العراق في رحلة غير شرعية انطلقت من مصر وتوقفت في ليبيا حيث تعرضت في مياهها الإقليمية لهجوم مسلح في عرض البحر".

حين قابلت المهرب، عرف بخبرته أنني مضطرة للرحيل وبدأ سباق المساومة:

– كنوز الدنيا كلها لاتساوي ذرة من تراب الوطن، مجانين هؤلاء الذين يهاجرون!

– لماذا تشتغل بهذا العمل إذن، أقصد تهريب هؤلاء المجانين؟

– هذا رزق لارزق لي غيره يا أختي، وأنا لا اهرّب الا المحتاجين الذين ينتصب أمامهم خياران: أما الموت هنا أو النجاة هناك، لذلك فعملي هو مجازفة يومية بحياتي، تصوري أن يُلقى القبض على هذا الهارب من الموت فيعترف عليّ ماذا سيكون مصيري؟

ما الذي يمكن أن أقوله لهذا التاجر؟ يريد أن يدفعني للإقرار بنفسي أنه صاحب الفضل عليّ، رغم كل ما سيكسبه مني، ولم يكن هذا هو كل شيء، إستمر بزحفه الدؤوب للإستيلاء على آخر ما أملك، فسأل كمن لايعرف:

– هل أن المحروس إبنك أو زوجك مضطر حقاً للرحيل؟

عرفت على الفور أننا دخلنا دهاليز الإبتزاز، فقلت بصوت حاولت أن أحمله ثقتي بنفسي:

–أنا من يريد الرحيل لا إبني ولا زوجي، أحسبك تعرف ذلك!

إستدار الى الخلف لكي يخفي ملامح وجهه ويبين قلة إكتراثه بقدومي:

– أنت؟ لا، لا، أنا لا أهرّب النساء، تلك مسؤولية أكبر من أن أتحملها. أتعرفين ماذا يعني مسير عشر ساعات متواصلة في الصحراء؟ أتعرفين ماذا يعني المبيت في العراء؟ عشرون من الرجال يكلفون شبابنا مقدار ما تكلفهم إمرأة واحدة..المرأة ستجبرهم على تأخير المسيرة والدفع أكثر للشرطة..وربما الوقوع بكمين، أو بزوغ الفجر قبل الوصول الى الهدف..لا، أعذريني!

أحس الوغد بحاجتي فإستغل الفرصة كأي نذل. عرف أن إمرأة بعمري لايمكن لها أن تختار هذا الطريق المحفوف من جانبيه بالمخاطر الا إذا كانت لديها أسباب تجعلها تبيع كل ما لديها..لم يكن لدي الكثير من الخيارات، بل لم يكن لدي أكثر من خيار واحد، هو خيار أن أتفاوض مع هذا التاجر بسرعة وأنتهي من الموضوع. سألته:

– حسناً فهمت، كم تريد؟ أجاب وهو يفرد أصابع يديه:

– عشرة آلاف أمريكي! صعقت من طلبه:

– هل قامت القيامة؟ هم يوصلون بنصف المبلغ!

رد وثقته عالية بأني سوف أذعن في النهاية:

– أنت حرة، إذهبي اليهم هؤلاء الذين يوصلونك بنصف المبلغ، فقط اقول لك أن مكتبي لايدخله مرة ثانية من يغادره، ثم إحترسي يا أختي، هناك من يأخذ أقل بكثير، لكنه يتركك في عرض البحر ويهرب بزورق النجاة، ومنهم من تقومين من نومك بعد ليلة مشي مهلكة، فلا ترين وجهه! ليس عبثاً ان لدينا مكتباً واننا نتصرف حسب الأصول"..

أية أصول؟ لعله قصد أن مكتبه موجود بالاتفاق مع السلطات. كأنه كان يعرف ما بقلبي، وما يجعلني أبيع عمري كله مقابل الوصول لك. ثم بدأت التعليمات:

– لا أمتعة، لاحقائب، الوثائق المهمة ضعيها بنايلون وشديها الى الصدر تحت الملابس، لا يسمح سوى بالأدوية الضرورية.

كان شرطي الوحيد أن يكون دفتري معي!

ها أنا جاهزة، أما بطون السمك أو أراك. لاخيار لي. دفعت الأجور. ولم أحمل معي سوى دفتري العتيق الذي أسميته اسم الشفرة. أكتب الآن لأول مرة بأمل، مدفوعة بأحساس أن ما أكتبه سيصلك. اليوم بدأت أسال نفسي: صداقة عظيمة قد تفضي الى حب عظيم ولكن هل يمكن أن يفضي حب عظيم الى صداقة عظيمة؟ هل يمكن تخفيف الحب كما يخفف محلول مركز ليبهت قليلاً فيعود حباً مخففاً أو صداقة مركزة؟ ماذا لو وصلت لك ووجدتك لا تتذكرني؟ لا أدري، لكني أعتقد أن الحب طريق ذو إتجاه واحد لاعودة منه، طريق قد يفضي الى مكان إسمه السعادة أو الموت، لكنه لايعيد سالكه الى نقطة البدء..هذا محال كما أعتقد..أنا لا أدري من أنا بالنسبة لك اليوم، ولكن مشكلتي الكبرى مع هذا العالم، أنه يمضي وأنا واقفة عند تخوم ثلاثين سنة مضت..حتى أني أعجز عن تصورك بدون نحافتك وذراعك التي كانت تحرص على الإلتفاف على ذراعي ونحن نقطع الشوارع تحت المطر..حتى ألوان ملابسك لازالت كلها في ذاكرتي، معطفك المطري الداكن، وقميصك ذو الأكمام الطويلة عديم الياقة، الذي كنت تحرص على أن لا تكويه كي لا يهترئ، فهو هديتي التي لم تكن تود أن تفارق جسدك. حاولت تغيير ملامحي

لتبدو كملامح بدوية أو ريفية غير متعلمة، إبتعت قطعة قماش لففت بها رأسي ونظرت في المرآة: آه ياربي كم كنت لا أشبه نفسي؟ كانت مجموعتنا الأولى تتكون من ستين رجلاً وبضع نساء، إثنتان مع زوجيهما ونحن الباقيات بمفردنا، بيننا عراقيتان "أم فريد" التي تركت أولادها السبعة لتؤمن لهم مكاناً لا يهددون فيه بالذبح، و"أم سامر" مع إبنها "سامر" ذي السنوات الثلاث. خليط من البشر بقصص مختلفة، ونوايا وأمنيات متشابهة بالالتحاق بالزوج، او فتح طريق اللجوء للعائلة، أو النجاة الفردية الخالصة. خليط غير متجانس من شباب قوي قادر على قطع الصحراء عشرين مرة، ومن آخرين لا أعرف للآن كيف سيتدبرون أمرهم. مثلاً هذا الرجل كبير السن أمامي مع إبنه المعوّق، كيف تراه سيلحق القافلة؟ أو "ام فريد" المرأة الثقيلة، و "أم سامر" التي لا أكاد أتخيلها قادرة على حمل إبنها أكثر من خمس دقائق.

البارحة وصلنا المحطة الأولى، خان في بيداء عالمنا العربي المتصحر لايعلم أحد لأية دولة يتبع. وصلنا فجراَ بعد رحلة مشي ليلية سرية في قفر الصحراء إستمرت ست ساعات، أعقبت رحلة بباص قديم لساعتين نقلتنا لمكان لانعرفه. كنت قبل أن ننطلق، إتفقت مع " أم سامر" البابلية و"سمر" الحلبية، و "أم فريد" و "ابو شاكر" البصري مع ابنه المعاق، على تشكيل مجموعة تتحرك ككتلة واحدة. قررنا المبيت متقاربين للإيحاء لباقي المهاجرين أننا أقارب. بعد مشي ساعة، كان على القافلة التوقف لتدبير طريقة لحمل الأطفال. أتت " أم سامر" بقطعة قماش مستطيل سميك، وعملت منها مايشبه الكيس، أدخلت رأسها بدائرة في جانب، وعقدت الطرفين الأخرين على كتفيها، وأدخلوا "سامر" في الكيس..بعد ساعتين من المشي في العتمة، كانت المرأة تترنح مثل سكران لا يستطيع تثبيت نظرة على خط مستقيم، تتمايل يميناً ويساراً، لم تطاوعني

نفسي فطلبت منها أن تفك الرباط عن كتفيها، وعقدتهما على كتفي، وتعاونا في حمل الطفل لساعتين أحسست بعدهما أن كتفيَّ قد خلعا من مكانيهما. بعد أن رأت المجموعة القريبة مأزقنا مع "سامر"، تقدم شاب وتبرع بحمله الساعة الأخيرة. قبل الفجر، دخلنا في فضاء أشبه بإسطبل مهجور، حشرونا بغرفة منه وبعد أن نمنا كالموتى على الأرض العابقة برائحة فضلات الخيول، بدأ السقف القصديري يشع علينا جحيماً وكأن شمساً أخرى تشع..لاماء لاغذاء منذ يوم. كان منظر الناس المتعبين مفزعاً، بالأخص الأطفال الذين تجاوز عددهم العشرين، تناثروا على أرض الأسطبل مثل جرحى معركة لم تنته بعد، لا أعرف كيف سيواصلون الرحلة التي بدأت للتو. التجمع لايشبه تجمع مسافرين، الكل متوجه لهدف واحد وكل فرد يشعر أنه لايمكن أن ينجح بمفرده فأما أن ننجو جميعاً أو أن نموت جميعاً. هذا هو مايفكر به الجميع. يوم الغد سيكون لنا موعد مع المحطة الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم البحر: "لم يمنعني عنك القهر ولايمنعني عنك البحر و لا يمنعني عنك العالم كله..الا القبر..هذا هو عهدي!

زادت أعدادنا بعد المحطة الأولى، وتغيرت الوجوه التي ترافقنا ونحن نخطوا خطوة جديدة بإتجاه آمالنا المبعثرة على طول القارة الأوربية. تصور أن يولد المرء على أرض ويتعلم ويعمل بها، ثم تحط آماله وطموحاته في قارة أخرى! الليلة الفائتة، كانت ليلة ضياع في شعاب الجبال. ليلة مهولة، بعد أن إنشطرت القافلة الى شطرين نحن مع الأدلاء الأربعة، وأربعون آخرون تاهوا بدون دليل في الشعاب الجبلية الظلماء، فيما عشنا نحن في رعب خشية إنكشافهم ثم إنكشافنا. قرر الأدلّاء إرسال أحدهم لتقفي إثر الضائعين. من ناحية كان ذلك سبباً في إستراحتنا، لكننا دفعنا ثمنها باهضاً عندما نهضنا

لاحقاً بعد العثور عليهم، لنعوض ساعات الاستراحة الثلاث جرياً بسرعة أهلكتنا. وصلنا في الثالثة أو نحوها لمكان بين صخور هائلة الحجم. كانت الصخور تزيد من عتمة المكان، وأنا أخاف الليل منذ زمن، أتعرف كم أخشى الليل؟ منذ زمن الإفتراق عنك أحس كلما حل الليل كأنما هناك من يطاردني و يتربص بي. ليلة البارحة لم تخطئ ظنوني. في الليل المدلهم، في مكان ربما غير معرف على الخارطة، كنت نائمة، ثم،لا أدري بعد كم من الوقت تنبهت الى أن أعضائي تنوح، وأشلائي تحاول التفاهم فيما بينها أنها تعود لجسد واحد، كان كل شيء فيّ مهشماً، الذراعان تنزفان دماً وبقايا شوك منغرز في باطن قدميّ، وساقايّ تتبهاني لوجودهما بين لحظة وأخرى كلما تحركت، وطبول حرب قاتمة تدق في رأسي بعد مسيرة ساعات متواصلة في شعاب الجبال. أحسست بخوف مجهول السبب، وكنت أتمدد بين صخرتين. حاولت النوم ثانية، وغفوت لكني أحسست بذراعي كما لو كانت تُشّد، بعدها لفحت وجهي أنفاس حارة محملة بخليط من التبغ والعرق والوساخة وأقعى على جسدي جسد. لم يكن الأمر غريباً، فنحن عادة ننام بمكان محصور ومعتم، قريبين من بعضنا، لذلك لم أنتبه أول الأمر، وحسبته أحداً قد تعثر بجسدي وسط الظلام وهو في طريقه للخلاء، لكني وجدت ذراعي اليسرى قد تحررت فيما أنشغلت يد بمحاولة فك أزرار بنطالي بعجالة، عندها أدركت ماذا يجري. دق قلبي بعنف ولا أدري كيف أتتني القوة، فجمعت كل ما تبقى بي من طاقة، وسحبت رجلي اليمنى لأغرز قدمي بين ساقيه وأدفعه بكل ما أستطيع، لم أسمع بعدها سوى صوت إرتطام رأس بصخرة، وصرخة مكتومة لرجل لم يقض وطره، كم أمقت هذه المفردة؟ "وطره"؟ عادت لي صورة تلك الليلة المرعبة التي أسروني فيها! قبل أن يحل الصباح، عمدت الى تغيير

موضعي لكي أضيّع نفسي من متسلل الظلام الذي سوف لن يتركني. إنتقلت خلسة الى الجانب البعيد من الأجساد الشاخرة، وفي الصباح كنت أبحث عنه بحذر، من تراه يكون؟ لابد أنه كان واحداً من هؤلاء المهربين، هم أربعة لايمكن أن يكون من غيرهم، لايمكن أن يكون من بين رجال بؤساء باعوا كل شيء كي يصلوا شواطئ اوربا. عند الضحى حملوا لنا فطور الصباح، الخبز اليابس والتمر المعفن مع الماء. كانوا ثلاثة من بينهم واحد بلحية كثة، كان رأسه المعصوب برباط أبيض يدور باحثاً عن أحد ما..أخفيت رأسي ثم استدرت الى الخلف، هل سيتركني الليلة؟

غداً ستتغير المجموعة التي تقودنا، وسيختفي من أمام عيني "معصوب الرأس" الذي سيبقى طيلة ماتبقى من حياته، يتذكر كيف إرتطم رأسه بالصخر في تلك الليلة المدلهمة! في الصباح، تغيرت المجموعة المكلفة بنقلنا، لكن الذي أقلقني أن ذا الرأس المعصوب بالشاش الطبي، قد إنتحى بمرافق من الطاقم الجديد وبدأ يحدثه بما يشير الى بحثه عن من فلق له رأسه، ويبدو أنه شرح له الحادثة بالتفصيل حسب ما فهمته من إشاراته. مازلنا ماضين في رحلتنا بين البلدان. ننتقل مع تجار البشر من يد الى أخرى، طائعين مهددين بالتسريح في الوديان والجبال والصحاري التي نمر بها، في حالة تأخرنا في المشي، أو في حالة مرض أحدنا. قبل أيام مرضت "أم فريد" فلم تتمكن من المشي السريع، تركوها في الطريق مع حفنة تمر وقنينة ما. قالوا أن مهرباً آخر سينقلها، ونحن نعرف جميعاً أن لا أحد سيأتي لها. لا أعتقد بوجود بلاد غير بلادنا تترك أبنائها يموتون في العراء. بقيت تنظر لنا باكية ونحن نبادلها الدموع الساخنة. كان إهتمامها أن تعرف موضع القِبْلة، فهي تروم الصلاة. قلت لها:

– ربك موجود في كل مكان لايحتاج الى البحث عنه، من المفروض أنه يدري بمحنتك، أدعي له أن ييسر لك قدوم القافلة!

صدّقت المسكينة أن قافلة أخرى ستنتشلها بعد أن تكون قد إرتاحت قليلاً..ستموت البائسة في القفر، ستكون جثتها طعاماً للجوارح. حاولت الحديث مع الدليل بصوت جهدت لأن يكون متوسلاً:

– هذه أم لسبعة أطفال أكبرهم مازال مراهقاً، موتها يعني ضياع أطفالها الا يمكن إنتظارها الى أن تتعافى؟

دنا الدليل مني ورفع سبابته محذراً:

– لا تتدخلي في شؤون لا تخصك. تتعافى، متى تتعافى؟ اذا انتظرناها ستموت القافلة كلها!

قلت محاولةً إنتزاع آخر فرصة لأم فريد:

– يوم واحد لا يقدم ولايؤخر، كم من الأيام إنتظرنا الدليل ولم يأت؟

أشار بيده الى الأرض:

– إنتظريها أنت إن كان مصيرها يهمك أكثر من مصير القافلة!

لم أتمكن من كبت جملة إستفهامية كدت أندم عليها:

– الم تشفع لها آلاف الدولارات التي دفعتها؟

جأر بصوت خافت مهدد:

– إسمعي أنت، أتحاسبيني؟ أنا هنا من يقرر، لاتتدخلي مرة أخرى، وإعلمي أننا سنتصرف هكذا مع الجميع مع أم فريد ومعك..

لم أجد مبرراً لإستمرار الحديث مع هذا الحدث الغر الذي لو كان طالباً من طلابي، لأقمت له مجلساً تأديبياً. كان هذا الإنذار الأخير لنا. الذي لا يلحق بالركب يترك في العراء! لا أعرف ربما سيتركوني أنا الأخرى، فأنا أحس بخدر في ساقي اليمنى يجعلني دائماً في آخر الركب، لم أتعود على العدو السريع المتواصل لأيام. مع ذلك فأنا قد أعددت نفسي لمثل هذا الإحتمال وكتبت على ذراعي أن يسلموك وصيتي ودفتري. سأبقى على إصراري الوصول اليك..أنا مع دفتري أو على الأقل دفتري بدوني..مساء اليوم قد نصل الى حيث القارب، أو قد لا نصل الا بعد أيام. لا أريد أن أفكر بذلك فالقارب مخيف، مخيف جداً وأنا لا أجيد السباحة وأخاف الماء. سبق وأن حدثتني " أم سامر" عنه، فهي قد حاولت قبل عام ووصلت شواطئ إيطاليا، لكن القارب الذي كان يحمل ضعف ما يتحمل من أجساد، لم يتمكن من موازنه نفسه مع إرتداد موجات البحر من تلال الساحل فإنقلب. لم تع " أم سامر" من أمرها شيئاً، الا ورجل يحدثها بالليبية طالباً منها هويتها. أعادوها الى سوريا بعد يومين لتبدأ من هناك من جديد مع إبنها هذه المرة.

لكلمة القارب وقع مؤثر على المهاجرين، فكل ما يحدث من حالات مرعبة في الطريق، يحدث في البحر، وإبحارنا سيطول، لأننا سنختصر الطريق البري الخطر بين المحطات بين مصر وليبيا والجزائر، عن طريق بحري. وصفت " أم سامر" لي القارب وصفاً بليغاً: "صندوق كبير من الخشب مثل التابوت الكبير، عندما تجلسين به، تتخيلين نفسك جلست في إرجوحة تتأرجح

على الماء"، قالت أنها لم تجرؤ على النظر للماء من القارب، بل الى اقدامها فقط طيلة فترة الإبحار". بتنا ليال في العراء وتحت سقيفة مهلهلة، حتى وصلنا شواطئ المتوسط على الحدود المصرية الليبية في الليل بأجساد محطمة، ساهمت بحمل "سامر" لساعة بعد أن عجزت أمه من مواصلة المسير بسبب التعب. كان النسيم عليلاً يغري بالنوم، ونحن لم ننم سوى بأوقات متقطعة في سيارة حمل الدواب التي كانت تحملنا كبعير كبير متعب. لم يمهلنا المرافقون سوى نصف ساعة لكي نستعد ونصعد القارب. كانوا حريصين أن لا يجعلوننا نرى غير معالم درب ضيق يتوجب علينا سلوكه ثم حجز مساحة على أرض القارب وسط الظلام الكثيف. قبل أن أنزل الى القارب سمعت صوتاً:

– كل شخص يجلس بمكانه ولا يتحرك. من يحتاج الخلاء يستطيع الآن. سنبحر الليل كله!

أحسست بارتجاج تحت قدمي ففزعت، لكني قلت لنفسي أنها المرحلة الأخيرة فالمؤمل اننا سنصل اليابسة بعد ساعات من الإبحار. سنستريح بجزيرة، بعضهم يحدد المرحلة الأولى بعشر ساعات، وبعضهم بثمان، لكن المتشائمين يقولون قد تستغرق أياماً وليال، حسب الظروف الأمنية والجوية. وكل هذه التقديرات يتناقلها الركاب، ولم يؤكدها أي من المشرفين على رحلتنا. بعد أن جلسنا في أماكننا المخصصة لنا على أرضية القارب الخشبية، إنهمك البعض بترتيل آيات قرآنية، كما لو كنا نتجه الى الموت. أوصونا أن لا ننظر للماء لاننا سنصاب بدوار البحر. قد يفصلني عنك أيام قليلة، أو بحر كامل سأبقى سابحة به الى أبد الآبدين. كنت أحياناً أحس كأنما قلبي سيخرج من فمي،

فأنا لم أعتد هذا الإختبار، ركوب أمواج البحر في الظلمة مع حشد بشري لا يعرف بعضه. تذكرت يومي المرعب عندما هربت الى قبرص..الوقت الآن هو الرابعة صباحاً، شعاع الشمس ضعيف وقد إمتص قواه ضباب كثيف. أكتب في الظلام بالطريقة التي تعلمتها في دورات الدفاع المدني. مسطرة مثبتة تتحرك على صفحة الدفتر الى الأسفل والى الأعلى، أستعين بها لكي لا تتراكب الكلمات على بعضها، لا يبدو اننا نقترب من شاطئ فلا تحضيرات تذكر، وحكومة القارب لم توعز بشيء سوى توزيع التمر والخبز والماء على الركاب. كانت حصصنا من الطعام قليلة جداً والماء كذلك. لا أعرف ان كان الليل أخطر علينا من النهار أو العكس، يقال أن الكثير من القوارب تغرق بركابها لإ صطدامها بالبواخر او قوارب الصيد ليلاً، لأن مراكب المهاجرين تسير بالظلام دون إناره فيتعذر على السفن والمراكب الأخرى تجنبها. لكن معظم حالات إرجاع المهاجرين الى الشواطئ التي قدموا منها، يتم عن طريق إكتشافها في النهار من قبل خفر السواحل او الصيادين الذين يشتغلون لصالح السلطات الأمنية. أن ننكشف أمام دوريات خفر السواحل أو الصيادين نهاراً، أقل خطراً وفجائعية من غرق القارب، فالغرق عملية مريعة لا يمكن لي تصورها. في الإسكندرية أطلعني الوسيط على صور المراكب الغارقة وجثث الغرقى الطافية على الماء، جثث نساء وأطفال وشباب منتفخة، وكأنها شربتْ ماء البحر كله، تنظر للسماء وأذرعها مفتوحة، جثث تتناثر على صفحة البحر، تحت السماء الزرقاء كجزر صغيرة متناثرة. منظر شنيع أحاول بكل ما تبقى لي من قوة أن أبعده عن بالي، لكنه كلما تأخر الوقت عاد يقف أمامي. الساعة الآن التاسعة صباحاً، الماء من حولنا، السماء زرقاء والشمس ساطعة، وقاربنا يرتج ذات اليمين وذات اليسار في حركة تبدو كأنها تأرجحٌ

في ذات المكان. الى أين نحن متجهون؟ وما بُعدنا عن الشاطئ؟ لا أحد يقول لنا شيئاً؟ هل يمكننا العودة لليابسة ثانية إذا فشلنا في الوصول الى غايتنا؟ أم أننا نبحر بطريقة تشبه الطريقة التي نزل بها "طارق بن زياد" عندما حرق سفنه، لا العودة ممكنة ولا الانتصار على الأعداء مضمون! مشكلتنا هنا أن كل ما دفعناه من أموال، لايشفع لنا حتى بسؤال بسيط عن مصيرنا. ربما سأتجرأ وأسأل "زعرور".

إذا كان مقدراً لأوراقي هذه أن تنجو من بطن حوت أو قرش، سيكون مدعاة للأسف أن لا أتكلم فيها عن "زعرور". الملك البحري الذي توجته علينا حياتنا الخائبة. سأحاول إقتناص فرصة الحديث في أول إستراحة. نام الجميع، وصلنا محطة يابسة اشبه بالجزيرة الصغيرة. فرحنا باليابسة وكأننا وصلنا غايتنا. سأكتب عن "زعرور" الذي أراه الآن أمامي، هو صبي ملفق الهندام والأسنان، بعض أسنانه مثلثة الشكل كأسنان القرش، يرتدي على الدوام سترة جلدية سوداء تساقط نصف صبغها، ويتمنطق بحزام محمل بمسدسين وثلاث قنابل يدوية وسكين، ويملأ فمه بسباب لا ينقطع. تحس حين تراه، كما لو أنه يستند على ثلاثة أرجل. عندما يتحرك يتمايل الى اليمين، ثم اليسار، ثم الأمام، كأنه يرقص في فرقة دروشة. هذه الحركة تقدمه للناظر أول الأمر بصيغته المتحركة المسكينة التي تشجع على فتح الحديث معه، لكن ما أن يركز المرء على وجهه المستطيل الذي يحمل آثار حرق قديم، حتى لا يخطئ بقراءة جمل ناهية تتشكل على ملامحه، تصرخ بك أن تفعل كل شيء الا محاولة التعامل معه كبشر سوي. ما أن تهم بالحديث معه، حتى يتجعد جبينه، وتضيق عيناه، بما معناه أنه يفضل العمى على الإستمرار بالنظر لوجهك. زعرور لايحيي أحداً، ولا يتبادل مع أحد غير الجمل الإستفهامية التي تبدأ

بأين، ومتى، ولماذا، أو الجمل الآمرة الناهية. لايسع المرء الذي يعاشره، يعاشره هنا مفردة غير ملائمه فهو لايُعاشِر ولا يُعاشَر، الا أن يقتلع من ذهنه فكرة أن "زعرور" قد ولد وتربى مثلما يولد طفل ويتربى، كلا أبداً، "زعرور" ولد ونشأ هكذا زعروراً، بسترته متساقطة الصبغ، وعيونه التي تضيق بإستمرار بإتجاه أن تنغلق نهائياً. وبسرعة فائقة تناقل الركاب قصصاً عنه لايعلم مصدرها أحد، لعلها من نسج مخيلاتهم التي تبحث عن ما تشغل نفسها به. منها أنه يملك الملايين، ولديه عمارتان، واحدة في تونس والثانية في بيروت، ويشتغل لديه عشرات من أفراد المافيا السريين، ومنها أنه القى براكبين الى البحر بعد أن عانداه في نقاش. ساهمت هذه القصص بدورها في إضفاء هالة من الغموض المشوب بالخطورة على شخصيته، فكان الجميع يتجنبه تحاشياً لما قد يصدر منه. في البحر كانت "حكومة" القارب تحتل مكاناً قرب قيدومه. والحكومة، كما يسميها "زعرور"، هي المجموعة المسؤولة عن قيادة القارب، وتتألف من رجال لانعرفهم، وهم الذين يوجهون الدفة، ومن آخرين نعرفهم وهم الأربعة المسلحون الذين يدورون علينا طالبين تخفيض أصواتنا بين الحين والآخر، والذين يحسمون النزاعات الناشبة بين الركاب حول المكان. وصلتنا أوامر الحكومة قبل الصعود الى القارب بالبقاء كل في مكانه المحدد. والمكان المحدد هو مساحة لاتزيد على مايشغله جسد الإنسان الواقف، وتجنب رفع الرأس والنظر الى خارج فضاء القارب:

– عليكم أن تتصرفوا كالنعاج الخرساء، من يعرف كيف تتصرف النعاج الخرساء؟ من يعرف يرفع يده!

ها هو "زعرور" التائق للعب دور المعلم يلقي علينا موعظته. بدأ رأسه يجول كمعلم يختبر تلامذته، رفع البعض أيديهم فأختار واحداً منهم:

– أتعرف؟ تصرف كالنعاج على القارب إذن! رفع الرجل صوته: مييبع..

ضحك البعض ودفن بعض آخر رأسه بين كتفيه، وكان بودي لو بكيت، لكن "زعرور" لم يعجبه المشهد كلياً. كل المشهد لم يعجبه. لم يعجبه ضحك الضاحكين، ولا صمت الصامتين، ولا تقليد الرجل لتصرف النعاج:

– ماذا؟ لم أر أحمق منك، النعاج لا تعترض على أمر هذا صحيح، لكنها ليست خرساء تصيح مييع، أنتم لا. الميع ممنوع! مفهوم؟ نعاج خرساء!

كنا نلتصق ببعضنا، وحين يرتج القارب بفعل الموج، نتراكب على بعضنا فتصرخ أجساد من ثقل أخرى، ويتهيأ البعض للعراك مع البعض الآخر، ثم ترشنا جميعاً مياه البحر المالحة، فنشعر بخضوعنا جميعاً لقانون البحر، قانون الطبيعة، مرة تكون تحت غيرك وأخرى تكون فوق غيرك. هذا الصبي الأعرج "زعرور" هو من بين عناصر الحكومة المرئية التي تتحكم بالجانب التنفيذي للامور، مهمته، غير الصياح على الركاب وزجرهم وتهديدهم بإلقائهم في البحر، نسج قصص للمهاجرين وتزويدهم بوثائق إجبارية مزورة، مقابل مئتي دولار للقصة! ثم تحويلهم الى شخص آخر يسمونه مرسي الذي يقوم بوظيفة المخرج. مشكلتي مع "زعرور" أنني لم أكن قادرة على النظر اليه كبشر سوي بل كمسكين يتوجب تنبيهه الى حماقاته التي لا تنتهي وإزدراءه بالجميع. لم يكن "زعرور" ينتظر أن يأتيه الرواد كأي صاحب دكان، بل كان هو يزور الرواد واحداً واحداً. كنت منزوية في ركني القصي نهاية التجمع

لكنه شق طريقه باتجاهي، غير مبالٍ بما يدوس عليه من سيقان ورؤوس متراصة. دنا مني ووقف مشرفاً على رأسي. حاولت الإدعاء بأني لم الحظ شيئاً فقرفص الى جانبي وقالت بصوت خارج من بين أسنانه المتآكلة:

– ما زلت بلا قصة كما أرى؟

لم أتمكن من كتم غضبي فقلت:

– لا حاجة لي بقصة..حياتي كلها قصة!

مثل من لم يسمع أراد أن يبقى بحدود اللياقة الدنيا التي لا يجيد أكثر منها وهي المرحلة الأخيرة قبل أن يرفع عقيرته بالسباب، فقال وهو يكز على أسنانه:

– ماذا قلت يامجنونة؟ هل تصدقين أنهم سيقبلونك بدون قصة؟ سيرفضون طلبك ويعيدونك الى ليبيا!

أعجبني أن أستمر بعنادي وتجاهلي لطلبه فقلت:

– دعهم يعيدوني ولكن بعد أن أصل..أنا دفعت لكي أصل!

لم يعجب "زعرور" ما قلت، لا المحتوى ولا الطريقة، ولا الدفتر الذي أسجل به يومياتي. نهض من قرفصته ونظر الي بإستخفاف:

– أراك تعاندين كأنك لا تعلمين بأنك إمرأة..وفي البحر؟ ثم ما هذا الذي في يدك..كأنك طالبة مدرسة؟

إرتجف قلبي خوفاً على الدفتر! خفت أن ينتزعه هذا الصبي الوقح من يدي ويلقيه في البحر، لكنه مضى يزدرد المسبات.

عدنا للبحر، هذا يوم آخر ضمن أيام لم أتمكن من عدها، أمس، كان أشق يوم عليّ منذ بداية المغامرة. كان يوماً مع الدموع والعويل، فقد خلالها القارب إثنين من ركابه. مات "سامر" الطفل العراقي وهو بعمر ثلاث سنوات، و "هنادي" الطفلة السورية ذات الأربع، ماتا أمام أميهما من الجوع، وبسبب دوار البحر. بقي الطفلان يستغرغان طيلة النهار، كانت الأم السورية الشابة أكثر تماسكاً من العراقية "أم سامر" التي داخلها مايشبه الخبل. كانت تضرب رأسها وتمزق ملابسها بحركات هستيرية. كم هي شاقة حياتنا؟ طفل يموت في قارب معبأ بالأجساد حتى آخر متر فيه. أتى إثنان من حكومة القارب ووقفا عند جثة الراحلين الصغيرين، صليا صلاة قصيرة ملفقة، ولفا الجثتين بخرق بالية، ونقلاها الى المقدمة حيث الحكومة. بكيت بحرقة، لم أعرف كيف أواسي "أم سامر"، ما الذي أقوله لها وأنا التي كنت أشجعها على نسيان آلام رحلتها الماضية بعد فشلها في الوصول الى الشاطئ الأوربي؟ تشبثت بجثة إبنها وهي تصرخ: أريد "سامر" أين ستأخذونه؟ أين ستأخذون إبني؟ لقد إنتظرت تسع سنين الى أن أتى ياقساة، دعوني أموت معه..وكنا نحن مجموعة النساء، نحيط بها ونحاول تهدئها، قبل كل شيء خوفاً من أن يجن "زعرور" ويلقي بها في الماء. قل لي بربك كيف تقنع أماً سيُرمي صغيرها في البحر ليكون طعاماً للقرش بالكف عن البكاء؟ كيف ستحترم هذا العالم، وكيف ستحترم نفسك التي كان عليها أن تعمل لتغيير هذا العالم؟ صاح الجميع على "أم سامر" أن تكف عن البكاء لأن بكائها سيفضحنا كلنا، قالوا لها إنها إرادة الله

فردت عليهم بهستيريا المفجوع: "لم يلق الله غيري أنا المسكينة لينفذ إرادته؟ لم يلق غير أم بائسة ليأخذ منها وحيدها؟

صاح " ابو شاكر": "استغفر الله"!

وإقترب منها محاولاً تهدئتها بسرد تفسير لآيات من القرآن: ياأبنتي قوي إيمانك بالله يونس عليه السلام استقر في بطن الحوت، وظن انه ميت لا محالة، وإذا به يحرك جوارحه فتتحرك، ليتأكد عندئذ أنه حي يرزق، فلم يجد عليه السلام أمامه سوى أن يسجد له سبحانه وتعالى قائلا: "يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد مثله".

بقيت "أم سامر" واجمة تحدق في السماء كالباحثة عن شيء فيما إستمر الرجل: يونس عليه السلام أثناء وجوده في بطن الحوت، أخذ يطوف به البحار، والرسول الكريم يسمع تسبيح الحيتان للرحمن، للواحد القهار ورب السموات والأرضين السبع وما بينها وما تحت الثرى، وعندها قال ما قال بلسان الحال: "فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"

لم يبد على "أم سامر" أي تجاوب مع حديث "أبو شاكر"، فقام وهو يردد:

– سيكون "سامر" في السماء بحفظ الله ورعايته مثل يونس..

نظرت "أم سامر" اليه نظرة شاردة ثم صاحت كمن إنتبه فجأة:

– ما فائدتي به في السماء؟ أريده هنا في حضني لا في السماء ولا في الماء

ثم دفنت رأسها بين ركبتيها وإنخرطت ببكاء مر..وفي ظلام الليل المدلهم، سمعنا صوت إرتطام شيء بالماء، فصرخنا بصوت واحد..في عمق الليل غافلتنا والقت بنفسها بقفزة واحدة في البحر! أتى "زعرور" صائحاً بنا أن نصمت. في ثاني نهار لنا بعد موت "سامر" و"هنادي" و"أم سامر"، سرت همهمات بين الركاب، أن حكومة القارب لم تكن مستعدة بما يكفي لتأمين حاجة المسافرين من الطعام والماء لأكثر من يومين، وبهذا فسر أحدهم، الذي ينادونه "الاستاذ" تقليل حصصنا من الطعام الى قطعة خبز وأربع تمرات ونصف كوب ماء. دنوت من مجموعة الأستاذ بتمهل لكي أسترق السمع لما يدور من نقاش وسمعت منهم أن قاربنا يتيه في البحر!

رد شاب:

– هذه مأساة، الضباب هو السبب، أنا ذلك عرفت منذ الليلة الأولى. كان قارب عمي يتيه في شط العرب بسبب الضباب، ولا يلقى نفسه الا أمام جزيرة بوبيان في الكويت.

شرح الاستاذ الموقف، ومن نبرة صوته أدركت اننا نواجه خطراً جدياً. إرتفع صوت خائف:

– عسى أن تعثر علينا بارجة ما، بوارج الايطاليين والفرنسيين تجوب المياه، مازال هناك أمل!

رد آخر:

– البارجة ستعيدنا الى ليبيا!

علت همهمات متداخلة، كلها تحاول إيهام النفس بحل أكثر مقبولية من غيره:
– اليس أفضل من الموت جوعاً وعطشاً؟ أو غرقاً ثم في بطون السمك؟
رد شاب:
– والله الموت أفضل من هذه الحياة، أنا لن أعود الى العراق ولو حاولت عبور المتوسط عشرين مرة.
قال صوت أكثر تفاؤلاً:
– طولوا بالكم ياشباب، ربما كنا قريبين من شواطئ مرسيليا آنذاك ليس من حقهم إعادتنا
رد الأستاذ:
– ليس من حقهم؟ وكيف نقول لهم ليس من حقكم إعادتنا؟ ماهي صفتنا؟
شعر المتفائل ببعض الحرج لكنه إستمر بشرح نظريته:
– الأوربيون ملتزمون بقواعد القانون الدولي لايجرأون على خرقه، يخافون الفضيحة، هم لا يفعلون ذلك من أجلنا.
كان حديث المجموعة متشائماً، لكنه على الأقل لايكتفي بالتعاويذ والأدعية مثلما تفعل باقي المجموعات، هو حديث عن الحياة لا عن الموت. بعد أن إجتاح وباء الإستفراغ ركاب القارب، سمحت الحكومة لشاب يبدو أنه طبيب بتوجيه خطاب للركاب حول دوار البحر. كان الوقت قد تجاوز الضحى، والقارب يترجرج في عمق الضباب. تقدم الشاب وبدأ يتلو بصوت تقريري كأنه يقرأ نشرة أخبار:
– حالة دوار البحر التي يشعر بها الكثيرون منكم الآن، هي حالة مرضية، تسبب الغثيان ودوار الرأس جراء الحركة الغير طبيعية الناتجة من قضاء

بعض الوقت على متن قارب. حركة التأرجح الناتجة من تحرك القارب بفعل الأمواج هي السبب في هذا الغثيان! قام رجل من مكانه وصاح:

– ياجماعة بالعراقي "غثيان" يعني "دوخة" و"لعبان نفس"!

نهره "زعرور":

– أنت يا معتوه! من قال لك تتكلم؟ تعال هنا!

فوجئ الرجل بإستدعاء زعرور:

– العراقيون لايعرفون ما معنى الغثيان قلت أفسر لهم.

جره زعرور من ياقته وصرخ:

– القارب فيه حكومة واحدة وليست عشر حكومات

– العفو إستاذ!

إستمر الشاب الطبيب:

– السبب الحقيقي هو أن الدماغ يتلقى اشارات متعارضة بسبب الحركة التأرجحية. فالعين سترسل اشارة للدماغ أن العالم ثابت، لكن جهاز استشعار التوازن الموجود في الأذن سيرسل إشارات حركة مستمرة الى الدماغ! هذا التضارب يحث العقل على إرسال إشارات إنذار لجميع اعضاء الجسم لوقف جميع الأنشطة الحيوية، ومن أهمها العمليات الهضمية!

كان الشاب يتحدث كما في محاضرة في مؤتمر علمي، نسي أنه في قارب محمل بطالبي الهجرة، قاطعه "زعرور":

– كلام فارغ..أهم شيء تقليل "العمليات الأكلية"

كان واضحاً أن الطبيب قد تورط مع "زعرور"، فهو يعيد ما تعلمه في الدراسة وهذا ما يزعج "زعرور"، مضى الطبيب الشاب:

– العلاج الممكن هو إلغاء مهمة العيون، والتركيز على المحيط الداخلي للقارب او إغلاق العينين ومحاولة النوم، يعني لا تنظر لأحد وهو يتقيأ، لا تذهب لمشاهدة من هو مصاب بدوار البحر، هذا من أكبر الأسباب التي تشجع على الغثيان! الذي لديه علكه يستخدمها. في العادة يعالج الدوار بشرب عصير الجزر و عصير الليمون، والزنجبيل، أو النعناع.
صرخ زعرور:

– هل أنت في مطعم قيثارة تونس؟ زنجبيل وعصير جزر، اجلس وخلصنا!

فوجئنا منذ حلول الغروب، بأن أرض القارب قد تغطت بالماء، وحين إنتصف الليل كان البلل قد نام في عظامنا، فكنا من شدة نهش البرد لأجسادنا نلتصق ببعضنا.

الساعة الخامسة صباحاً: لاندري ما الذي يجري. قاربنا توقف وأسلم نفسه للموج يتلاعب به، والماء يغمر أرجلنا. الريح الباردة تخترق عظامي. أول الأمر حسبنا الموج الذي كان يرشنا بين حين وآخر، هو من صب هذه البحيرة في القارب لكن من المحتمل أن يكون القارب قد ثقب، أو تكسرت بعض أجزاءه، لا أحد يدري، فالحكومة هنا لا تصدر بيانات عن حالة القارب، ولا تعلق على الهمهمات الخائفة الراجفة المرعوبة التي تقول أننا سنغرق، وأننا تهنا بعيداً عن الشواطئ.

الساعة السابعة صباحاً: حلت نهايتنا على مايبدو، نحن الآن في البحر لا أدري في أي مكان بين ايطاليا وليبيا وربما بعيداً عن ايطاليا وعن ليبيا. نحن تائهون لاندري بالضبط ما يحصل، لكننا نحس بأن القارب قد ثقّب وتسربت

المياة الينا فبقينا نائمين في البلل. للمرة الأولى أخاف أن تنتهي حياتي بعد أن كادت أحلامي أن تتحقق. كان من المنتظر أن نكون قد وصلنا اليابسة. نصف القارب الأيسر يميل و يتجه للغوص للأسفل، ونحن نقرفص في الماء الى حد الركب. أعذرني. لقد عملت المستحيل لكي أصل لك. حبيبي الغالي: قبل ساعة أرسلت لك رسالة روحية، هي كل ما أستطيع عمله، ليست لدي أية وسيلة أخرى سوى أن أتخيلك، وأركز علّ رسالتي تصلك، أنا أعرف أن روحك ستحس بي، ستحس بألمي الذي لايحتمل، لابد أن تعرف إنني أتيت اليك ما أن عرفت مكانك، لاأروم أكثر من رؤيتك وقص حكايتي عليك. سامحني لم أتمكن من الوصول، لكنك ستعرف حتماً. كتبت إسمك ووصيتي على حلقة فولاذية علقتها برقبتي، حتى لو أكلتني التماسيح، حتى لو التهمتني أملاح البحر وذوبتني، ستعرف الحقيقة بعد موت التمساح وسيجد الغواصون بعد الف عام أو أكثر، الحلقة التي تحمل موجزاً لقصتي. الم يكتشف الآثاريون قطعاً حجرية بنقوش تحمل قصص الذين كانوا قبلنا؟ كم أتوق لأن أصل اليك؟ أريد أن أصلك لكي نكتب قصتنا سوية! هذا هو مشروعي المقبل، لكن ما يدريني بقصتك أنت؟ هل ما زلت تتذكرني ولا أقول تحبني؟ كم كنت أمني النفس برؤيتك في يوم تعارفنا؟ الساعة العاشرة صباحاً: لا أعرف كيف ستسير الأمور لكن وضعنا ميئوس منه، فالساحل بعيد كما يبدو، والمهربون بدأوا بتحضير مستلزمات نجاتهم. حالة هلع لامثيل لها تعم القارب. الأطفال يلتصقون بامهاتهم صارخين كأنما شعروا بقرب حلول الفراق الطويل..كم تمنيت أن تهبني الحياة يوماً واحداً أراك فيه ثم أموت؟ فقط أقص عليك ما جرى، أبكي على كتفيك ساعة وساعة وساعة الى أن ينتهي الدمع وينتهي الزمان. إستحال البحر ضباباً .لا أرى من حولي سوى الضباب، ومن تحتي

الماء يتنفس تحت ركبتي، ويرتفع ويتمدد بهدوء، كأنما يتفاوض معنا بتأن على مراسيم الرحلة الأخيرة الى هناك. الى عتمة البحر حيث نلتقي هناك نحن الضحايا كل يبحث عما جاء من أجله. هناك سألتقيك. لابد لي من الإيمان بذلك. بغير هذا سوف يكون الغرق مرعباً. لابد لي أن أستعد للقياك، أن أستحم بزبد البحر المالح، أن أتعطر بعطر طحالب الشعب البركانية، أنا ذاهبة لا تنس أن تجئ! وإذا جئت متأخراً، لاتنس أن تبحث عني هناك. أرى من حولي من إنهمك بالصلاة. صلاة بلا إتجاه ولا قبلة. صلاة بلا ركوع ولا سجود فالماء لايسمح بذلك، اسمع "ابو شاكر" يتمتم: يونس عليه السلام أثناء وجوده في بطن الحوت..قطع "أبو شاكر" قصته الأثيرة عن الحوت الذي رأف بيونس وإتجه الآن لطلب الرحمة: اللهم أسألك الراحة عند الموت..أية راحة في بطون القرش؟ أنا أريد أن أراك..بعدها لايهم أن أكون ببطن الحوت، أو ببطن القرش، ولكن أنّى لي ذلك؟ ترى أين أنت الآن؟ أحس أنك تعرف بانني آتية اليك..لا بد أن تحس. غير معقول أن أقطع كل هذه المسافات، أن أدافع عن نفسي ضد المهرب الذي حاول إغتصابي، أن أنتقل من مشي على الشوك لعشر ساعات الى زحف على سفح الجبل لأربع ساعات وأنت لا تشعر..لايعقل أن أناجيك ولا تسمعني، أنت آت تبحث عني، نذرت أن أقص شعري أول ما التقيك، نذرت أن أقبل برؤيتك من بعيد، أن أقبل بتسليمك الدفتر والعودة، أن أنفذ كل ماتطلبه مني. حبيبي، أذا مت، طلبي الأول منك أن تسامحني، أقسم بدموع الأطفال لم أقصد إيذائك، لقد كنت مقدّسي الذي لا مساومة عليه، لكنهم كانوا أعتى مني، تحالف الجميع مع الجميع ضدي، كلهم كانوا ضدي وأنا وحدي! أما طلبي الثاني فهو أن تنشر قصتي على أوسع نطاق، لقد حرصت منذ ان إفترقنا على تسجيل الأهم في هذا الدفتر.

وخلال الرحلة اليك كنت أقتنص أية فرصة لأسجل يومياتي، لأني أتوق من عمق أعماقي أن تلتصق يومياتي بيومياتك يوماً ما وتكوّنان حياة واحدة، على الأقل على الورق أريد أن أعيش معك بحياة واحدة. على الأقل سيقرأ الناس قصة واحدة تجمعنا سوية..أسمع صراخاً والماء يعلو في القارب، سأتوقف عن الكتابة أحبك..أحاول الآن أن أغلف الدفتر بالنايلون اللاصق العازل. تجاوز علو الماء الركب، يبدو أن القارب يميل أكثر، سوف لن أتمكن من الاستمرار بالكتابة .ياحوت ارجوك كلني واترك الدفتر..كُل كلَّ ما تريد..إترك قلبي والدفتر..أحبك..

خاتمة المخرج "طارق زيدان"

إنتهت أوراق ماسمي "أسرار عائلية" العجيب بسطور مقطوعة متراكبة على بعضها لم أتمكن من فهمها، شعرت عند قرائتها برعدة، وإنتابتني حالة من تبلد الحواس، وفقدان القدرة على إتخاذ قرار واضح. منذ أن فتحت هذا الدفتر، وأنا أعيد وأكرر البحلقة والتفتيش بأوراقه، بقيت الليلة الأولى ساهراً أعيش في عالمه المرعب، لم أنم مثل من إجتاحت جسده مئات البراغيث. حتى بداية الرحلة البحرية، لم أتوصل الى تشخيص صاحبة القصة، لكني مع ورود أحداث معينة جزمت أن "أسرار عائلية" لا يمكن بأية حال، أن تكون قصة حياة "زهور" شقيقة "وائل". هي رحلت قبل ثلاثين سنة كما نقل لي "وائل" آنذاك، الا إذا كانت مازالت حية و "وائل" لاعلم له بذلك وهذا هو المستحيل بعينه! في كل الأحوال، لايمكن أن تكون هي الكاتبة. كلا..الم تقل في البداية: "الأسماء لا معنى لها"؟ ترى من تكون؟ وما هو وقت كتابة آخر سطور الدفتر؟ وأين هو حامل هذا الدفتر الآن؟ هل يمكن أن تكون " زهور" كلمة سر؟

تزايدت الشكوك داخلي فأعدت قراءة الدفتر مقارنة بأوراق "وائل"، وأدركت أن حواسي المبرمجة مسبقاً للبحث عنه وشقيقته وخطيبها وقصة إختطافهما بين سطور الدفتر قد خدعتني. بين أوراق "وائل" والدفتر أكثر من مشترك، بل أنهما يشكلان قصة واحدة هي قصتهما معاً. لقد تحدثت عن مقهى" الساحل"، المعروف بإسم "مقهى القلوب الكسيرة"، هذا المقهى النهري والذي لم يعد موجوداً منذ عشرين سنة، وتحدثت عن إمرأة يعرفها "وائل" ورد إسمها في ما

كتب، رغم أن الإسم غير متطابق تماماً. إنها قصة مموهة، هي قصة حياة حية، كتبتها صاحبتها على مراحل طويلة منذ سنين حتى آخر لحظة من حياتها التي قد تكون إنتهت غرقاً: "ياحوت كُلني واترك الدفتر"! إنها قصة إمرأة جازفت للوصول الى هدفها..أعرف أنها فكرة جنونية، ولكن ما الذي يمنعني من الإقرار بصحتها غير المصير الذي رسمه "وائل" لها بذهني قبل ثلاثين سنة؟ هل تكون "دنيا" قد إختفت مرغمة مثلما وصفته صفحات هذا الدفتر؟ وهل يكون الدفتر دفترها؟ تذكرت فيلماً عن اركيولوجي بقي يبحث عن آثار مدينة ضائعة سنيناً دون جدوى، ولما يأس وخلع أوتاد خيمته، جاءه الوتد بحجر من الآجر، نعم تحت أوتاد الخيمة كان يرقد الدرب الى المدينة الضائعة. كنت مصعوقاً من المفاجأة. أردد مذهولاً: "وائل" أحقاً ما أقرأ؟ أنت جئت إذن تبحث عنها دون إرادتك!"

ما يحدث الآن يشبه قصة بوليسية محكمة، صاحبي الذي ظهر فجأة بعد غياب ثلاثين سنة، سلّمني أوراقه وهذا الدفتر العتيق الذي يهم بتغيير التأريخ وقلب أيامه وإعادة توزيع أحداثه وأحكامه وأدواره، ويريد رسم مسار مختلف للماضي عن ذاك الماضي الذي عاشه طيلة ثلاثين سنة! دارت برأسي عشرات الأسئلة الحائرة، وداهمني تعب وإجهاد أغلق عينيّ، الى أن أحسست بسقوط الدفتر من يدي، وفجأة رأيت "وائل" واقفاً أمامي. كان يسترق النظر للدفتر فلم أجد القدرة على التصريح بما يختلج في نفسي، لكني تشجعت أخيراً فهمست له:

– مارأيك أن نعود قليلاً الى الماضي؟

– أنا سأعود اليه بمفردي، لقد وعدتك منذ ثلاثين سنة

– وأنا صديقك لا أريد لك العودة بمفردك، أريد أن نفكر قليلاً سوية بعد أن منعتنا كل العمر من مشاركتك التفكير

– عزيزي "طارق"، الطبيعة، توجب على المرء في حالات، أن يكون وحده، يولد وحده، ويموت وحده ويتحمل نتائج ما فعل وحده

– والطبيعة أيضاً أوجدت النسيان فلماذا لم تنس الماضي؟ لماذا جعلت من هذا الماضي كائناً حياً يعتاش على حاضرك؟

– أنا نسيته لكني أريد تصفية الحساب معه

– لم تنسه، إن أردت الحقيقة أنت كنت تطارد الماضي من أجل أن لا تنساه، من أجل الإبقاء على ذكراها..

– ماهذا؟ إن كنت تقصدها، تلك، أنا طاردتها ولو ظفرت بها لقتلتها لكنها فرت من أمامي.

– تقتلها؟ لكنها كانت حبيبتك! ما الذي فعلته أنت لكي تتأكد قبل أن تتجه الى قتلها؟ لاشيء، هل سعيت للإتصال بها؟

– لقد حاولت خداع نفسي وتبرئتها لكن..

– لكن إخلاصك للآيديولوجيا التي خدعتك هو الذي منعك، كانت الآيديولوجيا و"عجلة التأريخ" أهم منها. ببساطة، أنت لم تجرؤ على الشك بالتقرير السري خوفاً من إتهامك بالميوعة والإنهزام..

– مهلاً، لا تستخدم كل ترسانتك دفعة واحدة! لقد شككت بالتقرير السري، لكنها برهنت على صحتة بصورها ورسالتها فما الذي تريدني فعله؟

– نعم شككت، ولكن شكك لم يصل الى حد رفضه والبحث بنفسك عن الأمر. لم تشأ الشك في "ام صعاب" لأنها إيقونة التنظيم المقدسة.

– "ام صعاب"؟ من اين تعرفها أنت؟ ولماذا أشك بها؟ كيف اشك بمن وقف الى جانبي ليسندني؟ "ام صعاب" رممت تصدعي، و"سابين" هي الأقرب لي فكرياً..هل تريدني ان أبيع من إشتراني؟

– بل أن لجوئك لسابين العقائدية كان تعويضاً مبطناً لا واعياً عن طردك من التنظيم الثوري..

– كلا كان حباً واعياً..أنت لا تفهم ذلك

– أنت تصورت ذلك، أنت بعت حبيبتك في حين هي لم تبعك، هي كذّبت حواسها التي رأت الحقيبة والمعطف النسائيين، وأنت صدقت حواسك التي سمعت أخباراً عنها، أرأيت الفرق؟

– عن أي معطف وأية حقيبة تتحدث؟ غرفتي كانت آنذاك محرّمة على غيرها، لا أعرف من أتيت بهذه القصة..ما الذي يجب علي فعله، أتوسل اليها ؟ أحبيني؟ لا تخوني؟ لا أعرف كيف تفكر أنت..

– ستعرف لاحقاً، لايمكن لدنيا أن تتخيل وجود معطف وحقيبة بين ملابسك، هي إمرأة وتعرف كم هو خطير هذا الإتهام!

– إذن أنت تكذبني وتصدقها، لماذا لم تقذف المعطف والحقيبة بوجهي؟

– لأنها إمرأة أحبتك، هي لم تشأ المجازفة بك، لأن جذورك غائصة بروحها ولم تتمكن من إقتلاعها، لأنها بهذا ستقتلع روحها ذاتها

– هذه قصة إنتهت، أنا من دفع ثمنها من سمعتي، قصة قديمة ختمتها "سابين"

– كن صادقاً مع نفسك، إنتقالتك من فشلك مع "دنيا" لمحاولة النجاح مع "سابين" كانت أكذوبة لفقتها على نفسك الخائبة فتلقفتها لأن الطبيعة لاتقبل الفراغ!

– كلا، دنيا خرجت من قلبي فتركتها..

– أنت حاولت إخراجها ولكن مكانها بقلبك بقي شاغراً، لا تقل لي أن "سابين" سكنته!

– كلا لم تسكنه لأنه مكان موبوء، "سابين" سكنت مكاناً لائقاً بها، المهم أنني طردت "دنيا" تلك، نسيت كل ماله علاقة بها، بل عشت ربع قرن أطاردها..

– إسمع "وائل"، لاشك أنك لم تختر "سابين" بدافع مصلحي، ولكن مابينكما هو ما يمكن تسميته نتاج تراكم الأيام لا أكثر، اليس كذلك يا "وائل"؟

– لا ليس كذلك، ما هذا الهراء؟ أنا أحببتها..

– نسيت نظريتك العتيقة "قل الحاجة ولا تقل الحب، كيف تجسر الهوة السحيقة بين الشرق والغرب ببضع مئات من المفردات؟" نسيت "نظرية شعاع العيون"؟

– كل شيء قابل للتغير، ذلك كان في الصبا وأوهام الصبا قد إنهارت، "سابين" هي النضج، أتت وفرضت نفسها، أحببتها، وتزوجتها!

– ولكنها لم تأت لولا غياب "دنيا"! كان حبها هو الحب الذي أعقب الكره فقارنَ نفسه به، كفقير في كوخ بائس يقارن نفسه بمتشرد، فيبدو له انه يعيش في جنان النعيم. هو حب كسيح أتى بعد أن أجبرت على إنهاء طيرانك، و بعد أن قصقصت أجنحتك التي كنت تحلق بها عالياً، وبعد أن جنح إيقاع حياتك للرتابة، أي بعد أن خالفت طبيعتك..كن صادقاً مع نفسك!

– ما الذي تقوله أنت؟ أنا غيرت طباعي لأنها لم تكن تتلائم مع الواقع. كنت طائراً فهبطت الى الأرض، هذا هو كل شيء.

– أجبروك على الهبوط يا صاحبي بعد أن أصابوا جناحيك! هذه هي الحقيقة، أنت لم تكن تبحث عن "سابين"، أسقطوك فوجدتها أمامك، كنت جائعاً فأكلت أول ما رأيته قابلاً للأكل، وهذا لايعني أنها وجبتك المفضلة!

– كف عن ذلك "طارق" أرجوك، لا تقارن إنساناً بشيء، مشاعراً بغرائز

– ولهذا فدرجة مقبولية المرأة لديك قد إنحدرت الى ماقبل الصفر

– أنظر كيف تبيح لنفسك الحط من قيمة إنسان أنت لاتعرفه، لم تكن "سابين" سيئة معي أبداً..

– نعم لم تكن "سابين" سيئة معك، هذا صحيح ولكن لا مقارنة بينها و"دنيا"

– نعم لا مقارنة، تلك من ماضي زال وهذه من حاضر باق! إذا كانت "دنيا" هي الغدر فان "سابين" هي الإخلاص

– ولكنك سترى أنها لم تكن غادرة، هذه هي صورتها في "التقرير السري" ليس الا! ألم تكن فلسفتك ان الحب شحنة؟ هل حملت عيون "سابين" شحنة ما؟

– تلك كانت مشاعر المراهقة، "سابين" قبلت بي وأنا بين الحياة والموت! رممت أشلائي بعد أن مزقتها "دنيا"

– "دنيا" لم تمزقك، هي التي كادت تتمزق بسببك!.."دنيا" كادت أن تموت مراراً من أجلك..أو ربما تكون قد ماتت الآن بسببك..بسببك..بسببك!"

– ما الذي تقول؟ ما أدراك أنت؟ وما قصدك ربما تكون قد ماتت الآن بسببي؟

– تعال معي إنظر:

أخذتُ بيد "وائل" الى حيث مشهد رقص، ودبك لمئات المحتفلين، يغطي على إستغاثة فتاة تتلوى تحت جسد بدوي مشعر مجدور الوجه، في غرفة محكمة

الإغلاق، فيما نساء القبائل يرقصن على أنغام شخيب الدم المتدفق من رقبة نعجة ذبحت للتو. يبدأ صعود لحن جنائزي، يرافق مشهد مقدمة مركب تميل ببطئ بإتجاه قاع البحر..لتختلط الموسيقى بصراخ الأطفال وعويل النساء وتلاطم موجات الماء المنهمر على بقايا المركب.

صحت: أنها هناك، إنها تغرق في طريقها للقياك! ذلك هو الفيلم الذي وعدتك به!

قفز "وائل" قفزة هائلة الى البحر، حيث حطام المركب وبقايا العويل..حاولت منعه محاولاً إنقاذه لكني لم أفلح فصرخت..

في هذه الأثناء رن التليفون فقفزت مرعوباً وأمسكت بالجهاز:

– نعم "طارق زيدان"

–معك شرطة خفر السواحل، يرجى إبلاغ السيد "وائل الشاعر" أننا بعد التحقق تأكد لنا أن صاحب الرزمة هو سيدة أنقذت من حادث غرق المركب وحالتها الصحية الآن مستقرة وطبيعية، ترقد في مستشفى الطوارئ في"مرسيليا ردهة رقم...هي تحمل وثيقة سفر بإسم..

صرخت بدون إرادتي ما أن سمعت الأسم غير آبه لكلام الشرطي الذي إستمر بعرض لائحة من التعليمات:

–آخ إنها هي! هي..هي!

نظرت للدفتر وتخيلتها خارجة من بين صفحاته مبتلة بماء البحر. مرت من أمامي بذات الملامح، مثلما كانت قبل ثلاثين عاماً، نظرت بعينيّ برهة وخلتها تسألني بخفوت: والآن؟ أحسست بلزوجة العرق الخجِل، وأنا أستعيد صورتها التي رسمتها في ذهني طيلة هذه السنين، لم أجب ودفنت وجهي بين راحتيّ. تابعتُ خيط الحياة الممتد أكثر من ربع قرن. ربع قرن مضى، شاخ خلاله

خمسة وعشرون عاماً. أورقت الأشجار خمس وعشرون مرة. عالج "وائل" خلالها أطفالاً في الروضة وهم الآن أطباء مثله. أشرقت الشمس خلاله وغربت ما لايقل عن تسع آلاف مرة. ربع قرن كان هو في بدايتها شاباً غضاً، وها هو بريق الفضة يكتسح ناصيته. كم ربع قرن يمر في حياة إنسان لم يعش في عصر نوح، حين كان الأنبياء يعيشون مئات السنين؟

وجدت نفسي في مأزق أخلاقي لم أعش مثله في حياتي أبداً، فبعد أن وعدت "وائل" باستقبال قريبه الباحث عنه، وبعد أن سمح لي بالإطلاع على "أسرار عائلية" الذي يحمله، تأكد لي أن هذا القريب الناجي من الموت ليس رجلاً بل إمرأة. نعم إمرأة هي نفسها بطلة "أسرار عائلية" وأن هذه البطلة هي مقدسة "وائل" التي إختفت قبل ثلاثين سنة على إثر فضيحة وفقاً للرواية الرسمية فتحولت الى الد أعداءه. تأكدت أن ماكان لم يكن، وما كنا نعرفه لم يحدث أصلاً، وما إعتبرناه حقيقة كان وهماً، وان عالم "وائل" منذ ربع قرن قد بني على خدعة صُنعت بمهارة الأبالسة. لكن، ما الذي يتوجب عليّ فعله؟ هل يحق لي مقابلتها؟ من أنا وما موقعي ضمن هذه الدراما المفجعة؟ وما أدراني بموقف "وائل" منها هو الذي سافر لينتقم منها؟ أحسست بنفسي متجسساً على طقوس حب سري لايحق لي ولوج عوالمها، ترى لو عرف "وائل" بحقيقة الدفتر، أكان يسمح لي بالإطلاع عليه؟ هو أراد أن يرجع علاقته بي بادئاً من ما قبل العاصفة، أراد أن يعيد تشكيل هيكله بنظري سليماً، أن يشحنني عبر أوراقه مترقباً إنتقامه الموعود، أن يرسم بنفسه ملامحه في الفيلم: ملامح المناضل الذي لايهادن ولايقبل الهزيمة!

وهي؟ هي التي عرفت الآن أن "دفترها" قد وصل غايته، هل يجدر أن تُترك هكذا بلا جواب؟ هي التي صارعت الأهوال، ما الذي ستظنه عندما تبقى في

مستشفى الطوارئ غريبة تبحث عبثاً عن زائرها المرتقب الذي عاش بروحها ثلاثة عقود كاملة؟ ترددتُ كثيراً لكني حسمت أمر الذهاب لرؤيتها بعد أن قررت أن لا أجعلها تتعرف عليّ. أنا سأراها فقط، ليس من حقي مقابلتها، ولا الإتصال بها، أنا ساراقبها لا غير، سأتأكد من تحقق المستحيل. تعمدت إخفاء معالم شكلي القديم بالنظارات الداكنة وإعتمرت قبعة القش، ذات ما فعلته عندما قابلت "وائل" في الفندق. أكيد أنها سوف لن تتعرف عليّ، هي لا تتوقع وجودي هنا، ولربما كانت نستني أصلاً. لا أتذكر كيف وصلتُ ردهة المقابلات بعد أن عرّفت نفسي برسالة الشرطة وتخويل "وائل". فاجأتني موظفة الإستقبال عندما همّت بمناداتها عبر مكبر الصوت، لكني فزعت و رجوتها بلطف وإنفعال أن لا تفعل:

– أنا أريد التأكد منها يا سيدتي..الموضوع حسّاس كما تعرفين، وهناك من ينتحل إسماً غير إسمه ليصل أوربا، لابد أن نتعاون جميعاً لكشف الحقائق..

لم تكن حجتي مقنعة لنفسي، لكن البوابة لم تعارض:

– أنت محق، لك ما تريد وإن إحتجت لمساعدة أخبرني.

دخلتُ الفضاء الواسع العاج بالزائرين مرتبكاً. نعم أنا مرتبك كما لم أكن من قبل، جالت عيناي بهدوء باحثتين عنها، لكني لم أر شبيهاً لها. توغلت أكثر في القاعة الفارهة التي غصت بالمنقّذين من المراكب الغارقة من مختلف البلدان، أفارقة، وسوريون، وعراقيون، وأفغان، لكن أحداً لم يثر إنتباهي. رأيتها فرصة أن أصور الناجين من بعيد، كانوا يبدون في غاية السعادة بعد أن ولجوا جنة اليابسة، سأحتاج هذه اللقطات الحية للفيلم، أيمكن أن تكون هي

بينهم؟ مسحت الباحة عدة مرات بنظرات متفحصة لكني لم أجد من يشبهها، لعله خطأ آخر ضمن سلسلة الوقائع المبهمة التي رسمت ملامح الايام الماضية، فجأة داهمني قوام فارع قادم من باب جانبي! ياربي..أهذه هي "دنيا"؟ نعم، هي! شعرها المتمرد المنسي على تخوم عامها العشرين، كان مازال طويلاً ومهيمناً يمتد لنصف قامتها، ويكسبها من بعيد منظر نخلة وارفة السعف. إرتجفتُ وأنا أقترب ناحيتها متصنعاً الإنشغال بمكالمة هاتفية لكي أفلت من مصيدة عينيها. لم يكن عقلي قادراً على إستيعاب أن تكون بطلة "أسرار عائلية" الأسطورية هي التي تقف قبالتي! رمقتها بنظرة متفحصة، لم يتغير بها شيء أبداً سوى نظراتها المنبعثة من عيون متعبة ووجهها الذي نمت عليه أشنات البحر..كانت فتاة يانعة في الخمسين، تسمرتْ أمامي، يبدو أنها أيضاً ظنتني أول الأمر أبحث عنها، نظرت طويلاً ناحيتي دون أن تتعرف عليّ رغم أن عيونها القلقة كانت تنشب أظافرها بوجهي. كانت تبحث عن ضالتها. لم أعرف ما أفعل، تصنعت اللاإكتراث وإبتعدت عنها بهدوء، هيأت كاميرا جهاز التليفون لتلتقط لها صورة واضحة ثم شغلت نفسي ثانية كمن يرد على مكالمة، وبإستدارة محكمة وجهت العدسة نحوها بحيث إقتنصت لقطة نادرة لها أثناء التفاتتها، دون أن تحس ثم تنحيت بعيداً. جلستُ على أريكة قبالة عجوز مقعدة وأمعنتُ النظر في الصورة، كانت واضحة الى حد انني تخيلتها تحكي معي! ولم أتمكن من منع إنسياب دموعي. بقيت أراقب الفتاة الخمسينية المنتظِرة، كنت أريد تأهيل نفسي الى مستوى نقل الخبر الى صاحبي ولكن كيف؟ هو رحل عبر البحار لهدف وحيد هو الثأر لكرامته من حبيبته، بينما رحلت هي في الإتجاه المعاكس قاطعة البحار بحثاً عنه. هو

يريد أن يراها لكي يقتلها وهي كادت أن تقتل نفسها من أجل أن تراه! لاأدري كيف، كتبت في جهازي "مقدمة فيلم أسرار عائلية":

سنيناً طوال إنزوت الأنثى في كهفها الموحش البعيد، لتنحت بأصابعها المدماة في الصخر لكي تصنع منه قارباً ينقلها اليه. لم تبال بوحوش البر، ركبت البحر عارية من كل شيء، بعد أن صنعت من ردائها شراعاً، لم تملك غير بوصلة متعبة هي قلبها، صارعت أسماك القرش، وعواصف اليم، وراوغت غارات القراصنة. لكنها كانت تريد الوصول الى المستحيل، الوصول اليه، وصلت بعد أن أشرقت الشمس وغربت آلاف المرات.

ترى هل هذه مقدمة أم خاتمة؟ بنصف وعي، بل بلا وعي، إستنسخت الصورة وبعثتها مع ما كتبت على عنوان "وائل" الالكتروني ثم قررت فجأة أن أقابلها، نعم لقد تجاوزت دوري، لكنني كنت مضطرباً خائفاً أن تضيع الحقيقة من جديد! عدت بخطوات سريعة باتجاه المرأة الخمسينية، كانت قد جلست على أريكة تحت أغصان شجرة زان ضخمة تتفحص وجوه القادمين، إقتربت منها وأنا أختض مثل صفصافة في تشرين عاصف فجَفَلَتْ، وقفتْ وحملقتْ بي، كانت عابقة بضوع البحر، خلعتُ قبعتي ورفعت نظارتي الشمسية بيدين مرتجفتين وقلت بصوت أشبه بالبكاء: سعيد بسلامتك، هل تتذكريني؟ وصل القارب الحجري الى مرفأه..إطمئني

كتبت "زهور" في دفتر يومياتها:

قصتي، قصة امرأة، أي في مجتمعاتنا العليلة، قصة كائن مدجن، دجّنه الرجل مثلما دجّن البقرة والحصان، وهي مثال على عملية تدجين مبهرة، جعلت منها دجاجة بيّاضة في قفص الزوجية المقدس، من سن البلوغ حتى سن اليأس! تسمع البنت مبكراً مقولة: أن الحب يأتي تلقائياً بعد الزواج، "وهي نظرية الأهل الراجفين من فكرة عشيق أو حبيب تجول برؤوس بناتهم"، لكنها إذا تجرأت وسألت أمها، مثلاً: ماما، وإذا لم يأت الحب بعد الزواج؟ عندها ستنظر الأم لها باستهجان وترد محتدة: "إذا لم يأت من تلقاء نفسه، فستأتين أنت به، إطمأني. المرأة هي التي تأتي بالحب!". ستبقى حائرة، كيف ستأتي بشئ غير موجود عندها؟ ثم ستعرف أن أمها تقصد معنى واحداً مثلما يقصد الجميع: عليها في كل الأحوال، كبنت، أن تحب من سيكون زوجاً لها، أو من سيفرض زوجاً عليها، هو حكم قطعي مؤبد!

النتيجة أن ثلاثة أرباع نسائنا ينمن في أسرة مع رجال، وقلوبهن تنام في أسرة أخرى مع رجال آخرين، هذه هي الحقيقة التي لا يتحدث عنها أحد!

9 781234 567897

maizar